المؤتمر العام الثالث لمنظمة الاونسكو

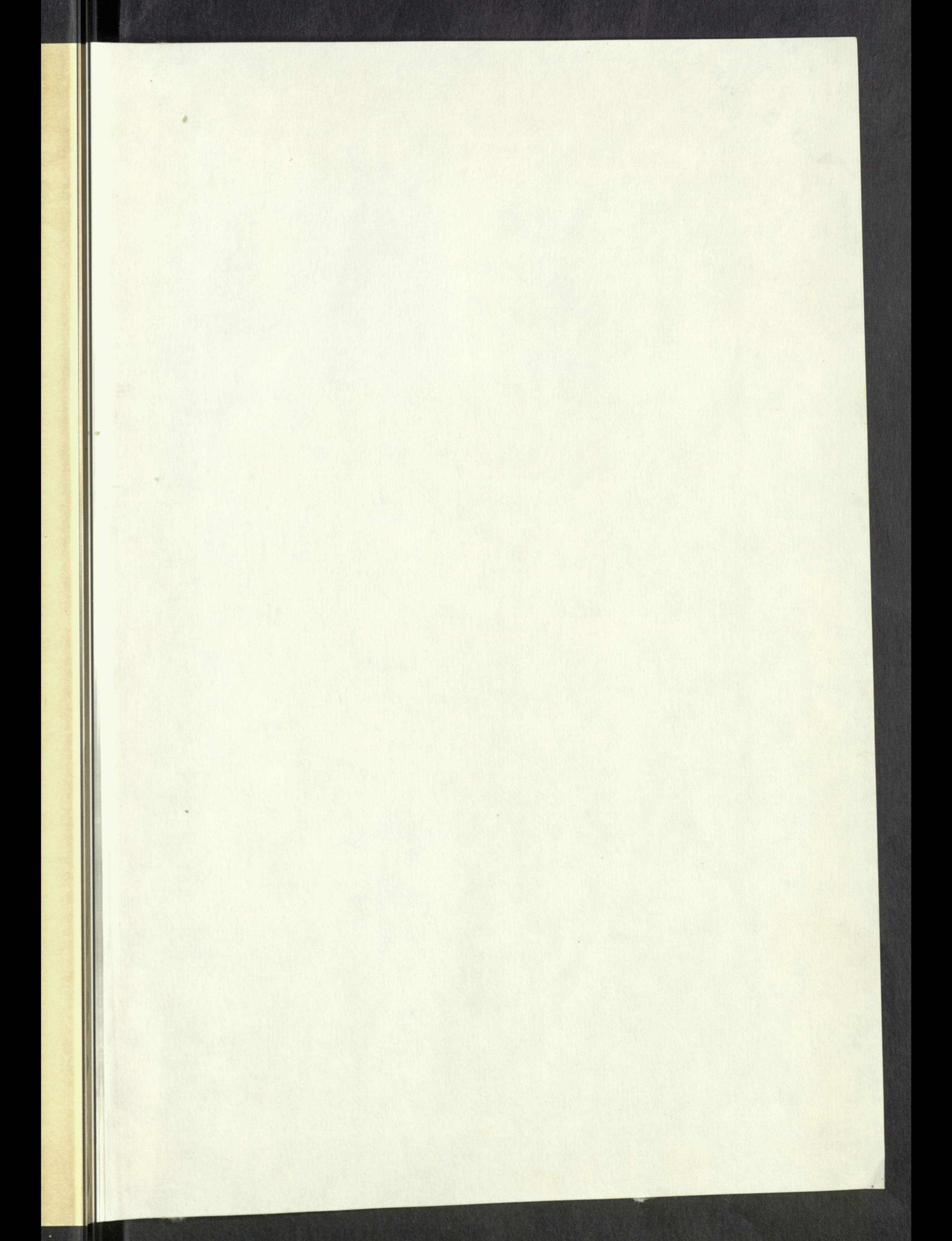
اعلام اللبنانيين في نهضة الآداب العربية

نشرته

اللجنة اللبنانية لاعداد شهر الاونسكو

تشرين الثاني — كانون الاول ١٩٤٨

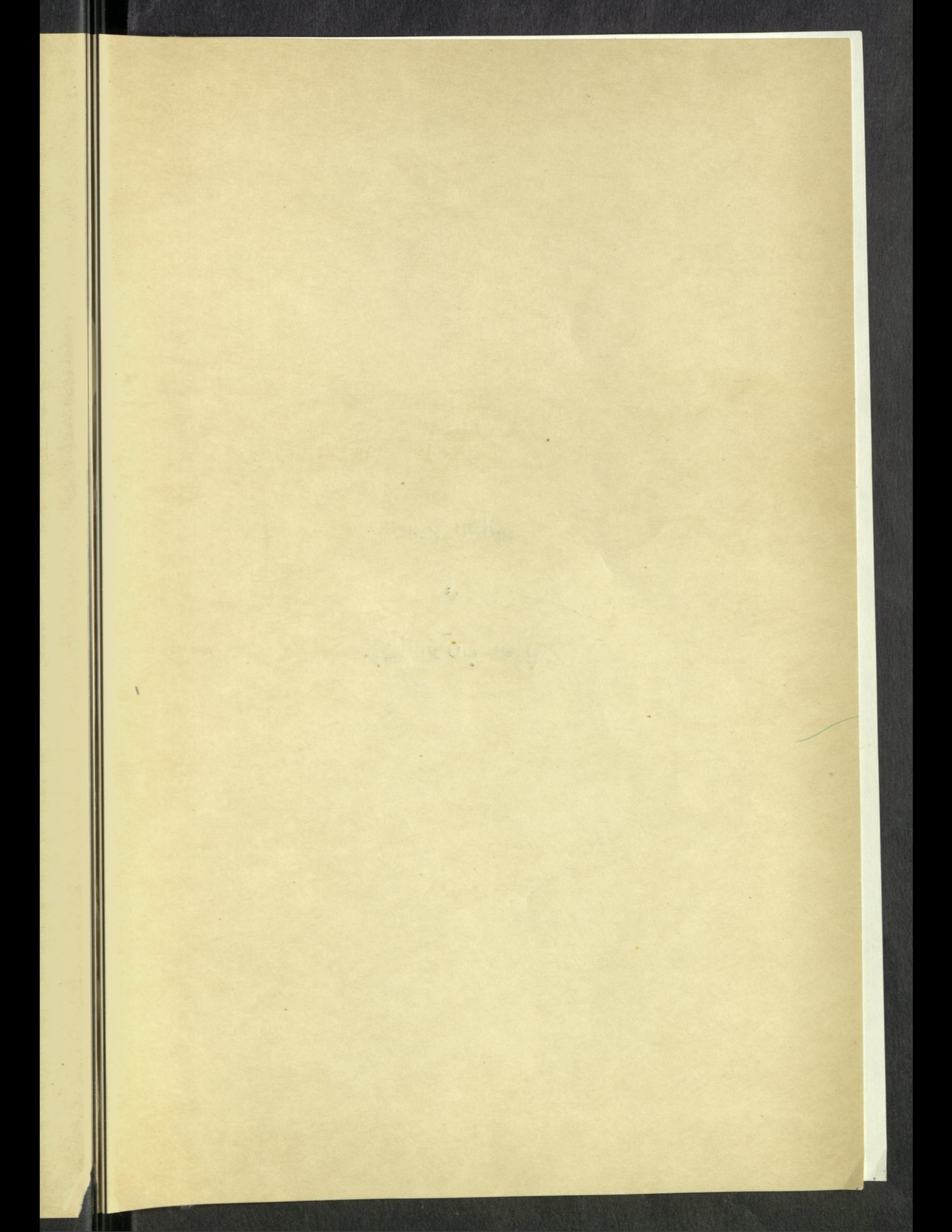
بيروت



اعلام اللبنانيين

في

نهضة الآداب العربية



المؤتمر العام الثالث لمنظمة الاونسكو

اعلام اللبنانيين

في

نهضة الآداب العربية

نشرته

اللجنة اللبنانية لاعداد شهر الاونسكو

تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٤٨

بيروت

تمهيد

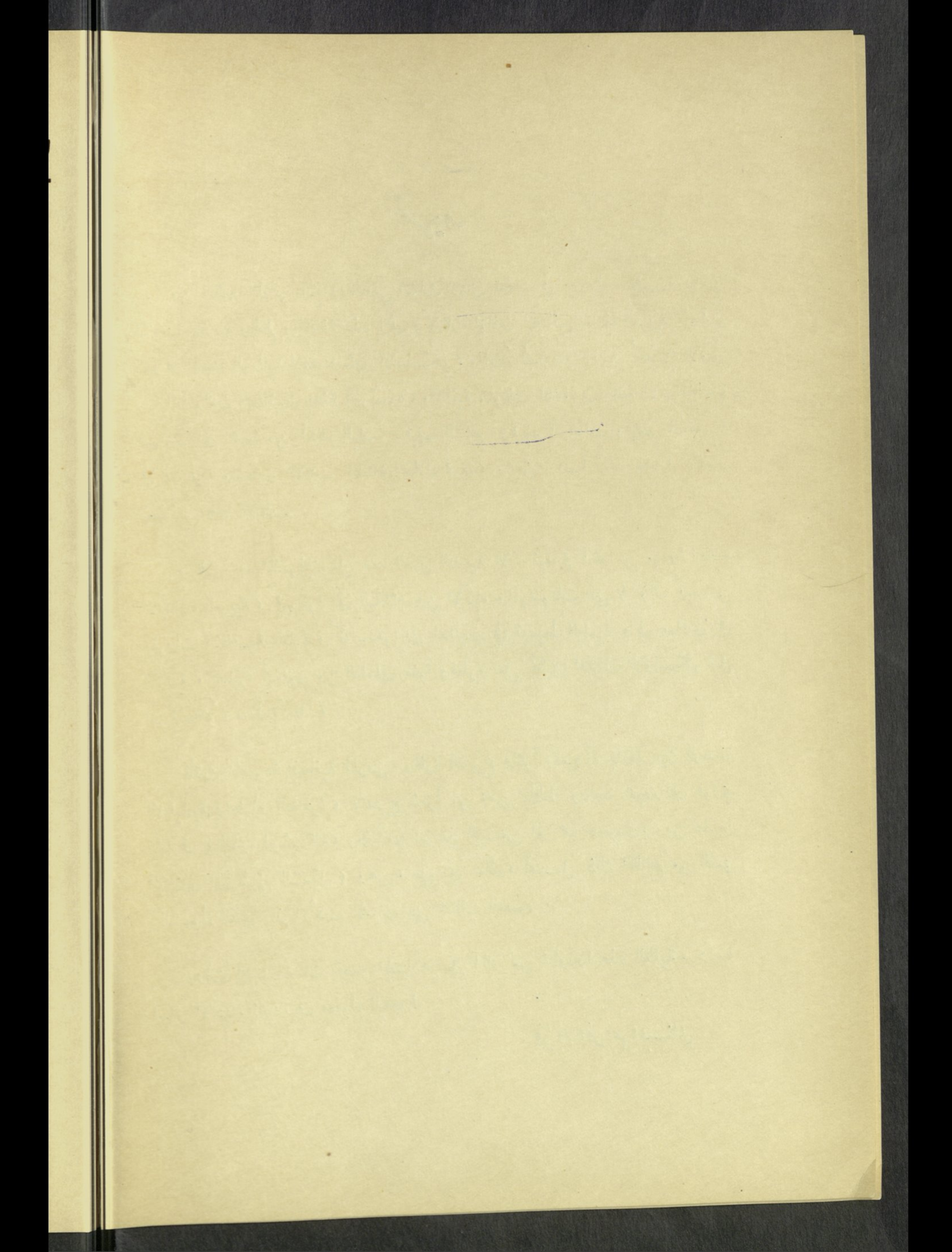
من نتائج المؤتمر الثقافي العالمي الثالث الذي تعقده في بيروت منظمـة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة هذه الجمهرة لآثار المؤلفين اللبنانيين باللغة العربية . رأت نشرها اللجنة الوطنية لاعداد شهر الاونسكو، مقابلةً لمجموعتين ثانيتين خُصّت الاولى منهما بالمؤلفين اللبنانيين باللغة الفرنسوية، والثانية بالمؤلفين اللبنانيين باللغة الانكليزية؛ فعهدت الى عمدة من أدباء البلد – فيهم الشاعر وفيهم الكاتب وفيهم الناقد – في تمحيص منتجات الادب اللبناني خلال قرن، واختيار مـا تراه جديراً باظهار خصائص هذا الأدب .

وكان رائد المشرفين على هذا العمل الناحية الانسانية في آثار من مهدوا لنهضة الآداب العربية، فسبقوا الى الكثير من الآراء والموضوعات التي لا تزال تُعد من مقومات الثقافـة العامة، كما سبقوا الى اساليب في تبسيط العلم، والى مبادئ في التربية والتعليم، تجعلهم من العاملين عفواً وفطرةً على تحقيق اهداف الاونسكو قبل ان تتكوّن منظّمةً عالمية .

فأتت المجموعة انسانية المرمى، وافرة التنوّع فكراً وتعبيراً، جامعةً بين الرصانة التقليدية والجرأة الطافرة، تتدرّج شعراً من تامر الملّاط وداود عمون الى فوزي المعلوف والياس ابوشبكة، ونثراً من ابراهيم اليازجي الى عمر فاخوري، ومن بطرس البستاني الى شبلي الشميّل؛ وهي، على ايّ حال، تحمـل ذلك الطابع من العمق والشمول الذي ماز الأدب اللبناني على مختلف العصور .

ورأت اللجنـة ان تقصر اختيارها على آثار مَن تجاوزوا هذه الفانية، داعيةً لسائر الأدباء اللبنانيين بطول البقاء !

فؤاد افرام البستاني



القسم الاول

الشعر

تامر الملاط

سليمان البستاني

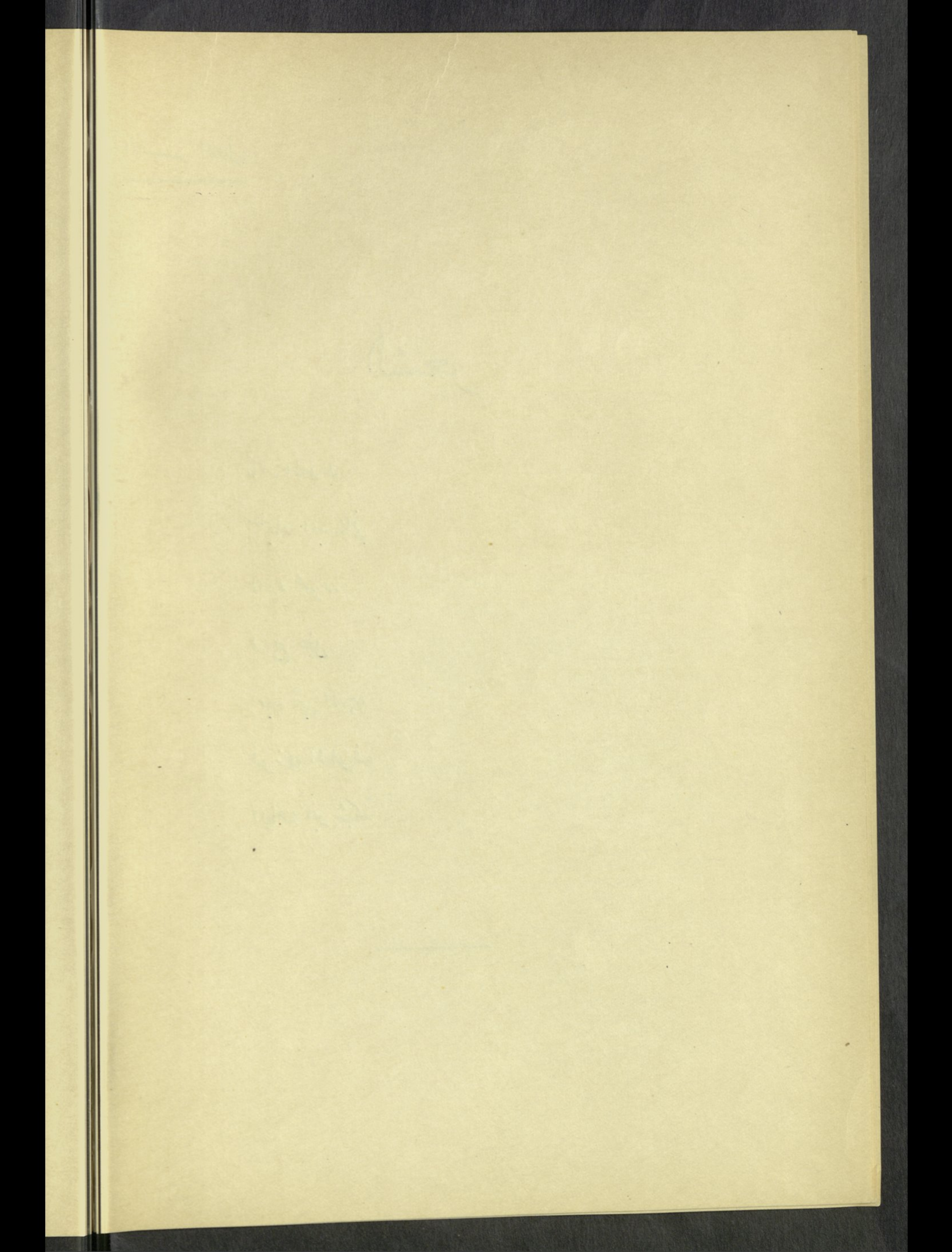
داود عمون

وديع عقل

امين تقي الدين

فوزي المعلوف

الياس ابو شبكة



تامر الملاط

(١٨٥٦ — ١٩١٤)

ولد تامر بن يواكيم اده الملقب بالملاط سنة ١٨٥٦ في بعبدا، وتلقن العلم في مدرسة مار عبدا هرهريا؛ فتلقن السريانية والعربية، ودرس اللاهوت والمنطق والاداب العربية . ثم علَّم في احدى مدارس الحكومة في اهدن . ومن اهدن دعي الى معهد المزار في غزير فاقام سنتين، والّف روايتين مأساة ومهزلة . ثم جاء مدرسة الحكمة فعلم فيها مدة

وقرأ اثناء اقامته في بيروت الفقه على الشيخ يوسف الاسير، وانخرط في سلك القضاء، فاشغل وظيفة رئيس كتاب محكمة كسروان، ثم عضوية محكمة زحلة، فعضوية محكمة الشوف، فرئاسة كتاب دائرة الحقوق الاستئنافية، فرئاسة محكمة جزين، فرئاسة محكمة كسروان، ثم اضطربت قواه العقلية على اثر ظلم انزله به متصرف الجبل آنذاك، فلزم بيته الى ان وافته المنيّة يوم الاحد الواقع في ٢٧ ك ١ سنة ١٩١٤

الّا ان المرض لم يمنعه عن نظم القريض، فقد كان يتلهى بانشاد الشعر وتلحينه، ذلك أن لفيف دماغه العلمي ظلّ سليماً بل صار نيّراً مشتملاً، وهو القائل :

اصبحت جَذوة نار تلتظي لهباً ستبصرين رمادي بعد أيّام

والقائل :

فلئن تروني نضو خطب بالياً فالقول فخم والكلام جديد

وهو شاعر جاهلي السبك والعبارة والنفس يرضى عنه ابن قتيبة، ويقول فيه جامع مختارات الزهور : انه شاعر جاهلي فحل، جاهلي الديباجة، سما به شعره الى طبقة اكابر الشعراء

جئت الاخير ولو اني سبقت لما ابقيت للناس الّا انهم أولوا

وقصيدته في وصف صراع خيالي وقع بينه وبين النمر واحدة من ثلاث في الادب العربي : هي، وقصيدة بشر بن عوانة : « افاطم لو شهدت . . . » : وقصيدة المتنبي : « في الخدّ ان عزم الخليط رحيلا . . . »

الحياة في الشعر

دعـاني أجرع الغمأ فجفني بالأسى نمـا
وخلّاني أُصيحابي وسهم الغدر قـد أصمى
فلم ابصر اخـاً يُرجى ولا خالًا ولا عمّـا
وجـدّ الدهرُ في قهري يَحِثُّ الهمّـة الشمّا
سقاني جـرعة مرتْ دعتني بعدهـا السمّا
رأيتُ النـاس تخشاني كأني وابئ الحمّى
فـلا ادري أحيًّا بتُّ ام ميتاً قضى ظلما
ارى بيني وبـين البؤس ودًّا طـافحاً جمّا
اما من مفسد واشٍ سعى بـالوشي مهتمّا
فخلّى ودَّنا شمـلًا شتيتاً لن يرى لمـاً
عيناً حار عقلي في حيـاة تشبه الحُلما
ارى فيها من الاضداد مـا يستوقف الفهما
اعاجيبٌ قضت مـني شؤوناً بالأذى جُمّاً
فبي كالضرب آلامـاً وما مـن ضارب همّاً
وكالتجريـح اوجاعاً ومـا من جارح أدمى
وكالنيران تشوي الروح ثم اللحـم والعظما
ولا نارٌ ولا جمرٌ ولا مـا يشعل الفحما
وكالادواء اعـراضاً تذيب الصخرة الصمّا
وما من علّـة تُشكى لطبّ يبرئُ السُّقما
وكالاغـلال في جسمي ولم احمـل به دُهما

وعقلٌ ذاهــل ساهٍ سجينٌ موثــق رَمّا
كأني غيرُ موجــودٍ ومــوجودٌ قد اهتمَّا
اشكُّ اليوم بي حتى وجودي خلته وَهما
فقبلي لم يكن سجنٌ يعمُّ الروح والجسما
حبيسُ الروح عن حسٍ وفكرٍ سرَّ او غمَّا
وعن حفظٍ وعن ذكرٍ وعن حُكم ولو مهما
حبيسُ الفعل ثم النطقِ لا حتى ولا أَمَّـا
ولا سمعٌ ولا شوقٌ ولا لمسٌ ولا شمَّا
قوًى محبوسةٌ جمعاء ممــا خصَّ او عمَّا
فعــالٌ وانفعالاتٌ ولا حرّيــةٌ ثمَّا
وحسَّاس جمــادٌ في زمــان واحد حُكما
مقود غير مختــار كأني آلــة صمَّا
اذا ما حشرة ازّت عرتــني هزة رغما
وإن صرَّ الذباب الغثُّ صرَّت اضلعي ممَّـا
ويأتيني البكا عفــواً ويعصيــني البكا لمَّا
ولا أسطيع جذب النفس عن ضحك بيَ أنتمَّا
ولا أقوى عــلى ضحك اذا يمَّمته أَمَّـا
وحــالٍ كالغِنى شكلًا بفقر مدقع غمَّـا
طعام شائق حلــوٌ ولكن مرًّ لي طعما
ونوم دون تهــويم تراه اعيني حتمــا
شؤون لو رواها الحرُّ نالت سمع من صُمَّا
وقالوا : جِنَّة عاثت بعقلي فالتوى رقمــا
وقالوا : انمــا القسيس فيــه نافع حسما
خرافاتٌ وأوهــامٌ تعيب العقلَ والعِلما
وقالوا : انــه داءٌ لأعصابي قــد انضمَّا

ومنهم مـن رأى شيئاً ولا كنّى ولا سمّى
فهـذا النزر ممّا بي عـلى ما اسطعته نظما
ولا ارتاد لـلايام تمديحاً ولا ذمّـا
فـذا حظّي من الدنيا فدعـني لا ترد عمّا

الشامية

روحي فدى ظبيات الشام والشامِ ولو كلفنَ وَلوعاتٍ بإعدامي
بين البريد وجابيها على كثبٍ اضعتُ قلباً مُعنًى نِضوَ أسقامِ
ما انسَ لا انسَ اذ بالجزع من بردَى صوبُ اللجين يباري مدمعي الهامي
تمرُّ ريحُ الصَّبا بالروض حاملةً للكوثر العذب ريًّا عرفه النامي
وزاجلُ الماء يروي للنسيم ضحًى بردَ الحنـانِ بتلحينٍ وأنغامِ
واشٍ ينمُّ ونمّامٌ يشي ابـداً أُحِب بذينك من واشٍ ونمّامِ

يا ظبيةً زودتني نظرة تركت روحي تسيل على أطراف أقدامي
ما ضرَّ بالشام لو ثنيتها فمضت بهجتي وانقضى تبريح آلامي
انت المكسرة الاسيافَ صائلةً بمرهف النصل ماضي الحد صمصامِ
وما تخذتِ شعار السيف في لقب الّا بجامع فتكِ الصارم الظامي
مكسور جفنكِ لو جردتِ باتره يَبري صحاحَ المواضي بريَ اقلامِ
لو تعرضين لذي مِسح بصومعة في القُوس منقطعٍ بالنسك قوّامِ
اعطاكِ اجمعَ ما صلى مناجزةً بنظرةٍ من صبيحٍ منك بسّامِ
وراح يمسح عُثنوناً وعنفقـةً تيهَ المُقامر لاقى نجح أزلامِ
ولو سموتِ لذات الرمل سافرةً بسفح دمّرَ او في هامة الهامي
ظنّتكِ جُوذرها الوسنانَ فابتدرت تدعوه بـين يعافيرٍ وآرامِ

ما الروض باكره طلٌّ فرتّله كاللؤلؤ الغض من زهرٍ وأكمامِ
ابهى واطيبُ نشراً منكِ ناضيةً بكلّة الخدْر ذا وشيٍ واعلامِ

لو في الملاحة عن شمس النهار غِنًى كفيتِ رمضاءها مستوطنَ الشامِ

يا ظبية الشام ردّي قلب مبتئسٍ او شاركيه بوجد جارحٍ دامِ
ولست اطمعُ في قربٍ بخلتِ به خوفَ احتراقك في مستوقدٍ حامِ
اصبحتُ جُذوةَ نارٍ تلتظي لهباً ستبصرين رمادي بعد ايامِ

الشاعر والنمر يقتتلان

وليلٍ تكادُ الكف تلمسُ جلدَهُ ترامت به الظلماءُ سُدلاً على سُدلِ
سريت به لم استخر غير صاحبٍ من الهند يرضى كلَّ شيءٍ سوى خذلي
ترى الجوهر الهنديَّ في متن نصله يدبُّ دبيب النمل في مدرج النملِ
بيهماءَ لم اسمع بارجاء جوها سوى أطحل يعوي لعاويةٍ طُحلِ
وارقط رابي المتن مستحصد الشوى كقنطرة الباني على عمدٍ عَبلِ
خفيفٍ ضبور الوعث تنفي متى عدا يداه الحصى كالمستطير من النبلِ
هريتٍ له شدقان مثل مغاره ووجهٌ عليه شارة الغدر والَختلِ
مفطّح ما بين المسائح باسل بأسجر حملاقٍ وكالحةٍ عُصلِ
فزمجر لما استافَ ريحَ فريسه وزفَّ على المعزاء في خفةِ الرألِ
فقلت رويداً يا ابا الابرد اتئد فلم يكُ قوتُ النمر صمصامةَ مثلي
فجاشت به جياشةُ الحقد ما ارعوى واقبل مثل السهم مِرجلهُ يغلي
فصادمه في همة النجم ماجدٌ يرى ان عبءَ العار شرٌّ من القتلِ
تنمر فاستأسدتُ لكن بمأزقٍ على غير صُمِّ المرو ما وقعت رجلي

هوَيتُ عليه بالمهند فـاتّقى بصرّاء ابلت بالجراز كما يبـلي
فلم يبقَ الا مقبض النصل في يدي فقلت لزندي انت امضى من النصلِ
ولم تـكُ إلا لمحةٌ ثم ضمنا عناق كلانا فيـه معتنق الصلّ
فملتُ عليه آخـذاً بمقذِه بكف واخرى بين لحييه كالكبلِ
ومنا بارجـاء الفلاة، زماجرٌ دويٌ هزيم الرعد في العارض الوبلِ
فما زلتُ ان فرّجت شدقيه فارتمى وخار خواراً هز مرتكز السهـلِ
فألقيته شطرين من عنـد حلقه الى حيث وُصلُ الجيد بالكاهل العبلِ
وفي الارض من أزْل العراك وبأسه تبيّنَ كالأخدود في عُقَـد الرملِ
فبات رويَّ الغلّ من منهل الردى ابو الابردِ العاتي وفاز اخو الشبلِ
وقمتُ فأعـددتُ المُدى وسلخته واقلعتُ عند انفضُ النعلَ بالنعلِ

النشيد الوطني اللبناني

هلمَّ يا بني لبنانْ لموطـنِ المجـدِ
هلمَّ يا بني الاوطان شِيباً الى مُردِ
ودافعوا عن ارزكم في الموقف الصعبِ
وعزوا من امركم في الشرق والغربِ

كذا قضى حب الوطن يا ايها القوم الكرامْ
فلنئتمر بـأمره يكن لنا اسمى مقامْ

هلمَّ يا اخواننا لنجدة الوطـنْ
ولتفـده ارواحنا بالسر والعلـنْ

النصر مكفولٌ لنا ان كنتم شجعان
فلننتصر او فلنمت فدّى عن الاوطان

كذا قضى حب الوطن يا ايها القوم الكرامْ
فلنئتمر بأمره يكن لنا اسمى مقام

ربي أدمْ لبنانَنا لنا مدى الدهرِ
وليحمهِ شجعانُنا بالبيض والسمرِ
ولندحرَنْ اعداءه في المركب الوَعرِ
فالموت ان لم ننتصر أجدرُ بالحرّ

كذا قضى حب الوطن يا ايها القوم الكرامْ
فلنئتمر بأمره يكن لنا اسمى مقامْ

حبذا اذاً موارد الممات
ذاك فخرنا وموتنا حياة

٢١

سليمان البستاني

(١٨٥٦ – ١٩٢٥)

كبير من كبار البستانيين والجيل . نقل الياذة هوميروس شعراً عربياً عن اصلها اليوناني وقدّم لها بكلام على الاداب العربية والشعر هو اول ما يذكر في المباحث النقدية العلميّة . كان في طليعة الشرقيين ثقافة واحاطة بلغات ابناء الغرب، قديمها وحديثها، وبآدابهم وعلومهم وفنونهم . فقد كان يحسن الى جانب العربية، والسريانية، والفارسية، والعبرية، والهندية، والتركية، اللغات اليونانية، واللاتينية، والانكليزية، والفرنسية، والايطالية كما كان يلم بالالمانية، والروسية . وكثيراً ما خطب في المجلس العثماني بعدة لغات ليفهم اقواله النواب على اختلاف عناصرهم وبلدانهم . كان في شعره مروّج موجات شعرية لم يزل لها ترجيع في شعر المحدثين . وكان في نثره صاحب طريقة واسلوب وصفه الاستاذ بطرس البستاني بقوله :

« انشاؤه رصين عار، لا وشي فيه ولا صور خيالية . واذا عرض شيء من ذلك فانه لابعد من ان يأتي متكلفاً، وانما هو يجري مع الطبع السماح في سياق تركيب الجمل . اسلوب يسير هادئاً مترفقاً لا صوت له ولا قعقعة إلّا رقرقة خفيّة كجرس الماء في الجدول المستقيم . اسلوب حافل بفلسفة النقد والتاريخ وبالادلة العقلية والتعليلات المنطقية إلا انه واضح كل الوضوح منسجم كل الانسجام . . . ولانشائه بلاغة في تأدية المراد دون تطويل ولا ايجاز » . وكان سياسياً عميقاً مرناً قام بمهام وزير الخارجية التركية من دون ان يكون له اسمها . وكان رحّالة واسع الاطلاع وطنياً مثالاً في الاستقامة والاخلاص .

هو سليمان بن خطار البستاني ولد في الدبّية . اخذ مبادئ العلم في « المدرسة الوطنية » ثم احترف التعليم . وكتب في « الجنان » و« الجنّة » و« الجنينة »، فطارت له شهرة وهو في حدود العشرين، فدعي الى البصرة لانشاء مدرسة فيها فتولى امر هذه المدرسة سنة ثم اتخذ بغداد مقره وجعل عضواً في المحكمة التجارية ومديراً لبواخر عمان والبصرة . فاقام في العراق ثماني سنوات . ثم عاد الى بيروت وانتقل منها الى مصر، فالهند، فالعجم، فالاستانة حيث اقام سبع سنوات كان يقصد اثناءها الى اوربا واميركا . في السنة ١٨٩٦ استقر في مصر الى ان اعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ فاختارته بيروت مبعوثاً عنها في المجلس العثماني الذي انتخبه رئيساً ثانياً له سنة ١٩١٠ . وانتدبته حكومة السلطان الى اوربا غير مرة في مهمات رسمية فقابل الملوك والرؤساء وعظماء الدول وفضّ مشاكل السياسة الخطيرة فجعله الخليفة محمد رشاد عضواً في مجلس الاعيان ثم عهد اليه في وزارة التجارة والزراعة سنة ١٩١٣ . استقال من

الوزارة عند اشتعال الحرب العالميـة الاولى وسافر الى سويسرا سنة ١٩١٤ واقام فيها خمس سنوات. ثم جاء مصر واتخذها مقاماً حتى سنة ١٩٢٤ فابحر الى نيويورك مستشفياً من ماء في عينيه حيث توفّاه الله اليه في اول حزيران ١٩٢٥ . ورفاته اليوم في قريته الدبية .

اما مؤلفاته، في ما عدا الالياذة فكتاب « عبرة وذكرى » يبحث في الاحوال السياسية قبل الدستور العثماني وبعده . وله طريقة الاختزال العربي، ومقالات في الصحف العربية والفرنجية وله من غير المطبوع « تاريخ العرب » و« رحلاته » وذكريات .

الداء

ألمْ تسأم وعيشك بات مرًّا | تُوسّد من لظى الآلام جمرا
وجفنك لا يذوق الغمض سهدًا | وإن هجعَت عُيون النـاس طرًّا
إذا انقشع الظـلام رصدت ليلًا | وإن هجم الـدجى راقبتَ فجرا
تلوح لك الوجـوه البيض سوداً | ووجه الأفق يبـدو مكفهرًّا
يقول لك الإسى : « صبرًا! » وأنّى | عـلى هذا العذاب تطيق صبرا
إذا عالجتَ عضـواً هجتَ عضواً | وإن داويت رأساً هِضتَ صـدرا
كأنَّ بكلّ عرقٍ منـك داء | تسكّن علّـةً فتثور أخرى

فحين أهبُّ ممّا قـد دعوه | رقاداً، وهو مني قـد تبرَّا
لكهف الكهرباء أُقـاد حتى | مجاريهـا تُساق إليَّ جرًّا
كأنَّ لهـا شعوراً بالتياعي | فتُسمعني أنـين الحزن جهرا
فمن ظهرٍ الى بطنٍ وفخـذٍ | صفائح ترمض الاعضـاء حرًّا
إذا علت الأديم وألهبتـه | ذرَت كُلَفاً بـه سودًا وحمرا
فألقى بعـد ذلك في فراشي | زماناً خلتُ منـه الجزء دهرا
وقد غُمست رفاداتٌ بـماء | غـلى حتى كوى كيًّا أشرًّا
فأستلقي فتأتيني تبـاعاً | إلى ان يُقرَع النـاقوس ظُهرا
فيُؤتى لي بزادٍ مـن إدامٍ | زهيد، يورث الزُّهـاد كُفرا
فان رمقي سددت بـه، أُعيد | النطول بنـاره شفعاً ووِترا
أظلُّ بصـبرِ أيوبٍ أُكَوَّى | به، حتى يحـين الوقت عصرا
فأُدخَـل مغطس الكبريت فيه | أقيم دقـائقاً خمساً وعشرا

فمن نارٍ الى نارٍ فنارٍ … وهـذا منتهى النيران تترى
ولست بواصفٍ جرعات مـاءٍ … ولا مـا صُبَّ في العينين قطرا
ولا الإبر النواخس نافثـاتٍ … مخـدر أزمةٍ لزباءَ تطرا
ولكن عـن مرارة كل يومٍ … أُحدّث للملا عبرًا وذكرى
وإن أزف المساء وُخرتُ عزماً … أتى المسّاد مهراعاً مكرًّا
فيـدلك بالمراهم جسم حيٍّ … كميتٍ، يُصعـد الانفاس زفرا
وأُعطى القوت مـا أُعطيت قبلًا … فأقبله بكره النفس جـبرا
ويرجع بعـد ذا المسّاد ليلًا … فيلفيني ضئيـلًا مقشعرًّا
وكادت تبلغ الروح التراقي … وكدت أرى حيـاة المرء نُكرا
فذا دائي وذاك عـلاج دائي … ولست بعـالمٍ أيًّا أمرّا

تحفُّ بك الأساةُ، ولست تقضي … لذاك العطف، ما بالغتَ، شكرا
ومن حوليـك ثَمَّ ممرّضاتٌ … حنين الأمهـات تخذنَ نذرا
ومـا يجدي العلاج وجهدُ آسٍ … بداء أثقـل الجثمان وقرا
وبرّح في خـلايا الجسم، حتى … تجاوزهـا، وفي النفس استقرًّا
فتلك العلّة الكبرى، لديهـا … حسبتُ مضاضـة الادواء نزرا
وحيدٌ في بلاد لست منهـا … وإن طابت وكان الأنس وفرا
بعيدٌ عن حمى أهـلٍ ورهطٍ … به نثرتهم الاقـدار نثرا
رياضٌ زاهراتٌ بِـتنَ بُوراً … ودورٌ عامراتٌ بـتن قفرا
وأعمالٌ وآمـالٌ تلاشت … برصف بنائهـا أفنيتُ عمرًا
بِناءٌ شامخٌ قـد دُكَّ دكًّا … وطودٌ راسخ الاركان خرًّا

أشأنك ذا، وبعدُ تروم عيشاً … وتعقد نيَّـةً، وتقول شعرا
أَجل! إنَّ الرّغائب خادعاتٌ … يقدْنَ النفس، حيث عمدْنَ، قسرا
ولكني، وحقِّك، ليس حرصاً … عـلى الدنيا استطبت بها المقرّا

خبرت هناتها الجُلّى، وإني بلوتُ مذاقها حلواً ومرّا
فليس برائعي عنها ارتحال وليس برائقي أن أستمرّا
كفتني قسمتي منها، وليس الأُلى قد جاوزوا الستين كُثرا
على أني رأيت اليأس عجزاً يثبّط همّةً، ويزيد قهرا
ويُؤلمني انتثار نتاج جهدي وقد سدل الزمانُ عليه سترا
ولي وطنٌ تثقّل كاهلاه وأهلوه يعانون الأمرّا
لهم وله عليَّ ديون حرٍّ أروم وفاءها فأموتُ حرّا
وبعد قضاء ذلك لا أُبالي أطال العمر أم أُلحدت قبرا
وإن تغل المنية قبل هذا فإنَّ بنيّة الاخلاص عذرا

الشفاء

أفق ولو حيناً قُبيل الرحيل لم يبقَ من صحوك الا القليلْ
أفق فذي شمسك رأد الأصيل
ان آذنت بالعبور عمّ الظلامْ
ونمت عاري الشعور بين النيامْ
وفاتك الحسُّ وسمع الكلامْ والمنطق العذبُ ومرأى الجميلْ

أطل من شرفتك العاليهْ وسرّح الطرف على الرابيهْ
بين غياضٍ برزت زاهيهْ
بوشي ثوبٍ قشيبْ زاهي الرّشاشْ
يشرح صدر الغريب ما الجأش جاشْ
لا يُتقى فيها رقيبٌ وواشْ ولا من الظلام سيفٌ سليلْ

من بحر ليمانٍ الى مُنريانْ بعضٌ على بعض غياضٌ حسانْ
زمرديٌّ فرشها كالجنانْ
من دونهنَّ الخليجْ ضافي الغمارْ
ذكرى فروقٍ يهيج عند الحصارْ
عبابه يمخر فيه البخار بآنس ثاوٍ وغادٍ نزيلْ

تُحدق فيه الهضب الراسخاتْ من فوقهنَّ القمم الشامخاتْ
تزينهنَّ اللمم الناصعاتْ
شيبٌ ولكن على عزم الشبابْ
فما استذلت ولا هولًا تهابْ
كأن قسَّام الحظوظ استطابْ بقاءها للدهر جيلًا فجيلْ

مهٍ فقد أقبل جيش الضبابْ ينفثُهُ اليَمُّ بوجه العبابْ
مثل دخانِ القدر مرأى عجابْ
يبدو بخاراً لطيفْ بلا التئامْ
ثم ركاماً كثيفْ مثل الغمامْ
حتى اذا كالجيش تمَّ النظامْ الى سحاب ناصعٍ يستحيلْ

ينشر جنحيه على الضفتينْ ويتمطَّى بكلا الجانبينْ
فيحجب النورَ عن المُقلتينْ
تلفيه بحراً يموجُ بين الجبالْ
وما لتلك المروجْ فيه خيالْ
بحرٌ على بحرٍ بديع الجمالْ هذا على ذيَّاك ارخى السديلْ

وان اتى الليل ولاح القمرْ رايته يلمع مثل الدررْ
فبتَّ ريَّاناً قرير البصرْ
وقمت عند الصباحْ وقد دهاكْ
فلا ترى في البراحْ وقع خُطاكْ
نظنك الأعمى فتأبى الحراكْ الا اذا ما كنت تِلوَ الدليلْ

من تحته شمسٌ سناها ينيرْ وفوقه شمس تشقُّ الأثيرْ
بينهما كالطير اضحى يطيرْ
مُحلقاً في الرقيعْ دوماً يحومْ
حتى اخيراً يضيعْ مثل الرُّجومْ
مندمجاً في سابحات الغيومْ او عابثات الريح أنَّى تميلْ

والآن والغيهب في الافق غابْ قم وتمتع بين روض وغابْ
بنسماتٍ نافحاتٍ عذابْ
والطير مصداحه بادي الحنانْ
والماء وضَّاحه طلق العِنان
جداولٌ تنساب كالافعوان مثل اللُّجين البَضِّ وسط المسيلْ

وحبذا تلك الرُّبى والحقولْ والغِيد والفتيان فيها تجولْ
كأنها الغزلان فوق السهولْ
بجنيها للزهورْ تنفي العنا
وضمها للصدورْ تلفي المُنى
زهر على زهر تراه الحنى كلاهما مرآه يشفي الغليلْ

والشمس إيناساً لتلك الزمرْ تبدو فتخفى مثل لمح البصرْ
وتتوارى دفعاتٍ أُخرْ
كالطفل اذ يختبي خلف الظهورْ
يضحك للملعبِ بين الحضورْ
يلهو ويلهيهم بملء السرورْ واللطف من خديه شهداً يسيلْ

سائمةٌ يعتز حرّاسها ترنُّ في الاعناق اجراسها
تبهجهم في الحقلْ أكداسها
وداجنٌ في البيوتْ فيه اعتني
كسبٌ وذخرٌ وقوتْ للمقتني
كلُّ يدٍ من كدّها تجتني لا خامل فيها ولا مُستقيلْ

وحيث لا زرع فغاب كثافْ وحيث لا ضرع فخير احترافْ
ومن أعالي الطود حتى الضفافْ
في نائيات القرى سلك البريد
ومحكمات العرى طرق الحديد
مثل الشرايين بجسم شديدْ تورثه العزم لعمر طويل

داود عمون

(١٨٧٢ - ١٩٢٢)

ولد داود انطون عمون بتاريخ ٢٥ نيسان ١٨٧٢ في دير القمر . وبعد ان تلقى دروسه الاولى في مدرسة القرية انتقل الى المدرسة البطريركية وهي بعد في ابان زهوها فاتقن فيها اللغتين العربية والافرنسية . وما ان أتمّ دروسه حتى دفع اليه اخوه سليم بك عمون بمبلغ من المال قصد صرفه الى التجارة فحمله ومضى الى تونس حيث وجد وظيفة في احدى اداراتها بعد ان قيد نفسه كطالب في مدرسة الحقوق الفرنسية في اكس . كان يقصد اكس كل سنة لتقديم الامتحان ولما انهى دراسة الحقوق قصد عائداً الى مصر واستقر في قنا ونقل من ثم الى القاهرة وكان ذلك ايام كان اسماعيل صدقي باشا « ناظر الحقانية » . ولحادثة نقله قصة طريفة تختصر في ان داود عمون وجه الى اسماعيل باشا قصيدة طلب بها نقله الى مصر، وقد كان المحامون وقتذاك مرتبطون بالمرافعة امام المحاكم التي يقيدون لديها . فلا يجوز لهم ان يترافعوا امام غيرها . فلما بلغت القصيدة اسماعيل باشا وفيها هذا البيت :

وماذا يضر في عمران مصر اذا انتم اليها نقلتموه

ذيلها بقوله : بل يزيدها عماراً . وامر بنقل الشاعر والمحامي الفتى .

وفي مصر جرت له مناظرات شعرية مع حافظ وشوقي، اكبر شعراء العصر . ثم انتخب سنة ١٩١٣ عضواً في مجلس ادارة لبنان وهو غائب . ولما وقعت الحرب الكونية الاولى عاد الى مصر مع آخر باخرة اقلعت عن هذه الشطوط . ثم لما وضعت الحرب اوزارها ترأس الوفد اللبناني الاول ١٩١٩ الى باريس للمطالبة باستقلال بلاده . وبعد عودته الى لبنان عين عضواً في مجلس ادارته ثم انتخب رئيساً . وله مع المنتدبين مواقف وطنية تذكر بالحمد . ولقد توفي في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ .

اما شعره فقليل واكثر ما يدور على الوطنيات . جرى في اسلوبه مجرى القدماء في متانة السبك وفخامته وخلع من نفسه الابية عليه روعة وجلالاً .

اغنية لبنانية

سليمان البستاني

هاجَ اشواقي الى الدِّمنِ طائر غنَّى على فننِ
إيه يا قُمريُّ، انّ بنا فوق ما يبكيك من شجن
ولو ان الدمعَ منطلق لهمى، كالعارض الهتن
انما بالرغم احبسه خشيةَ التاوام واللَّسن
حبذا المصطاف في جبل ينطح الجوزاءَ بالقُنن
موئل الاحرار من قدم وأُباة الضيم من زمن
ليس لبنان لمكتسح بضعيف العزم ممتهَن
سل ملوك الروم كيف غدا عرشهم، مستوهن الركن
علّم الاهاونَ جيشَهم فنّ نظم النحر باللَّدن
فبنو لبنان، أُسد وغى اطلقت فيهم يد المحن
واختلاف الدين أورثهم علل الاحقاد والاحن
ليت ذا عزمٍ يضمهم ضمة الاعضاء في البدن
فيعيدوا السابقات المجد والعلياء للوطن
يا بني امي اذا حضرت ساعتي والطب اسلمني
فاجعلوا في الارز مقبرتي وخذوا من ثلجه كفني

الملك والشعب

عذيريَ من خُلُقٍ باسلٍ احدّ وامضى من الذابلِ
صليب على العسر لا يلتوي اذا غمزَته يـدُ الناقلِ
اذا شاقني الامرُ صعبُ المنال مضيتُ ولو انه قاتلي
وان حالَ من دونه حائلٌ مشت اخمصايَ على الحائلِ
حديدُ قوى النفس ذو همةٍ تَضايَق في جسدٍ ناحلِ
وأورَثَنيهـا فتًى امثلٌ وأورثها لفتًى مـائلِ

بلوتُ الزمانَ وأهلَ الزمان فخُذ رأيَ مختبرٍ عاقلِ
رأيتُ الملوكَ اذا اطلقوا اضرّ من الجارف الغائلِ
نفوس الرعايا وأعراضها وأرزاقها ، اكلة الآكلِ
وُعودهمُ برقهـا خُلَّب وأقسامُهم ضحكةُ الهازلِ
ولو عقلوا قيَّدوا نفسهم ومن لك بالمطلق العاقلِ
فتلك القيودُ ضمانُ العروش توطدها في المدى القابلِ
حقوقُ الملوك بتقـديسها وعادي على الحق للباطلِ
هم الأُجراء ، وان توّجوا عليهم لنا عمـلُ العاملِ
ومـا ميّز الله اشخاصهم بشيء . ولكن رضى الخاملِ

بني الشرق هبوا فقد طالما زحفتمُ في الدركِ السافلِ
الى مَ تنامون عن حقكم وتعبث فيكم يدُ العاملِ
ويظلمكمُ رجلٌ واحدٌ وانتم عدادُ الدّبى النازلِ

فدونكمُ العلمَ ، فهو المحرّ ‏ رُ ، والرقُّ لازمةُ الجاهلِ
وخلُّوا الديانات، طيَّ القلوب ‏ وكونوا عن الخُلف في شاغلِ
ألم تنظروها غـدت آلةً ‏ لتفريق جمعكمُ الحافلِ
ولا ترهبوا الموتَ فالموتُ لا ‏ يؤجله وَجَـلُ الواجلِ

بين حافظ وعمون

شجتنا مطالعُ اقمارها ‏ فسالت نفوسٌ لتذكارها
وبتنا نحنُّ لتلك القصـورِ ‏ واهـلِ القصورِ وزوارها
قصورٌ كأن بروج السماء ‏ خدورُ الغواني بادوارها
ذكرنا حماها وبين الضاوع ‏ قلوب تلظى على نارها
فمـرّت بأرواحنا هزة ‏ هي الكهربـاء بتيّارها
وارضٍ كستها كرام الشهور ‏ حرائرَ مـن نسج آذارها
اذا نقَّطتها اكف الغمام ‏ أرتك الدراري بأزهارها
وان طالعتها ذكاء الصباحِ ‏ ارتك اللّجين بأنهارهـا
وان دب فيها نسيم الاصيلِ ‏ اتاك النسيم باخبارها

وخلٍّ اقـام بارض الشآم ‏ فباتت تُدِلُّ على جارها
واضحت تتيه بربِّ القريضِ ‏ كتيه البوادي باشعارها
وللنيلُ اولى بذاك الدلال ‏ ومصرُ احقُّ بِبشّارها
فشمِّرْ وعجِّلْ اليها المآب ‏ وخـلِّ الشآم لأقدارها
فكيف لعمري اطقت المقامَ ‏ بارضٍ تضيقُ باحرارها

وانت المشمّرُ اثر المظالم تسعى الى محو آثارها
اثرت الليالي وأقعدتها بصقول عزمكَ عن ثارها
اذا ثِرتَ ماجت هضاب الشآم وباتت ترامى بثوارها
الستَ فتاها ومختارَها وشبلُ فتاها ومختارها
اذا قلت أصغتْ ملوكُ الكلام ومالت اليك بابصارها
اداودُ حسبك ان المعاليَ تحسب دارك في دارها
وان ضمائرَ هذا الوجودِ تبوح اليك باسرارها
وانك لما حللت الشآم راينك جذوةَ افكارها
وان كنت في مصر نعم النصير اذا ما اهابتْ بانصارها

فاجابه داود بك عمون :

أمن ذكر سلمى وتذكارها نثرت الدموع على دارها
وعفت القصور لأجل الطلول تطالعُ طامسَ آثارها
وقفتُ بها ليلتي ناشداً عساها تبوحُ باسرارها
وللدارُ انطقُ آياتها من الذكريات واخبارها
تعيد عليك ليالي الحمى بانجمها وباقمارها
سلامٌ عليك زمان الشباب ربيعَ الحياة بآذارها
ولولا الشباب وذكر الشباب لعاش الفتى عمره كارها
قطفنا الحياة به حلوةً وقد جاء أبان امرارها

أطوّفُ في الشرق علّي ارى بلاداً تطيبُ لاحرارها
فلم ارَ الّا اموراً تسوء وتصدعُ اكبادَ نُظّارها
فظلمٌ بتلك وذلٌ بهذي وجهلٌ مغشٍ لأبصارها

تعـقّ مراحم رعيـانها وترعى الولاءَ لجزّارِهـا
اذا شاء «قاسمُ» رفعَ الحجابِ تسميـه هاتكَ استارِها
فلا قولَ الّا لجهالهـا ولا رأي الّا لاشرارها
يدبُّ التراخي على تُربها ويجري الخمـولُ بأنهارها
منالُ الترقّي بارغامها وفرضُ الفلاحِ باجبارها
اهذا الذي اورثت اهلها بـلادُ العلوم وانوارِها

عدمتُ حياتي اذا لم اقفْ حياتي على نفعِ اقطارها
«احافظ» هذا مجال العُلى فشمّر لسبقٍ بمضمارهـا
«اشوقي، احافظ» طال السكوت وتركُ الامور لأقدارها
فصوغا القوافي مصقولـة وشقّا الجلودَ ببتّارِهـا
عساهـا تحرك أوطاننا وتنشرُ ميّت افكارها
اقول واعلم اني سأرمى بأني محرّكُ ثوارِها
واني الدخيل واني الغريب واني النصيرُ لقهّارهـا
احب بلادي عـلى رغمها وان لم ينلني سوى عارِها
ولست باولِ ذي همة تصدّى الزمانُ لانكارها

وديع عقل

(١٨٨٢ — ١٩٣٤)

ولد وديع شديد بشاره عقل في ١٥ شباط ١٨٨٢ في معلقة الدامور من قضاء الشوف، وتلقى علومه الاولى في مدرسة المزار - غزير - ثم في الحكمة حيث اكمل دروسه الفرنسية والعربية. واتقن الآداب واللغة والفصاحة والبيان على يد الاستاذ الشيخ عبدالله البستاني .

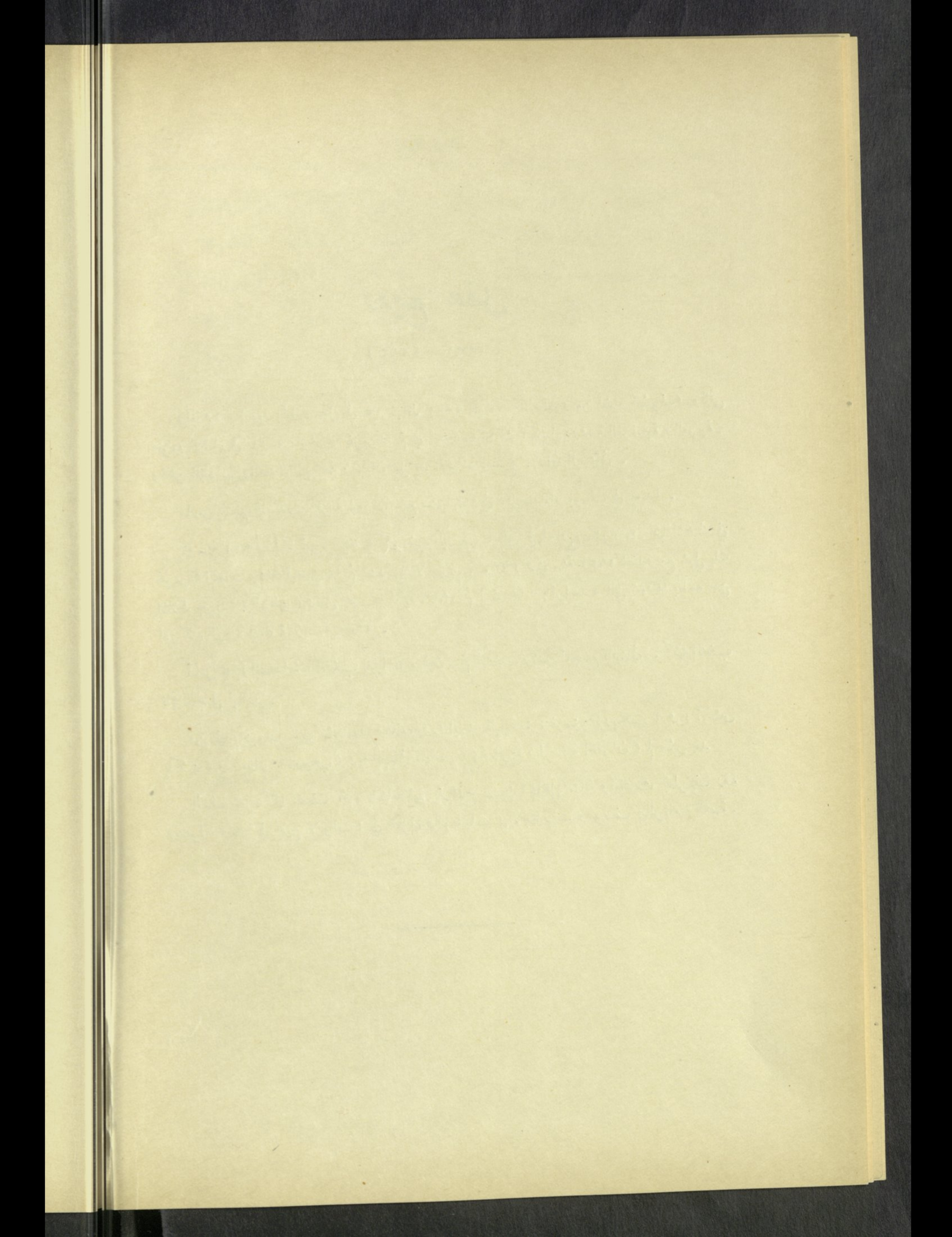
مارس التعليم في مدرسة قرنة شهوان سبع سنوات وفي مدرسة مار يوسف في بعبدا .

في سنة ١٩١١ تولى تحرير مجلة « كوكب البرية » وظلّ فيها اربع سنوات، كما اشترك في تحرير « النصير » و « البيرق »، ثم اصدر « الاحوال » ١٩٢٠. وفي سنة ١٩٢١ اصدر مع شبلي بك الملاط جريدة « الوطن » وظل يحررها لغاية ١٩٢٩ ثم استبدلها « بالراصد » التي تعهدها بقلمه حتى ادركته الوفاة في ٥ تموز سنة ١٩٣٣ .

أسس نقابة الصحافة وانتخب نقيباً لها مرتين. ثم انتخب رئيس المجمع اللبناني . كما انتخب نائب جبل لبنان .

من اثاره ديوان شعر نشر بعد وفاته، وروايات تمثيلية : (فرسنجتوريكس) و (توماس باكت) و (مغارة اللصوص) و (اللبناني المهاجر) ؛ وشرح (لرسالة الغفران) لم ينشر بعد

اتصف شعره كما اتصف نثره بالمتانة فهو يتراوح بين الجاهلي متانة والحديث الطريف رقة وسهولة . ونظم في جميع الابواب : في الغزل والوطنيات والاجتماعيات والوصف والرثاء والقصة .



يا ايها الغادي

يا ايها الغادي يمشي الى الوادي
يسعى الى ساوى في ظله الهادي
ماذا ترى فيه غير الاسى البادي
الروض عرّاه تشرينه العادي
والأيك خلّاه قمريّه الشادي
مالت عن الوادي ايام اعيـاد
لا دقّ اقداحِ لا ضرب اعوادِ
إنْ تقرب الباكي ابكاك يا عادي

رثّ ثوبنا فعرينا

رثَّ يا دهرُ، ثوبنا فعرينا ولبسنا القميص صبراً جميلا
وكتمنا آلامنا، وسكتنا ومنعنا عيوننا ان تسيلا
قد قنِعنا في ارض لبنان، بالما ء زلالًا وبالنسيم عليلا
وترانا كأننا ما حملنا اليـأس حيًّا، ولا الرجاء قتيلا
وكأن الليل الذي قد سهرنا هُ جياعاً، ما كان ليلًا طويلا
وكأن البغي الذي قد حملنا هُ زماناً، ما كان حملًا ثقيلا
قد رضينا بكل ذا منك، يا دهـرُ، فحاذر ان تبتغي المستحيلا
الفتى عندنا، يموت ظليماً وعـديماً ولا يموت ذليلا

وعاد سليماً

وعزّ الرغيف، وضاقت سبيل الـــحياة ، على امة كامله
فأنى التفتَّ رأيتَ بنيها جياعاً ، يموتون في السابله
وفي كل بابٍ، ترى سارقاً وفي كل بابٍ، ترى سائله
ألبنانُ لست ببيت الأُباة ولا وطن الامة الباسله
ظُلمتَ وبتَّ صبوراً ذليلا قُتلت وبتّ اليد القاتله
وقد غال فيك الأثيمُ البريءَ وما اغتال فيك فتى غائله
اتاك «جمال» يجر عليك الـــرزايا بأثقالهـا نازله
وعاد سليماً ، وذي وصمةٌ بعِرضك ، ما هي بالزائله

يا حبذا موتي

يا رب ان كانت حياتي دينًا عليَّ ، الى المماتِ
فاستَوفِ دَينك عاجلا اني مللت من الحياة
الظلُّ ، ظِـلُّ الأرز خيَّم فوقه ظلُّ البغاة
ما القوم في لبنان ، من احفاد اجدادي الأُباة
السمّ في الاصلاب دُسَّ وفي بطون الامهـات
لا في البنين فتى يعفُّ ولا عفافٌ في البنات
واذا شكوت الى القضاة وجدت ظُلّامي قضاتي
يا حبذا موتي ، ويطوي غـيرُ لبنان رفاتي

يا ايها الباكي على استقلاله وديع عقل

ماذا نعيتَ اليَّ من احوالهِ … يا ايها الباكي على استقلالهِ
إن الذي اجرى على لبنان من … فردوسه الاعلى ، اخصَّ جماله
اعطاه ما تَهن الدواهي دونه … وحباهُ ما لا مطمع بزواله
نِعَمٌ رواسخُ في رواسيه ، فلا … تنهار الا بانهيار جباله
فانظر اليه ، كيف شق قميصه … البلورُ ، منفجراً على سرباله
وانزل عليه ، خالعاً ثوب الضنى … «ما بين ضالِ المنحنى وضلاله»
واخلع نعالك قبل دوس ترابه … فترابُ لبنان رفات رجاله
وتلمَّسِ البركات من غاباته … المتراميات على ثرى اجياله

روحي فدى الجبل الذي لا ارتضي … ان يدفنوا عظمي بغير ظلاله
لأظلَّ يلمسني بليلُ نسيمه … وأبيتَ يؤنسني خريرُ زُلاله
وطنٌ قنعتُ به ، ولو عبث الردى … بأُسوده وقضى على اشباله
احببته ، ودياره مأنوسة … وأُحبه في وحشةٍ من آله
واذا عفَت منه الديار ، فلا ارى … مغنًى أحبَّ اليَّ من اطلاله
او خيّروني في الجنان ، لَأَنكرتْ … نفسي عليَّ رضايَ باستبداله
لا كوثر الفردوس اطيب منهلاً … من وِرده ، وأعزُّ من شلّاله
افما ترى انفاسه قدسيةً … تلوي بعمر الشيخ عن آجاله
فاذا سرَت من شرقه نفحاتها … عبقَ الشذا بجنوبه وشماله
واذا بكت اسحاره نضحت لنا … اغصانه درراً على آصاله

قسماً به، لولا اتّقاء مسيحه لأَبَيت ان اجثو لغير جلاله
فأجزتُ ما اعتقد المجوس عقيدة وعبدتُ مطلع شمسه وهلاله

اما القطين، فلا تسل عنه، سوى رَيب الزمان، يجبك عن احواله
فالعاديات تصرّفت بشؤونه ومضت ببهجة عيشهِ وبماله
من لم تمكّن من نواصيه يد التركيّ، جرّته النوى بقذاله
ثم انجلت تلك الخطوب فلم يكُن ماضيه ادعى للأسى من حاله
قد اوحشوه من بقية اهله اما الأُلى فيه، فغير عياله

من مبلغٌ باريس أنّ صديقها متربّصٌ ابداً على آماله
يزجي الرجاء مغلفاً بنسيمه حرصاً عليه من اذى عذّاله
ولقد يغالطها بمظهر نافرٍ ولقد يعاتبها عتابَ الواله
ردّي الى يده زمام اموره باريسُ، تلك حقيقة استقلاله

تكريم الشيخ عبدالله البستاني

أمعلم الفصحى، وربّ بيانها هذا مُقامك، في بني قحطانها
وفدوا وهم امراؤها وشيوخها ليبايعوك، وانت فردُ زمانها
نادَوا بعبد الله بعد زيادها يحمي مفاخرها وعزةَ شانها
نادَوا به ملك البلاغة فاستوى في المِنبر الموروث عن ذُبيانها
ومشى بريدهم الى اقطابها ببلاغهم، يُتلى على اعيانها
أدّى البلاغ لمصرها وشآمها فعراقها فحجازها فيمانها
انهى اليها ان حُجتها على عرش البلاغة قام في لبنانها

في دولةٍ عربيةٍ ، متَّت الى　الاصلاب والارحام من غسانها
نسبٌ به الارزي يستعلي على　الانساب مفتخراً على غُرَّانها
ما كان لبنانٌ على استقلاله　الا رِحمى العرباء منذ كيانها
مُتوثقٌ صلةً بها ، فلسانه　بلسانها ، وجنانه بجنانها
يحنو على ام اللغاتِ ، محاذراً　ان يستقرَّ عليه غير حنانها
هو بيتُ أنجب امةٍ عربيةٍ　نشرَت على الدنيا لواء بيانها
عربيةٌ في دينها، فالضادُ في　انجيلها ، والضاد في قرآنها
والضاد في توراتها وحديثها　والضاد في ترتيلها وأذانها
والضاد في اكواخها وقصورها　والضاد كلُّ الضاد في بستانها
في مُعجم كالسور حاط اصولها　ليردَّ كيدَ الدهر عن ديوانها
فلتعلم العربُ الكريمةُ انها　حظيَت بأمنع ضابطٍ للسانها
سلمتْ لها الفصحى فدون حصونها　تتدحرج العُجُمات في خذلانها
سلمت لها في قلب لبنان، كما　سلمت لها في القلب من نجرانها
لغةٌ يهون على بنيها ان يروا　يوم القيامة قبل يوم هوانها
الخافقان فدًى لها ، وكلاهما　هرِما عليها وهي في رَيعانها
هيهاتِ يُخلقها الزمان ، فانها　لغة الملائك في ظلال جنانها
لغة تدور على لها جبريلها　الفاظها ، وعلى لهـا رضوانها
لغة الطبيعة ، فالطبيعة امها　لم يربَ غير الضاد في احضانها
محكيَّةٌ عن طيرها وسباعها　وسحابهـا ورياحها ودجانها
منحوتة من هينمات نسيمها　وتريب ظبيتها وهزة بانها
وانين ثكلاها وبثّ عميدها　وحنين ولهاها الى ولهانها
ونواح ساجعة على اعوادها　وصداح غرّيدٍ على اغصانها
هي خاطر الادهار في اسرارها　ومنارة الاقمـار في اعلانها
هي فتنة الخلفاء في بغدادها　وربيبة الامراء في غمدانها

بدوية والتيهُ من ارباضها حضرية والشام من اوطانها
ركبت متون الكهرباء فعيسها والكهرباء اليوم من اظعانها
وترى البواخر والطوائر اصبحت مثل الضوامر من جياد رهانها
ما ضرّها دهر يثلُّ عروشها ويجرد الهامات من تيجانها
فلها من الاكباد عرش خالد لا يستقلُّ به سوى سلطانها
تلك الاريكة لن تقوَّض قبل ان تتقوّض الدنيا على اركانها
غـادِ الرياض رياض بستانيّها وتنسم النفحات من ريحانها
وتبين الفصحى على لهواتها سيالةً بعقيقهـا وجُمانها
واقرأ تحيتها عـلى الصيَّابة الـــدرّاكة السبَّاق في ميدانها
المرسل المنثور من ياقوتها العاقد المنظوم من مرجانها
المستعير الطيب للانفاس من ازهارها واللحن من كروانها
الرافع الاستار عن اسرارها الباعث الآيات من اكفانها
ضرب الشوارد من قوافيها كما راض الأوابد آخذاً بعنانها
وحمى حمى اللغة العزيزة طامعاً بالصف تلو الصف من اعوانها
بالحافظين عهودهـا ، بالناشريـــن بنودها ، بالطائفين بجانها
ناداهمُ للمهرجان ، فضحضحوا مثل السيوف تُسلُّ من اجفانها
نثروا له زهر البلاغة ناضراً ضفروا له التيجان من عقيانها
هذي عكاظُ وسوقها معقودة والشيخ راحته على ميزانها
لو لم تجـده الضاد حجّتها لما نقلت عكاظَ الى حمى مطرانها

انشودة المصطاف

وديع عقل

حنت مها غسّانْ وجداً الى لبنـــانْ
في صيفه الفتـــان تفديــه بالغزلان
والبلبل الصدّاح في روضه الوضّاحْ نادى على الارواح
فدى لبنـــان

يا ارزه الريّان نسمْ لنا ريّاً
يا آية الازمان يا ناطقاً عيّاً
يا بيرق الاجداد نفديك بالاكباد بالاهل بالاولاد
لِوا لبنـــان

اللؤلؤ الجاري في ذلك الوادي
والربرب الساري والشادن الغـــادي
والنهر والصفصاف والكرم والقُطّاف ناداك يا مصطاف
الى لبنان

يا شاكيَ الآلام من علة الصدرِ
يا حامل الاسقام يمشي الى القبرِ
لا تعنُ للياسِ في دائك الراسي وانزل على الآسي
على لـبنـان

عرّجْ على الضحضاح من مائه البَرِدِ
واستنشق الفوّاح من نفحه الوردِ
تمسي ولا سقم يبقى ولا ألم في مهبط النعم
رُبى لبنــان

امين تقي الدين

(١٨٨٤ - ١٩٤٧)

ولد امين تقي الدين سنة ١٨٨٤ في بعقلين . فورث الانفة اللبنانية من اعرق بيوتات لبنان في الدروز . ثم تثقف بالادب العريق في مدرسة الحكمة على يد استاذ صلب العود، لين الجانب، هو المرحوم عبدالله البستاني، واطلع على افضل روائع العصر باللغتين العربية والافرنسية . ثم ترامت به الاسفار الى فروق فالى مصر عهد تنبه فروق ببوادر النهضة الوطنية . فكانت له تلك الجولات الفسيحة في الوطنية الصادقة وتلك اليد البيضاء في مجلة الزهور على توجيه الناشئة جهة الذوق السليم والثقافة الحق . وعاد الى لبنان وتعاطى المحاماة في مكتب واحد مع الاستاذ النقيب جبرايل نصار . وعمل في حقل السياسة ولكنه لم يفلح لان طبعه لم يكن ليأتلف مع ما كانت تتصف به السياسة في ذلك الحين . ويوم قضى في ٣١ ايار سنة ١٩٤٧ قضى كما عاش هدوءاً وادعاً مطمئناً على بغية بعيدة المرام . اما شعره فصورة صادقة عن نفسه في تعبير نقي، خالص متين السبك رقيق الحواشي متخير الالفاظ .

انا والهم

انا والهم صاحبان كلانا صادق الود حافظ للعهودِ
ما افترقنا حيناً من الدهر حتى جمع الدهر بيننا من جديد
نسهرُ الليلَ صامتين لئلا يكشف الليل سرّنا لحسود

قال لي صاحبي، وقد لمح الفجر مطلّا يرنو لنا من بعيد
وارني في النهار، عن اعين الناس، فاني خدن الليالي السود
ويكَ يا همُّ قد أبحتُكَ نفسي فاثورِ منها الى مراسٍ شديد
ليس من عدة الفتى للمعالي خلق للخطوب غير جليد
حسبي الحلمُ لو شكوت اليه شقوة الحظ والمنى والجهود

الارز وشهداؤه

من قصيدة في فخر الدين وفيليب وفريد الخازن

مشى مع الدهر واجياله يكلأه الله ويرعـاهُ
وتقرأ الدنيا اساطيرها مدونـات في حناياه
مسلسلات قصةً قصـةً كأنما الاوراق افواه
فيأ فخر الدين يوم انتهى منه اليه العز والجاه
أعظم بفخر الدين من سيّد صاحَبَه المجـد وآخاه

اوحى اليـه النصر آياته فصدّق الوحي فأملاه
املاه بالسيف على جنده فكانت الرسل سراياه
ننافس الشرق بتاريخـه ونجبه الغرب بذكراه
حلفت بالارز وتاريخه اقصاه للمجد لاقصاه
وبالجبال الشُم من حوله تلامس النجم بعلياه
وبالدم المسفوك من اجله اطيبه اهـلًا وازكاه
ما دوّن المجـد لابنائه اكرم مما دون ابناه[1]
قيل فدى لبنان قالا : أجل بالأنفس الاغـلى فديناه
ماتا كما شاء الوفا منهما والخالدانِ : المجد والله

نشوة الفن

من قصيدة في رثاء وديع عقل

هل عند طير الحمى اهلًا وجيرانا ان الهزار اخـاهم طلّق البانا
باتت اغاريده في الايك رجع صدى وبثّهـا الايك أنـاتٍ واشجانا
قم استمع في حواشي الروض هينمةً تمتـد آنـاً ويخفى شجوهـا آنا
بقيّـة من اناشيـدٍ مرجّعـة أمست اذا انقطـع الانشاد ارنانا
كأن للفن، مثل الخمر، نشوته يمضي الغناء ويبقى السمع نشوانا

---

(١) اشارة الى الشهيدين فيليب وفريد الخازن

الى الشيخ عبدالله البستاني

من قصيدة في يوبيله

هززت النفس ألتمس التصابي　　فهزتني وقد لمست صباها
رأتْ من كوة الايام نوراً　　اعاد لها خيالًا من بهاها
وشاقتها عهود كنت فيها　　تهذّبها وتكبر مشتهاها
ويوم تبُثُّ روحك في دماها　　ويوم تصون إنْ عبثتْ حياها
كريماً غير مانعها جميلًا　　كأنك نعمة بلغتْ مداها
وترضى ان لمحت الفضل فيها　　كأن رضاك شيء من رضاها
حليماً لو غضبت وربُّ نفسٍ　　على غضباتها يجلى صفاها
بنفسي نفسك البادي سناها　　اذا ضحكاتها علت الشفاها
فشفَّتْ عن نقاوتها ونمَّتْ　　عن الخلق الكريم متي ثناها
فما ملك ارق وقد تراضى　　ولا طفل احبُّ وقد تلاهى

سليم سركيس

من مرثاة القيت في حفلة تأبينية

ايها الاديب طوى　　سفرَ حظه العدمُ
في كتابه غرر　　كلها له ذمم
استهله　　ادب　　بالكمال　　مئتسِم

وانتهى الى خلق يتنهي به الشممُ
الجديد سنّته والقديم محترم
لا الاثير تاه به لبّه ، ولا الخيم
بين ذا وذاك له كان مذهب أمم
استقلٌ مبتدعاً آيه التي علموا
فهي ان اردت ندى وهي ان تُردْ حمم
للملوك ما عدلوا عاتبٌ اذا ظلموا
والشباب لذّته بالخطوب يصطدم
يوم مصر ممرعة والزمان مبتسم
طائفٌ مجالسها لا يملّه السأم
بلبل يطيب له كل ساعة نغم
الجريء مندفعاً لا تني به الهمم
للبريء منتصف للضعيف منتقم
تستخفه مقة يستثيره ألم
يا سليمُ ، كنت فتى في حماه يعتصم
تستلذّ مكرمة في النفوس ترتسم
ليت لي بها مِنَناً منطق لها وفم
حدث الخزام إذن عن نداك والنسم
ما احبّها شيماً هكذا هي الشيم

وما راعنا البين

متى انت يا وطني مُسعدي لقد أفلتتْ همتي من يدي
هجرتك لا الشوق يدني اليك ولا الصبر ان أدعُه يُنجد
وحاربت فيك الليالي ومن يجاهد لياليَه يجهد
فاما الشباب فملَّ المنى واما الزمان فلم يُسعد

بلادك فأحم حمى مجدها فان انت لم تحمِ لم تُحمد
ولا تستبح عرضها فالوفاء دليلٌ على كرَم المحتد
عدمتُ المروءة يوم يراد فدى لبلادي ولا افتدي
اذا المرء مات فدى موطنٍ فقد مات ميتة مستشهد

واجدب عالي الربى مقفرٍ كثير الفدافد والانجُد
اذا الطير عاجت به تستريح ترامت عياءً على الجلمد
عبوس المعالم لا ينجلي بصبح دجى حظه الاسود
خلا من بنيه فليس بنوه سوى رُحلٍ ابداً شُرّد
يجدُّ بنا البين كرهاً على جوارٍ بذي لجج مزبد
جوارٍ بها مثل ما في الضلوع فلا بدع ان هي لم تبرد
اذا شارفت ارض لبنان هاجت بنا لوعة الواله المبعد
«وما راعنا البين» لكن بكينا على جبلٍ موحشٍ اجرد
لقد اخلق الدهر من جدّتيه فأمسى بثوب البلى يرتدي
أجل نظراً فيه تبصر سماء تطل على أربعٍ همّد

منازل هاجرها اهلها الى كل منتجعٍ ارغدِ
فليس سوى الطفل في مهده وليس سوى العاجز المقعد
مجالس للحكم ما ان تضمُّ سوى ذي مطامع مسترفد
موارد تنضب هدراً فما تبرِّدُ من غلةِ الوُرَّد
بنا منك يا وطني ما بنا لواعج في الصدر لم تخمد
شكوت النوى وشكونا الثواء واي تردْه أذى يزدد
اقلُّ رزايا بنيك مقامٌ وصبر على عيشك الانكد
ورب فتى عقه موطنٌ فولّى الى موطن ابعد
ومن شاكه مضجع لم ينمْ ومن طلب الرزق لم يقعد

سلوا وطني اي فضلٍ له عليَّ سوى انه مولدي
بلى كان كفراً رحيليَ عنه لو اتَّهَمَتْ همتي مقصدي
ولولا وفائي لأهلِ كرامٍ ولولا ثرى والدِ امجد
لهاجرته غير ذي اوبةٍ فما نتلاقى على موعد

احب بلادي وان لم انلْ سوى الضيم منها ولم اعهد
بلادك كل رجائك فانهض بها ما استطعت الى السؤدد

فوزي المعلوف

(١٨٩٩ — ١٩٣٠)

ولد فوزي المعلوف بتاريخ ٢١ ايار ١٨٩٩ في زحله، من اسكندر عيسى المعلوف وعفيفة ابراهيم المعلوف. وتلقى دروسه الاولية في الكلية الشرقية. وانتقل سنة ١٩١٣ الى مدرسة الاخوة المسيحيين في بيروت، فاتقن الافرنسية فيها كما كان قد اتقن العربية على ابيه. كانت اولى اتصالاته الادبية، باديب كبير، عرفته بيروت خطيباً منبرياً وشاعراً رقيقاً مطبوعاً، شف شعره عن الالم واللوعة واليأس، هو المرحوم فيلكس فارس. تعرف اليه فوزي في المريجات. ولعل مردّ هذا الشجو الذي نلمحه في قصائده، وهذا الشوق الى الراحة الكبرى، اثرٌ من تلك الصداقة الاولى. ثم عين فوزي مدير مدرسة المعلمين في دمشق، بعد الحرب الاولى، فامين سر رضى سعيد، عميد مدرسة الطب فيها. ولكنه لم يلبث ان غادر البلاد الى البرازيل بتاريخ ١٧ ايلول سنة ١٩٢١، حيث انصرف الى الصناعة والتجارة. ولكن عمله هذا لم يصرفه عن الادب. بل لعل خير ما نظمه هو هذه الروائع التي ظهرت له في البرازيل وهي: «سقوط غرناطة» و«تأوهات الحب» و«شعلة العذاب» و«اغاني الاندلس» و«من قلب السماء» واخيراً «على بساط الريح» وفي مقدمتها يقول المستشرق فرنسيسكو فيلا سباسا:

«في وسط ما يصم الاذان من جعجعة هذا الهذيان الادبي الجديد، وما حوى من مساخر كمساخر المرافع، وتوافه كتوافه الصور المشبحة، يتصاعد من الشرق صوت رخيم هادئ. يسكت الى لحظة تلك الحناجر الثرثارة المعربدة، حاملاً الينا بالحانه الشعرية بلاغاً من عالم الشمس نفضت عليه الشمس شعاعها».

ولكن الاجل لم يمهل هذا الشاعر، فقضى في ٧ ك ٢ سنة ١٩٣٠ في الريو دي جانيرو عاصمة البرازيل، بينا كان عاكفاً على طبع «على بساط الريح».

ملك في الهواء

في عباب الفضاء فوق غيومه
فوق نسره
ونجمته
حيث بثّ الهوى بثغر نسيمه
كل عطره
ورقته

موطن الشاعر المحلِّق – منذ البدء لكن بروحه لا بجسمهْ
انزلته فيه عروس قوافيه بعيداً عن الوجود وظلمه
ملك قبَّة السماء له قصر وقلب الأثير مسرح حكمه
ضارب في الفضاء موكبه النور وأتباعه عرائس حلمه
ملكه ركنه الهواء، وما اقواه ركناً قام الخلود بدَعمه
عرشه سدّة السحاب عليها نفض الليل كل رهبة رسمه
تاجهُ هالةٌ يُنضِّد في فضتها الافق بدرَه قرب نجمه
والدجى طيلسانه فاح كافور دراريهِ فوق عنبر فحمه
والثريا في كفه صولجان درّهُ لمّه الصباح بكمه
ملك طائر بغير جناحين بأمر الخيال يقضي وباسمه
يا جناح الخيال اقوى جناح انت بلوى ظهر الرياح لصدمه
ليت شعري ما الشاعر ابنٌ لهذي الارض الا بلحمه وبعظمه

فاذا اختار هجرها برضاه افما جاءها مقوداً برغمه
هو منها وليس منها، فما زال غريباً ما بين ابناء أمه
(على بساط الريح)

اوراق متناثرة

نجمة الليل، رحمةً فضلوعي
من شجوني
تتمزَّق
كفكفي السيل، انه في دموعي
من عيوني
يتدفَّق

واذكريني بين الكواكب، وادعي لي، عسى يهتدي اليَّ السلام
عشت بين المنى، يراود نفسي خُلَّبٌ من طيوفها وعقام
أقتفيها وفي يديَّ فؤادي ثم ألوي وفي يديَّ حطام
أيَّ حلم سبكتهُ ذهبياً لم تُذبهُ بنارها الايام
ورجاء حبكته، من خيوط النور، لم ينسدل عليه ظلام
اي عودٍ حملته للتلهي لم تقطِّع اوتاره الآلام
ونشيدٍ وقّعته للتأسي لم يعكِّره بالأنين الغرام
اي كأسٍ قرّبته من شفاهي لم تَحُل حنظلاً عليه المدام
وفؤادٍ ذوَّبتُ فيه فؤادي لم يضِع عنده لعهدي ذمام
اي طيف عانقته في منامي لم يكلله دمع عيني السِّجام

وهنــاء زرعته في ضلوعي . لم يكن منه للذبول طعام
ليت شعري ، والليل يعقبه الفجر ، متى يعقب البكاءَ ابتسام
ضاع عمري ، سعياً وراءَ رسومٍ خططتها في الشاطئ الأقدام
عشت ابني على الرمال ، وهــل يثبت ركنٌ ، له الرمال دعام

(على بساط الريح)

رقيٌّ كاذب

قال ما قاله، وفر لفوره
يتوقى
تقربي
فاذا آخر يقول بدوره :
قلت حقاً
بمذهبي

انا ، عن وصف شره عاجز والله مهما أفضتُ في تبيانهْ
ما دعوه الانسان من انسه لكن دعوه الانسان من نسيانه
نسيَ الخير حين أوغل في الشرّ فداس الضمير في عصيانــه
ملأت قلبه الافاعي، فلا يسمع غير الفحيح في خفقانه
حسد ناهِشٌ بقية ما في نفسه من إبائه وحنانه
طمع يقذف اللهيب حواليه فيعمي عيونه بدُخانه
وانانية تُحلُّ له القتل لتحقيق غايةٍ في كيانه
أُعطيَ النطق والحجى ميزةً تفرقه في الوجود عن حيوانه

فاذا بالاذى وليد حجاه واذا بالشرور بنت لسانهْ
عاث في ارضه فحالت جحيمًا فأتى الخلد عائثاً في جنانه
زجّ بالعلم في الفضاء طيوراً من جمادٍ، يديرها ببنانه
ما بناها الا لهدم المباني ولسفك الدماء في طيرانه
ليته لم يكن ذكيًا، فكل الويل في الكون من نُهى انسانه
ليت عمرانه تأخّر اجيالًا فكل الخراب في عمرانه

(على بساط الريح)

كفارة الشاعر

وتجلت روح على القرب مني
رمقتني
بلا غضب
خلتها أقبلت تدافع عني
صحّ ظني
ولا عجب

هي روحي جاءت تخلصني من غضب العالم الفخور بشمسهْ
طوقتني بكل عطف وصاحت: أخواتي رفقاً به وببؤسه
هو، بالرغم عنه من عالم الارض وان كان تربًا بشكل ابناء جنسه
سكن الارض مرغماً، وهو لو خُيّر ما اختار غير ظلمة رمسه
ان بين السرير والنعش خطواتٍ دعوها الوجود، وهي بعكسه
عمره ليس غير قطرة حبر ومضت من يراعه فوق طرسه

يتلاشى كالشمع – كي يعطي النور – على هيكل الخلود وقدسهْ
غدهُ مثل يومه، تلعب الاقدار فيه، ويومه مثل امسه
غسلت عينه، بما سكبته من ندى الدمع، كل ادران نفسه
والتظى قلبه فطهر بالآلام ما دنسته شهوة حسه
جاء من ارضه يفتش عني يائساً، فاخشعوا احتراماً ليأسه
ودعوه معي، ففي قبلاتي شهد عطف ينسيه علقم كأسه
(على ساط الريح)

يوم مولدي

ايه يا يوم مولدي هجت فيَّا
خير عبره
وشرَّ ذكرى
لجنينٍ رأى الوجود فحيَّا
فيك فجره
لا كان فجرا

فوق حضن الربيع، في مثل هذا اليوم، بعد العشرين من اياَّرهْ
خلعَت وردة على الارض عنها كمَّها، والدجى صريع احتضاره
واذا بالدموع في بُردتيها يمسح الصبح ماءها بإزاره
لم تكن وردة، ولكن وليداً نسي الفجر نجمةً في عذاره
حضنته الحياة، تحت ستار الليل طفلاً، لم يُكسَ غير ستاره
دغدغ الطهرُ مقلتيه، فكانت ساذجات الالحاظ، من آثاره

وكست قبلة الحياء محياه فأبقت نضارةً في نضارهْ
ورمى الحب نبلة في حناياه فكانت للشعر بدء شراره
ذاك عهد الحياة بي : قادمٌ للمهد ، لم يدرِ ليله من نهاره
ذرفت عينه ، لدى رؤية النو ر ، دموعاً جرت بغير اختياره
نطقت عنه ، وهو عيٌّ ، فكانت اول المفصحات عن افكاره
هكذا الزهر يسكب الدمع عند الفجر ، مستقبلاً سنى انواره

(شعلة العذاب)

في هيكل الذكرى

معرض للرسوم ، فيه غموض
ووضوح ، وفيه حسن وقبحُ
إنما تلمح الصفاء عليه
لمحة ، والصفاء في العيش لمح
وتجسُّ العذاب بالنار محفوراً
فحاذر ! ما زال للجمر لفح
طويت بسمةٌ لينشر دمع
وخبتْ بهجةٌ ليلمع جرح

يا فؤادي وانت مني كاسي
ليت حكمي يوماً عليك يصحُّ

انت مهد المنى ، وهذي بقاياها
أكبّتْ عليك ، تغفو وتصحو
خلقةُ الحب انت ، كل خفوق
فيك حبّ ، وكل بغضك صفح

(شعلة العذاب)

لغز الوجود

برعمَ الزهر ما وجدت لتبقى بل ليمضي – بك الخريف
هذه حالنا ، خُلقنا لنشقى ولنقضي – بنا الحتوف

كيف جئنا الدنيا ؟ ومن اين جئنا
والى اي عالم سوف نقضي
هو كنه الحياة ، ما زال سرًّا
كل حكمٍ فيه يؤول لنقضٍ
كيف اجلو غدي ؟ وأدرك امسي
وانا حرت كيف يومي سيمضي
قد حيينا قبل الولادة لكن
بجدودٍ قضوا ، كما سوف نقضي
وسنحيا بعد الردى ببنينا
في كيان نعطيه بعضاً لبعض

(شعلة العذاب)

على شواطئ الريو

خلِّ البداوة رمحها وحسامها — والجاهلية نُوقها وخيامَها
مضت العصور الخاليات ، فما لنا — نحيا بها ، متلمسين ظلامها
ايكون عصر النور طوع بياننا — ونلمّ من تلك العصور حطامها
ماذا تفيد الشعر وقفة شاعرٍ — يبكي الطلول ، قعودها وقيامها
يرثي ولا طلل هناك ، وانما — هي عادة ، ضمن الخمول دوامها
رَثّت قصائده ، فمطلعها « قفا — نبكي » اذا فات البكاء ختامها
شرط البلاغة وضع كل مقالة — بمقامها ، إمّا طلبتَ زمامها
اتكون في الفردوس بين ازاهر — نفح القدير اقاحها وخزامها
وتجدُّ في الصحراء تطلب زهرةً — من تربةٍ لفح الهجير رُغامها
فاترك تقاليد القديم مهدّماً — اقداسها ، ومحطّماً اصنامها
بلد البدائع يحتويك ، فحيِّهِ — ببدائعٍ عزّت على من رامها
هـذا مقام الوحي في جنباته — جعلتْ ملائكة الخيال مقامها
فاستوحِ سيناء الجمال قصيدة — تهدي الجمال صلاتها وسلامها
هي من عيون الشعر نزّل وحيها — شعر العيون وانت صغتَ نظامها
حلمتْ بجنات النعيم نفوسنا — حتى رأتـه فحققت احلامها
تمشي الفصول عليه مشيتها وما — برح الربيع مرافقاً ايامها
يغريك فيه البحر وهو ململم — امواجه ، حتى تخاف زحامها
ما ان ترى في جزره احجامها — حتى ترى في مـدّه اقدامها
ويروعك الجبل الاشمُّ معانقاً — سحب السماء ، مطاولاً اجرامها

اما شواطئه ، فكم لي وقفة برحابها ، مستنزلا الهامها
نامت على حضن المحيط فأيقظت عين المحيط ، فلن تذوق منامها
وشدا لها بهديره تهويمةً ابداً يوقّع موجه انغامها
فعلى الاصيل هناك صفرة غيرةٍ فضحت عواطف شمسه وغرامها
فتحسّ في بَرد الاثير دموعها وتحسّ في بُرد النسيم سقامها
حتى اذا هبط الظلام وبخرت انفاسه فوق الرمال ضرامها
شاهدْت اجمل منظر في وصفه يُعيي اليراعة ان تنال مرامها
أُفق من الانوار شعّ على الثرى ودّت سماؤك لو كسته غمامها
فتظنّ نفسك ضمن عقد لآلئٍ خفيت مصابيح النجوم امامها
وتخال فوق البحر من اشباحها غيداً يدغدغ ماؤه اجسامها
لم تدرِ هل جعلت به مرآتها ام انها جعلت به حمّامها

باقة الزهر

وحين تلقي في الدجى رأسها فوق الفراش الخافق الحالمِ
فدغدغي بالعطر احساسها ولينتشر في جسمها الناعم
وقبّلي بالسر انفاسها وحدقي في حسنها الحائم

عسى ترى فيك فتاة الدلال امثولة مملوءة بالعبر
تنبئها ان شباب الجمال يذبل يوماً كذبول الزهر

مقتل السردار

وضجّ من السخط وادي الملوك وزمجر فرعون من لحده
وكاد الصعيد باهرامه يثور على الظلم من وجده
ويمشي ابو الهول، في موكب فراعنة المجد من حشده
جرى النيل يُزبد في سلكه وسار المقطَّم في عقده
ليحتجّ للارض او للسماء عليكم ، وهذا صدى جهده
ايا أمة النيل ، صبراً ، وخلّي عدوك ، يسرف في كيده
فلم ارَ كالظلم ، يبعث عزم الضعيف ، ويقدح في زنده

الياس ابو شبكه

(١٩٠٣ – ١٩٤٧)

ولد الياس ابو شبكه، في الولايات المتحدة سنة ١٩٠٣ من لبناني مهاجر. وعاد به ابواه وهو بعد طفل الى لبنان فنشأ في ذوق ميكايل، لم يفارقها الا الى بعض انحاء من لبنان حتى وافته المنية.

تلقى دروسه في مدرسة عينطوره للاباء العازاريين؛ ولكنه لم يتمها. وخرج الى المعترك يغالب الحياة. فاشترك في تحرير عدة صحف ومجلات في بيروت، كالبيان، والمعرض، والجمهور، والمكشوف، وصوت الاحرار؛ وراسل الصحف والمجلات المصرية، كالمساء والمقتطف. ولقد ترجم كثيراً لمشاهير ادباء فرنسا الكلاسيكيين والرومنطيقيين، والف كثيراً. وأهم مؤلفاته الشعرية: افاعي الفردوس ١٩٣٨؛ الالحان ١٩٤١؛ نداء القلب ١٩٤٤؛ الى الابد ١٩٤٥؛ غلواء ١٩٤٥. وبلغ مجموع مؤلفاته نثراً ونظماً بين موضوع ومترجم اثنين وثلاثين مؤلفاً.

كان الشاعر ذا نفس متقدة وشعور حاد، فعبر عن آلام لا حد لها. كان رومنطيقياً احب كثيراً، وشقي كثيراً، وارتكب الاثم، على قوله كثيراً، واستغفر ربه كثيراً، ثم مات كما يموت الرومنطيقيون في شرخ الشباب بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧. وقد اغنى الادب العربي وجلّى على شعرائه في نواحٍ كثيرة.

شمشون

مَلقيه بحسنك المأجورِ وادفعيه للانتقام الكبيرِ
اسكرت خدعة الجمال هرقلًا قبل شمشون بالهوى الشرير
والبصير البصير يُخدع بالحسن وينقاد كالضرير الضرير
ملقيه فالليل سكران واهٍ يتاوى في خدره المسحور
ونسور الكهوف اوهنها الحب فهانت لديه كالشحرور
وعنا الليث للبوءة كالظبي فما فيه شهوة للزئير

شبق الليث ليلةً فتنزّى ثائراً في عرينه المهجور
تقطر الجِمَّة المسعَّرة الشهّاء منه ، كأنه في هجير
يضرب الارض بالبراثن غضبان فيصدي القنوطُ في الديجور
ووميض اللظى يغلّف عينيه فعيناه فوهتا تنور
ونزا من عرينه تتشظى حممٌ من لظاه في الزمهرير
واللهاث المحموم من رئتيه يشعل الغاب في الدجى المقرور
فسرى الذعر في الذئاب ففرّت وترامى الى عشاش النسور

واذا لبوة مخدَّرة الحسن تردَّت من كهفها المخدور
تنضح اللذة الشهية منها : خمرةٌ من جمالها المأثور
فتلاشى اللهيب ، في سيد الغاب ، امير المغاور المنصور

والعظيم العظيم تضعفه انثى فينقاد كالحقير الحقير

ملقيه ففي اشعة عينيك صباح الهوى وليل القبور
ملقيه ففي ملاغمك الحُمر مساحيق معدن مصهور
يسرب السم من شفافتها الحرى الى ملمس الردى في الثغور

* * *

واتى الصبح ضاحك الوجه، يرغي زبد النور، في ضحاه الغرير
اين شمشون، يا صحاري يهوذا اين حامي ضعيفك المستجير
اين قاضيك، دافع الضيم، طاغي المستبدِّين، صائن الدستور
اعورت شهوة من الحب عينيه وكم اعور الهوى من بصير
ان قاضي المستعبَدين لعبد وقضاةٌ عورٌ قضاةُ العور

حفلت قاعة العقاب بجمعٍ من سراة المسوّدين، غفير
هم رموز الشقاق والفتن الحمراء والغدر والزنى والغرور
اقبلوا يشهدون مصرع شمشون على لذة الطلى والزمور
بؤرة تعبق القذارةُ منها سُتِّرت بالشفوف والبرفير
ايدين الخاطي جناةٌ صعاليكُ ويقضي الفجورُ ذنب الفجور
وسرت خمرة الوليمة في الحفل لتقديس ساعة التكفير
وكأن النسيم، شوّق للخمرة فانسل من شقوق الخدور
ولنقر الدفوف صوت غريب يتحدى صوت العقاب الاخير
واذا قينة تخالجها السكر على مشهد من الجمهور

وصغا الجمع للاسير يناديه بشتى مطاعن التحقير
هيه شمشون، ايها الفاجر الزنديق، يا عبد يهوهَ المقهور
احكيم من العتاة، تذرّي شعره قينة من الماخور

فتلوى شمشون في القيد، حتى حل فيه روح الاله القدير
فنزا – نزوة الوميض – من الغل ودوّى كنافخ في صور
بددي، يا زوابع النار، اعداء الهي، ويا جهنم ثوري
وتنفس، يا موقد الثأر في صدري وأغرقْ نسل الريا في سعيري
وامصصي، يا دليلة الخبث، من قلبي، فكم مرة مصصتِ قشوري
وارقصي، انما البراكين تغلي تحت رجليك، كالجحيم النذير
وتغني بصرعي، فكثيراً ما سمعتُ الفحيح في المزمور
اصبح الليث في يديك اسيراً فاطرحيه سخرية للحمير
واجعلي الغل رمز كل صريح واليواقيت رمز كل غدور
ان اكن سقت في غرامك شرّاً فالبرايا مطية للشرور
غير اني اجني من الجيف الجرداء مهما قذرت – شهد قفير
هيكل الاثم، لم أبح لك ذلي شبح الرق، لم اسلمك نيري
فاسقطي، يا دعائم الكذب الجاني وكوني اسطورة للدهور
محق الله فيَّ شر ظلامي فلتضئْ في الحياة حكمة نوري
ان تكن جزّت الخيانة شَعري في ضلالي، فقوّني في شعوري

(افاعي الفردوس)

الحان الشتاء

امطري واعصفي وارقصي واعزفي واخلقي الجمال
وانسجي الخيال
القمح في اعدالنا والزيت في قِلالنا والتبن في السلال
وكلها حلال من جبالنا

عادت المزن الى الارض وباح بالاعاصير وبالثلج الجبل
في الثرى جهد وفي الجو كفاح وعلى الدنيا اماني وأمل
فالشجر نشوان ما نفضت عنه الصبا الا عسل
والمطر من السما على الارض قبل

امطري عطري بالدم الاخضر برعم الزهر
واملإي الثمر
خمورنا في الخابيه جنى كروم الرابيه وعندنا الكبر
والحب والخفر والعافيه

فجر البرق من الليل جراح سقت النبع زلالًا فجرى
للربيع الطفل عطر في الرياح فارقبي فيها الجنين الاخضرا
واصطلي في النار دفء وهنا
والله يرعى طفلنا
انت لي والحب والدنيا لنا

خمورنا في الخابيه جنى كروم الرابيه وعندنا الكبر
والقمح في اعدالنا والزيت في قلالنا والتبن في السلال
وكلها حلال من جبالنا
(الالحان)

الحان القرية

ارجع لنا ما كان يا دهر في لبنان
كانت لنا احلامنا والمنى
وكان صفو الزمان
كان الضمير الهني من كنزنا المزمن
وراحة الوجدان وكان . . . كان الامان
والعيش حلو الجنى
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان

ارجع الى الاحداق اطيافها المبعده
ولليالي الوجاق والموقـــده
ارجع الينا الصاج والجرن والمهباج
وخصبنا في الربى ونورنا في السراج
واسترجع الكهربا
وكاذبات الغنى
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان

ذاك النبيذ العتيق في الخابيه
وذلك الابريق يهشّ في الزاويه
والنرجس المستفيق في الآنيه
والريح لصّ مرَق على رؤوس الحبَق
كأنه ما سرق
كأنه ما جنى
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان

ارجع الى الوادي فلاحه الغادي
وطيره الشادي
والرفش والمعولا والموسم المقبلا
الى القلوب البأسْ الى العيون الجمال
وعزةً للنفس وراحةً للبال
ارجع لنا وجهنا
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان

(الالحان)

الناسكة

حبيبي ، على هذه الرابيَه
احسُّ خيالك يرقى بيَهْ
فأُغلق – إلا على ما تحبُّ
روُحك – قلبي واهدابيَه

اتيت احبك في ما تحب
ويضفي على وحيك العافيه
فما دفق الشعرَ من اصغريك
تجمع في هـذه الناحيه

اراه على المنحنى والخليج
وفي هـذه الغابة الجاريه
وفي ما يقوت عروق الدوالي
وما يضمر الكرم للخابيه

اراه على امل الزارعين
في موسم الحقل والماشيه
وفي كبَرِ الدلب والسنديان
يحنو على دعـة الساقيه

اتيت احبك في ما تحب
واوصد دون الورى بابيه
فما عالمي غير مغنى الجمال
اهواك فيـه وتهوانيه

بروحك مغمورة يقظتي
ونشوى بسحرك احلاميه
وحلمي بحبك لا ينتهي
وهل تنتهي الغفلة الواعيه

مصادر وحيك معقودة
بقلبي رؤاهـا واجفانيه
ففي كل مطوى من الطير راوٍ
وفي كل منعطف راويـه

من الارض أنشق أعراف شعرك
ريّانةً كالندى صافيـه
أحسّ لها في صميمي غليلاً
يخبُّ على وهـج اعراقيه

واسمع صوتاً كهمسٍ عميق
فاصغي لتسمعَ اعماقيه
وابصر ما لا تراه العيون
فأطويـه كالله في ذاتيه

حبيبي على هـذه الرابيه
اقرّب للحبّ ايمانيـه
اذا هجر الحب دنيا القلوب
فمـا تنفع الحطم الباقيه

(نداء القلب)

يد كريمة

يا حبُّ كلي شباب كلي ندى وملاب
على صعيدي جنان وفي سمائي رباب
لولاك جفَّت عروقي وساد روحي الضباب
ولم يكن لي شعرٌ ولم تكن آداب
ملأت عينيَّ نورًا فكان هذا الكتاب
روحي عليه صريح لا خدعة لا خضاب
عصرت قلبي ففيه للظامئين شراب
فأنت اكرم كفٍّ اعطى عليها العذاب

(نداء القلب)

الثالوث البكر

الحب والخمرُ يا ليلَ، والشعرُ
ثالوثنا البكرُ

كان الهوى قبلنا من بعض ما يقتنى
وخدعة في اللسان

والشعر، يا ليل، كان شيطانه بهلوان
حتى تغنى بنا

جئنا فجاء الخيال معطراً بالجبال
ملوناً بالسنى

هذي الربى من تكون يا ليل الا عيون
ترنو هياماً لنا

جئنا فصار الزمان بجبننا مهرجان
والارض صارت جنى

لا تنظري، فالسماء محجوبة بالدماء
والجهل يرعى الورى

اما بنينا بناء يا ليل، فوق الفناء
فيه السما والثرى

والحب والخمر يا ليل، والشعر
ثالوثنا البكرُ

(نداء القلب)

الّا هوانا

كل حيٍّ يموتُ إلا هوانا أَعلى الارض مَنْ يحب سوانا
نحن والناس نملأُ الارض حبّاً وهُمُ يملأونها نيرانا
لم يكن لي سوى حنوِّكَ، حتى قبل أن يفرض الهوى لقيانا
كنتَ في وحدتي خيالًا على قلبي فكم مرّةٍ بدا ملآنا
وعلى مقلتيَّ حلماً لذيذاً حاملًا من سمائهِ ألحانا
كم سمعتُ الفضاء يخفق حولي أترى كان يلتقي طيفانا

كنتَ بي، قبل أن أَراك بعيني فـدمي كان يرتوي أحيانا

يا حبيبي، إليك حلماً، يودُّ الطرفُ لو يرتمي به يقظـانا

كنتُ في هالةٍ من النور، لا يحصرُ ذهنٌ مكانها والزَّمانا

وترددَتْ من الجنـوب رياحٌ زحف العطرُ خلفهـا ولهانا

واذا النور يستحيلُ أديمًا ثم يحيا فيستحيـلُ جِنانا

واذا بي أَراك تقطف كالفـاتح من كل مغرسٍ ريعانا

ينبض الغصن في يديـك رجاءً ويندّي عليها إيمـانا

قلتَ يا ليلَ ما علينا، إذا الناسُ تجنّوا، فالحب قد اعطانا

وفرشتَ الجنى الشهيَّ طعـاماً أمر الحبُّ أن يكونَ فكانا

قلت لي نعمةُ الطبيعة يا ليـلى أَعدَّت لعرسنا مهرجـانا

بورك الحبُّ حين بارك إكليلًا علينا، أحلّـه قلبانا

واذا بالنبات يستنشق الحبَّ فتجري جموعه مجرانا

فتبوح الصبا، ويرتعش الورد ويصحو من الندى سكرانا

وعبير النِسرين ينهـلُّ حباً في العبـير المنشور من نجوانا

يا حبيبي، كأنَّ طرفيَ لما ذهب الحلم، لم يكن وسنانا

أوَلَسْنا في يقظةٍ، تخطفُ الغبطة فيهـا القلوب والاجفانا

أَوَلَمْ نبنِ بالمحبة والرَّأفةِ دنيا أعزَّ من دنيانا

تهدم العالم الذي يهدم الوجدان فينا، وترفع الوجدانا

هذه النبعة الحنون أَلَم تعكس علينا الظلال والالوانا

تفعمِ النفس من نقاها ينابيع وتمـلأ اعماقها خلجانا

أسعد الناس نحن فليصفح الحب بنا وليكن لهم غفرانا

(الى الابد)

حلم عجيب

نحن عدنٌ وهم مكان مريبُ شقيَت فيهِ اعين وقلوبُ
سكب الحبُّ رحمة الله فينا فالسنى مائج بنا والطيوب
كل أعراقنا السعيدة للايمان مجرى وللرجاء دروب
تتناهى بنا الى الغبطة الكبرى فنفنى بسحرها ونذوب
انتِ، يا لَيلَ، انت اجمل رؤيا صبَّها في العيون حلم عجيب
ما رأى الناس منذ حواءَ حسناً فيه هذا الندى وهذا اللهيب
أيُّ لون! كانه الصبح فيه من بقايا الفجر العميق شحوب
اغرقَته عيناكِ في مبهمات هي من روحكِ الخيال الغريب
حين تطفو عليه اخيلة الاهداب يخبو بياضُهُ المشبوب
أعَلى وجنتيكِ، يا لَيلَ، خمر ألهبَت فيهما الندى ام حليب
ام على وجنتيكِ ظلُّ الخطايا من بغيٍّ اتى اليك يتوب
حسنكِ الحسن... وهو للخَلق احسان جميل، وما تبقَّى ذنوب
قلتِ قُل بعدُ، وابتسمْتِ، فشعَّت في كياني مجاهل وشعوب
وجرَت في دمي ينابيعُ لم يَحيَ على مثلها صعيد خصيب
ومن الطير جوقة في ضميري غردت فهو بي وجود طروب
كل ما بي زها وغنَّى، ولكن في لساني تردّد العندليب
قلتِ في صمتكَ الجميل حديث ما روى مثله فمٌ موهوب
فبروحي سمعتُ ما لم تقُله انه في جوارحي مكتوب
ثم قبَّلتِ في يديك غصيناً فسرى فيه قلبكِ المسكوب
وبشَعري عقدتِهِ، وعلى عيني طبعتِ ابتسامةً لا تغيب

قلتُ ماذا ؟ فقلتِ اكليل حبّ هكذا يكرم الحبيبَ الحبيب
سوف تذوي التيجان، يا لَيلَ، والسلطان يـذوي جبينهُ المعصوب
والأكاليل سوف تذوي وتبلى ويشيب الغار الذي لا يشيب
وعلى مفرقِي وقلبي سيبقى غصنكِ الرطب وهو حيٌّ رطيب

(الى الابد)

من العهد الاول

غلواء، ما احلى اسمها المعطارا صبيـة تغبطهـا العـذارى
لا يستطيع شاعرٌ ان يبـدعا قصيدةً اجمـل منها مطلعـا
تصـور الازهـار في نوّارِ تنعشهـا ارتعاشة الانوار
تصور النسيم في الصباحِ يهز ساق الفـل والأقاحي
تصوّرِ السماء في روائهـا كأنها الاحـلام في صفائها
تصور الاعشاب في الجبـال تحلم في مهد من الظـلال
تصور الرابيـة الجميله لوّنها ظـل من الخميـله
وكوم الثلج عـلى الروابي تطفو عليهـا صفـرة الغياب
وانظر اخيراً نظرة سريعه مختلف الجمـال في الطبيعه
تعرف اذاً معرفـة علياء كيف السماء ابدعت غلواء
وكان في صور لهـا قريبه اعطيت اسم الوردة الحبيبه

. . . .

تصور الموت بنـاب افعى مريبةٍ بين زهور تسعى
تظنها خـلال وهج النور ساقية تحنـو على الزهور

تصور المصدور في خـدَّيهِ تورُّد يطفو الصبى عليهِ
تخاله الربيع عند فجرهِ إن انت لم تسمع سعال صدرهِ
ورجلاً غصَّ ببلع ريقهِ فاستنجد القطرة في ابريقهِ
ولو درى ان هناك عقرباَ لآثر الغصّ على ان يشربا
وانظر اخيراً نظرة سريعه مختلف الشرور في الطبيعه
يبدُ لك المقت اذاً فتعلمُ كيف ارادت وردة جهنمَّ

(غلواء)

من العهد الثالث

في ليلة حالكة كالهموم هابطة الجو بثقل الغيوم
كأنها قد حبلت بالرجوم

كان الفتى الشاعر في مخدعه يبكي، فيجري القلب في ادمعه
شعراً، يعيه الحزن في مسمعه

وكانت الشمعة في حجرته تنزع، كالميت في ساعته
— أكل شيء مثلها لا يدوم ؟ —

وكانت الوحدة، كالمدفن موحشة في ذلك المسكن
وقد سطا النوم على الاعين

واستيقظ الشاعر من سكرته وحوّل العين الى شمعته
انيسة الاحزان في وحدته

وبعد ان مرت عليه ثوان كأنها، من داميات الزمان
قــال بصوت راعشٍ محزن :

« يا شمعتي، ماذا وراء النزاع ما هذه القطرة تحت الشعاع
ولِمْ ارى فيها اصفرار الوداع ؟

في دمعك الشاحب، نور يذوب ماذا تقولين بــه للقلوب
لِمَ يغمر الشعلة هذا الشحوب ؟

أينتهي الحب كما تنتهين يا شمعتي، يا مثَل العاشقين
لذاتــه تأتي وتمضي سراع ؟ »

واذ تلاشى نفس الشمعــة مثل تلاشي الروح في الميت
قــال الفتى الشاعر للظلمــة :

« يا مدفن الانوار، ماذا وراء هذا الدجى الحالك، هذا الغطاء
ماذا وراء الليل، هل من ضياء
لِمَ ينقضي الليل ويأتي السحر ؟

(غلواء)

القسم الثاني

النثر

احمد فارس الشدياق

المعلم بطرس البستاني

الشيخ ابراهيم اليازجي

الدكتور يعقوب صروف

الدكتور شبلي الشميل

سليمان البستاني

جرجي زيدان

امين الريحاني

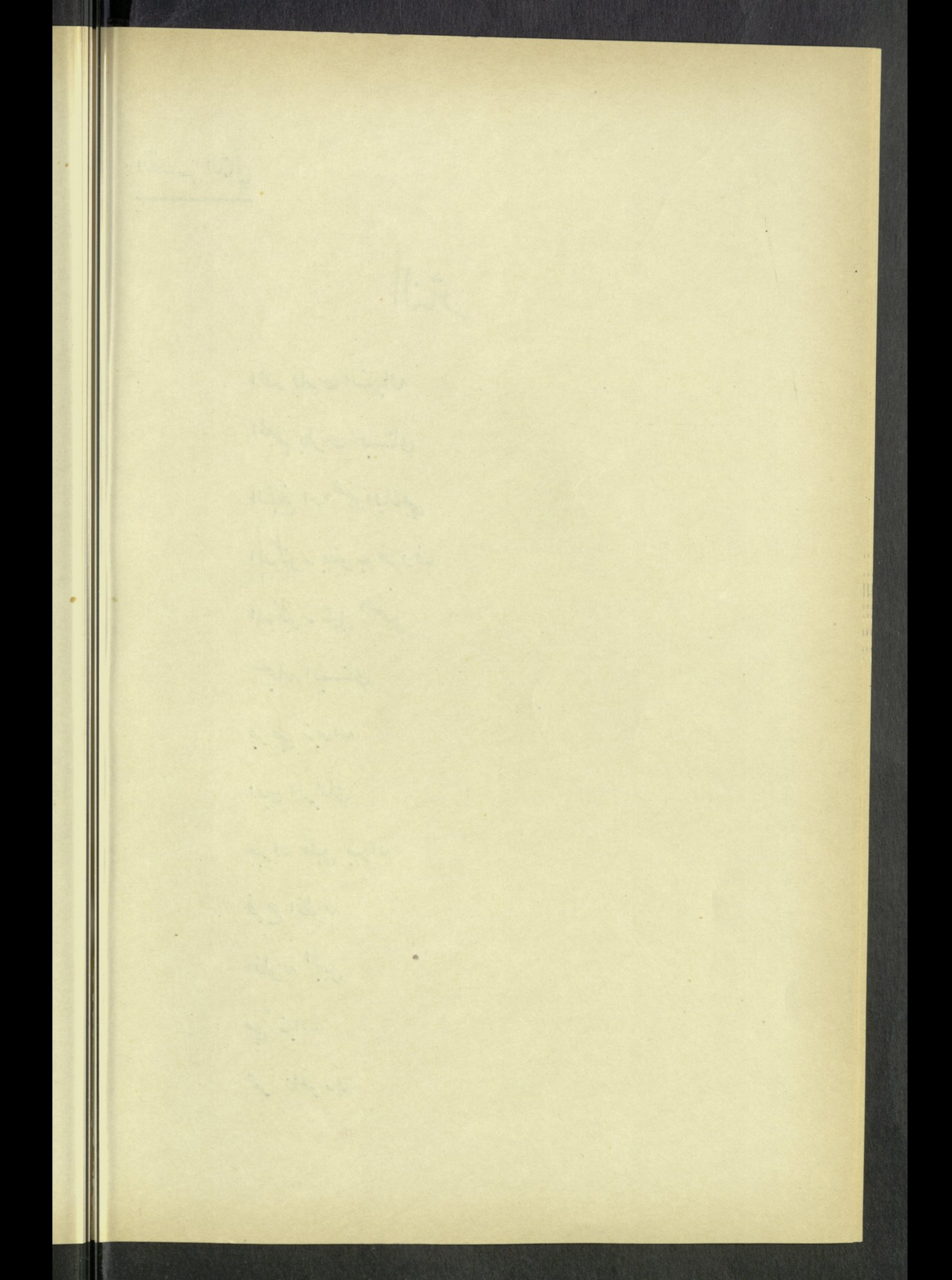
جبران خليل جبران

فرح انطون

انطون الجميل

مي زيادة

عمر فاخوري



احمد فارس الشدياق

(١٨٠٤ — ١٨٨٧)

لم يولد احمد فارس الشدياق احمد وانما ولد في احضان المارونية بعشقوت (كسروان) في بيت راغب في العلم والتحصيل .

انتقل به والده الى حدث بيروت، وهو دون الخامسة ، حيث تدرّج في القراءة، واعد الى دخول مدرسة « عين ورقة » ليغادرها الى بيروت ملماً بالعلوم ، وباللغات الشرقية والفرنسية والانكليزية، وليتصل بالمرسلين الاميركان فيعتنق البروتستانيّة عن يدهم .

في السنة ١٨٣٤ توجّه ناحية القطر المصري فتولّى انشاء جريدة « الوقائع المصرية »، حتى استدعاه المرسلون الاميركيون الى مالطه، ليشرف على اعمال مطبعتهم .

وفي السنة ١٨٤٨ توجه الى انكلترا بناء على دعوة « جمعية نقل التوراة » في كمبردج، ليعاونها في ضبط عبارة الترجمة العربية . ثمّ اتجه الى باريس فالتقى هناك احمد باشا باي تونس. فامتدحه الشدياق بقصيدة حملت الباي على استصحابه معه الى عاصمة ملكه، ليعهد اليه في انشاء جريدة « الرائد التونسي » ؛ وفي تونس اعتنق الاسلام .

سنة ١٨٥٧ استدعته الصدارة العظمى الى الاستانة، مكافأة له على قصيدة امتدح فيها السلطان عبد المجيد . فأنشأ فيها جريدة « الجوائب » . وظلّ على رئاسة تحريرها ثلاثاً وعشرين سنة حتى توفاه الله اليه . وقد نقل رفاته الى لبنان ودفن بالحـازمية (مكانة قبور الباشا) بين الحدث وبيروت .

ألّف احمد فارس الشدياق في اللغة والصرف والنحو، جرياً على عادة اهل زمانه ؛ ولعلّ اشهر ما له في هذا الباب « الجاسوس على القاموس » و « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » .

غير ان كتب الاسفار الـتي وصف بها احوال البلدان، وطبائع الناس، وعاداتهم وكل غريب طريف، هي وحدها ما تبقى للذكر عن الشدياق . وان اهم هذه المؤلفات : « كتاب الواسطة في معرفة احوال مالطة » و« كشف المخبأ عن احوال اوربا » و« الساق على الساق فيما هو الفارياق » .

وله الى جانب ذلك، مجموعة ضخمة من المقالات السياسية، والعمرانية، والادبية، واللغوية . كما له في الشعر « كنز الرغائب في منتخبات الجوائب » و« كتاب السلطان بخشيش »

رجل ضاقت به دنياه، فانتقل الى أخرى فاخرى .

ولم يبدُ ان ضاق به دينه ، لينتقل الى آخر فآخر . ذلك انه ليس في الكثير الذي يقرأ للشدياق ما يدل على ازمة ضمير .

ومهما يكن من امر فان الشدياق كان اداة تعريف ووصل بين الشرق والغرب . وكان رحالة ذكياً ، دقيق الملاحظة عميقها . وكان كاتباً، صاحب اسلوب طريف يتميز في انه رشيق، لاذع .

ولو اتيح للشدياق ، ان ينصرف الى ما كان يميل اليه طبعاً ، من ضروب التأليف والكتابة ، لكان لنا فيه فولتير لبناني ، لا يقل عن فولتير الفرنسيين سعة علم واطلاع وتنوعاً في ضروب المعرفة، وعمقاً في فهم حقائق الامور، ودقةً في التنكيت والنقد، ولذعة في النكتة، ورشاقة في الرواية والتعبير وصفاء في اللغة .

بيد انه لم يرد ان يتنازل، رحمه الله، عن ان يدعى « العالم العلّامة » في فروع الصرف والنحو واللغة والبيان والبديع والقافية وما اليها .

الموسيقى

اما الحان الافرنج فلا يطرب لها منا الا من ألفها، وهي عندهم على اربعة انواع : الاول، وهو احسنها، ما يتغنى به في الملاهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعه وخفضه ورفعه وترقيقه وتضخيمه وترجيفه، وفيه تدخل حماسة وتحريض وتذمير، والثاني وهو يشبه ما يرتل به في الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيف، والثالث ما يغنى به في المحزنات والبث، وفي هذا النوع يستعملون غناء رقيقاً اشبه بالنجوى، فمن يسمعه يلحن ما المراد به وان يكن جاهلًا باللغة كما اذا رأيت شخصاً مجهشاً للبكاء فانك تعلم اجهاشه بالبديهة وان لم تعرف سببه، والرابع ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر؛ وتطريبه انما هو من حيث انهم يصلونه باشياء كثيرة وحركات مضحكة فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها، وفي كل من هـذه الانواع يستعملون المساجلة، وهي مطربة جداً واكثرها في النوع الاخير، ويوفقون عليه الفاظاً مولدة غريبة . وكما ان لهم غناء مضحكاً كذلك لهم رقص يحمل الشكلى على القهقهة . اما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشجي والسيكاه يفرح والصبا والبيات يحزنان والحجازي ينعش وينغش وهلم جرًّا، والفرق بين الفريقين من عدة وجوه

(احدها) ان الافرنج ليس لهم صوت مطلق للانشاد من دون تقييد بتلك النقوش، فلو اقترحت على احدهم مثلًا ان يغني بيتين ارتجالًا كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات لما قدر وهو غريب بالنسبة الى براعتهم في هذا الفن لان الانشاد على هذا النوع طبيعي، وقد كان عندهم من قبل ان تكون النقوش والعلامات، فيا ليت شعري كيف كانوا ينشدون قبل ان نبغ غويدو داريتسو في ايطاليا .

(الثاني) انه اذا اجتمع منهم عشرة مغنين وارادوا اخراج موشح اخذ بعضهم في بعض اركانه من مقام وبعض في البعض الاخر من مقام غيره، فان كانت الاغنية مثلًا من الرصد غنى واحد جزءا من هذا المقام بصوت جهير وآخر جزءا من النوى بصوت رقيق وآخر جزءا من الجواب بصوت عالٍ فيسمعه السامع من عدة مقامات ويسمى ذلك عندهم هرموني اي ان الاصوات تتألف على الغناء وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر : اما الفوائد فلان السامع يسمع في وقت واحد موشحاً واحداً من عدة مقامات بأصوات مختلفة فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض، واما المخاسر فلأن السمع لا يتمكن كل التمكن من ادراك جميع مخارج تلك الاصوات المتغايرة، وهذه الطريقة عندي على الآلات احسن منها على الاصوات

(الثالث) ان غناء الافرنج هو مثل قراءتهم في انه لا يخلو من حماسة وتهييج فضلًا عن التشويق والتطريب والترقيص . فغناء الحماسة والتهييج هو الذي يكون به ذكر القتال واخذ الثأر والذّب عن الحقيقة، فاذا سمعه الجبان ولا سيما من الآلات العسكرية هانت عليه روحه . اما الغناء العربي فكله تشويق وغرامي واجدر به ان يكون جامعاً لمعنى الطرب وهو خفة تصيب الانسان من فرح او حزن، فاذا سمع احد منا صوتاً او آلة شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنت نفسه كما يحن الالف الى الفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحاً ولا غرو ان صعد منه الزفرات وذرف العبرات، فان السرور اذا تفاقم امره وتكامل بدره دب فيه محاق الشجن واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد ويشتعل بنار الهيام، وعلى ذلك ورد قولهم طربه وشجاه من الاضداد

(الرابع) ان الافرنج لا قرار لاصواتهم الا على الرصد . نعم ان جميع الانغام يوجد لها مقامات في آلاتهم بل توجد انصافها وارباعها الا مقامين منها لا انصاف لهما الا انهم لا يقرّون الا على المقام الاول، وقد سمعت منهم الرهاوي والبوسليك والاصفهاني، اما غيرها فلم اسمعه قط، بل قد سمعت منهم بعض اغانٍ من اغانينا اوقعوها على آلاتهم فكانت كلها رصداً، وقد والله طالما وقفت السمع على ان اسمع

منهم انغامنا فخبت حتى اعترتني الحيرة، فاني من جهة كنت ارى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها وافكر في ان العلوم انتهت اليهم والفنون قصرت عليهم، وان عندهم في هذا الفن بدائع كثيرة، فاتتنا على ما سبق ذكره، ومن جهة اخرى ارى ان براعتهم كلها انما هي من مقام الرصد . نعم ان هذا المقام هو اول المقامات وانه يغنى منه في مصر وتونس اكثر مما يغنى من غيره، الا ان فضل الصبا والبيات والحجازي لا ينكر ايضاً .

(الخامس) ان اكثر اصحاب الآلات عندهم لا يحسنون اخراج انصاف النغم وارباعه ما لم تكن مرسومة لهم الا صاحب الكمنجة، فاما الناي ففيه خروق شتى غير السبعة لكل اثنين منها طبّاقة ، اذا سدّ منها منخر جاش منخر . غير ان الصنعة في احكام سدها واستعمالها، تقارب صنعة تغيير نقل الاصابع عندنا . وهذه الانصاف والارباع في النغم مثل الرَوم والاشمام في النحو . وفي الجملة فان للافرنج حركات في هذا الفن خارجة عن ذوقنا واخرى لا يمكن محاكاتهم بها . ومما مرّ تفصيله تعلم ان انشادهم في الحماسة والفخريات غير معروف عندنا وان مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم .

ومن الغريب انه مع كثرة ما عندهم من الآلات والادوات فقد فاتهم العود على محاسنه، والناي من القصب ؛ فان نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا . على ان اكثر العلماء قرر ان اصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب . وقال بعض انه عن صداح الطير ، وغيره انه عن خرير الماء ، وآخرون انه عن اصوات مطارق طوبال قين ، واول من ضبط اصول هذا الفن يوبال وذلك في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد، وكان اختراع الناي في سنة ١٥٠٦ ونسب الى هيجنيس .

اما أهل مالطة فانهم في الغناء مذبذبون كما في غيره ايضاً فلا هم كالافرنج ولا كالعرب ؛ فأهل القرى منهم ليس لهم الا اغاني قليلة ؛ واذا غنوا مطوا اصواتهم مطاً فاحشاً تنفر المسامع منه ، فمضاهاتهم للافرنج هي في اقتصارهم على الرصد ،

وللعرب في انهم اذا اجتمع منهم طائفة للغناء لم يخرجوا أصواتهم الا من مقام واحد، ويقوم احدهم ينشد ويرد عليه الباقي . امـا الاعيان منهم فانهم يتعلمون الالحان الطليانية .

واكثر العميان بمالطة صنعتهم العزف بالآلات، فمتى قدم احد من سفر او ولد له ولد او تزوج او عمّد ولده او ترقى الى رتبة او كسب مكسباً جزيلاً، بادروا الى تهنئته، ولا يخفى عنهم شيء مما يحدث في بلدهم .

والذي يظهر لي ان الانغام التي كان يتغنى بها في ايام الخلفاء كانت اشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة ، واللازمة التي تستعملها المغاربة في غنائهم هي دي دي كقول أهل مصر والشام يا ليل وكقول الترك امان . وفي القاموس ما كان للناس حداء، وضرب اعرابي غلامه وعض اصابعه فمشى وهو يقول : دي دي، اراد يا يدي، فسارت الابل على صوته، فقال له الزمه وخلع عليه، فهذا اصل الحداء . اه .

واسماء الانغام عند المغاربة مخالفة لاسمائها عندنا، وهم يزعمون انهم نقلوا هذا الفن عن أهل الاندلس. واهل تونس اكثر ترسلاً منهم . والظاهر ان الموالي من خصوصيات أهل مصر والشام وكذلك الناي والقانون . والغالب في من غنى صوتاً وأجاد ان يظن ان لم يبق ذو اذن واعية الا سمعه، واذا لم يجد الفى لنفسه عذراً ؛ وذلك بان يتنحنح او يسعل فيحيل القصور على شيء طرأ عليه، هذا اذا كان المغني غير متخذ الغناء له صنعة . فاما من دَرِب فيه فقلّ ان يعرض له خروج لان الصوت كالآلة كلما زاد استعمالاً زاد جلاء .

وكما ان غناء اهـل مصر أطرب وأعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليان أعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما في لغتهم من الحركات، فهي مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون اصواتهم صادرة عن صدورهم .

اما لغة الانكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطاوع عـلى الغناء الذي فيه مد وترجيع الا بتحويل الالفاظ عن وجهها وخرم قواعد النطق بها، وانما يحسن بها

الاغاني المضحكة واصواتهم كلها من ازوارهم ، وكأن المغني منهم يغني وقد غص بلقمة . وجميع الافرنج يقولون ان غناء العرب من خياشيمهم . وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافياً للاشجاء والتطريب، فان اللغة الفرنساوية لا يتكلم بها الا مع الغنة وهي مع ذلك أشجى لغات الافرنج جميعاً وربما طرب لها من سمعها أول مرة من عمره . وقد رأيت من الافرنج من كان يطرب للانغام المصرية ولكن غب طول مكث بمصر . وكان في اول أمره يأنف منها ويقول انها محزنة . ولا يخفى ان للعادة تأثيراً في جميع الاحوال وخصوصاً في المنطق والالحان وناهيك ان الاطفال عندنا وعند الافرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه منذ الصبى . فاذا امتزج بامزجتها كان سماع غيره ضدّ المألوف . واهل مالطة يرقدون أطفالهم على ما هو أشبه بنواح الندّابات في بلادنا ، ولولا العادة لما عجزت الافرنج مع حكمتها عن النطق باحرف الحلق، وهي التي وفت حق نسائهم جزافاً وبخست نساءنا حقهن .

بين لندن وباريس

١ ـ البرد في انكلترا

وفي الحقيقة فانه عند شدة البرد هنا لا يفكر الانسان الا في الاصطلاء، ولا تزال تسمع من كل من تلقاه لفظة البرد ؛ واذا تفوّه بها فرك يديه وتأفف ليدل على صدق ما يقول ولاسيما النساء، حتى انهم ربما قالوا ذلك في يوم لا برد فيه ؛ فكأن السنتهم مرنت على ذلك، وكثيراً ما ترى ايضاً وصف البرد والنار في كتبهم ويسمون المرأة رفيقة الموقد . وقد جرت العادة عندهم بأنه لا يحرك النار الا من كان من اهل البيت او من طالت الفتهُ بهم .

وفي الجملة فان النار اليفهم مدة ثمانية اشهر في السنة وبهذا تعلم انهم لا يرون في وصف الجنة نعيماً ؛ لأن الانسان اذا كان مقروراً لا يشتهي ان يسمع بذكر

المياه والظلال والاشجار بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطرمة ومواقدها محتدمة وخصبها معتَد وحطبها منضد وفحمها مؤبد ومسعرها مخلد، فهنيئاً للمصطلين وطوبى للمستدفئين ؛ أليس ان عبادة النيران في بلاد الفرس نشأت عن البرد ٠

٢ ــ نساء الانكليز

ثم ان النساء في بلاد الانكليز هن اللواتي يباشرن خدمة الديار غالباً ؛ اما الرجال فلا يكونون في خدمة الا عند الكبراء ٠ وكثيراً ما ترى جارية حسناء زاهرة تامة الاوصاف تخدم سيدة من السعالى، واذا طرقت الباب وخرجت الجارية لتفتحه حسبتها هي المخدومة، وادهشك جمال وجهها عن وجه سؤالها ٠

وللنساء القرى خصلة ذميمة وهي انهنَّ يشرقن بنخامتهن، وهذه تقابل خصلة نساء فرنسا في لحسهن اصابعهن بعد اكل الحلواء ونحوها، ويقابلها من خصال اهل المشرق التجشؤ ٠ غير ان خصلة الفرنساويات اقل اذى لانها لا تكون الا عقب الاكل ومدتها لا تطول ٠ وجميع النساء اللائي استخدمناهن كنَّ يلمسن شعورهن ووجوههن وايديهن وسخة ويغسلن وجوههن واعناقهن ويمسحنها بالخرق التي يمسحن بها آنية المطبخ ٠ والخصلة الاولى رأيتها في لندرة ايضاً وقد سمعت ان نساء فرنسا المتظرفات لا يغسلن وجوههن بالصابون مخافة ان تمجل بشرتهن ؛ وانما يغسلن بماء النخالة مع ان صابون فرنسا احسن من صابون الانكليز، ويقال ان اهل فرنسا الاقدمين، وكان يقال لهم الغال، هم اول من عملوا الصابون في اوربا ؛ وكان الناس من قبل ذلك يغسلون ثيابهم بالماء فقط، اما بان يدعكوها بايديهم او بأرجلهم ؛ ولم يعمل في لندرة قبل سنة ١٥٢٤ ٠ والمحسوب ان كل واحد من اهل بريطانيا يلزم له سبعة ارطال من الصابون في كل سنة، فعلى هذا يكون اللازم منه لاهل لندرة وحدهم تسعمائة طن ٠

وجميع الافرنج لا يغسلون أيديهم بعد الطعام غير ان الكبراء منهم يغمسون أصابعهم في صحاف يؤتى بها أمامهم على المائدة ثم ينشفونها من دون صابون ؛ وربما تمضمضوا والقوا فيها الماءَ من افواههم بحضرة الضيوف، وكذلك تفعل النساء، وهو عندي أقبح من عدم الغسل .

ومما يكره في نساء الافرنج تربية أظفارهن حتى تأخذ حدها في الطول، وترك شعورهن في القفا منفشة مشعثة ، فمتى نزعت احداهن غطاء رأسها رأيت شعرها كشعر المقشعر . وان احداهن لتلعب بجرو كلب بحضرة الناس وربما نزا عليها ولحس ترائبها ووجهها، ونساء الأكابر يسحبن كلابهن في العواجل ؛ وعندهن صنف من الكلاب يقعدنه في احضانهن ويسمى كلب الحضن . واني أحمد من نساء الافرنج عموماً ومن نساء الانكليز خصوصاً انهن لا يستعملن الصبغ ولا التزجيج ، فكما خلقهن الله يبدون ، ولا يتباهين بكثرة الحلي والجواهر، فغاية تصنعهن انما هو في تصفيف شعورهن وتغيير ملابسهن بحسب الزي المستعمل، فاما نساء الفرنسيس فانهن أكثر زهواً وعجباً من جميع نساء الافرنج

وقد كانت النساء هنا يرسلن على طلاهن سوالف مجعدة تفعل ذلك منهن الطويلة الشعر عجباً به فصرن الآن يسوينه منسرحاً على أفوادهن اقتداء بالملكة الا ما ندر، ومثل هذه العادة في القلة عادة المرافد .

وللنساء على الرجال مزيّتان علوية صيفية وسفلية شتائية : فالاولى اتخاذهن الظلل وقاية لهن من الشمس او لبرانيطهن خشية أن تنصل ألوانها، وهي في الواقع عبارة عن ظلل؛ والثانية اتخاذهن القباقيب ذات الشسوع في الشتاء ، فتراهن يخضن بها الوحول والثلوج وهي مصلصلة تحت احذيتهن . وغطاء رؤوسهن البرنيطة وذلك مطّرد في جميع البلاد بخلاف نساء فرنسا ، فان لكل نساء اقليم فيها غطاء مخصوصاً وأكثر ما يهمهن من اللباس الجوارب والأحذية ، فاما الثياب فالغالب انها من الشيت، ومع ذلك فاذا كان للمرأة أربعة قفاطين منه فهي الحظيّة

والحق يقال ان نساء الانكليز على غاية ما يكون من التقشف والقناعة، فان اقل شيء من الملبوس يرضيهن، ومن المطاعم يكفيهن، ولا يستعملن الدخان ولا النشوق كبعض نساء الفرنسيس، ولا هن مثلهن ايضاً في كونهن ينكرن مزية الرجال على النساء. فمهما تكن المرأة شريفة من الانكليز تعترف بأن الله تعالى خلق الرجال قوّامين عليهن، واذا أُهديت احداهن منديلاً او حذاء او نحو ذلك استعظمت الهدية وبالغت في وصف محاسنها وكررت الثناء عليك حتى تتوهم انك صرت رابعاً لحاتم طي وهرم بن سنان وكعب بن مامة. فاما اذا نظرن شيئاً من الجواهر النفيسة سواء اتحفن به او لا فيا للعجب ويا لمنتهى الأرب. واستعظام الهدية، ولو قلّت، صفة عامة لعليتهم وسفلتهم، فقد كانت سيدة ما، تكرمت علينا بست ثمرات من الخرشوف فلما قابلتها في اليوم الثاني شكرتها على ذلك فقالت: اني وزوجي اهديناها فكأنها قالت ان عليك ان تشكره ايضاً كما شكرتني، والحق يقال ان ذلك في اكثر الاحوال اولى من سكوت العرب عن نطق كلمة واحدة تفصح عن الشكر.

وقد كنت ارى من النساء العبل الحسان ذوات البَشَر الناعم والغضاضة الرائعة من تنصب حر وجهها لحر الشمس في الصيف بأن تَعزق الحقول وتحمل الاحمال الثقيلة وتحصد وتبذر وتجمع المحصود وتحتطب وما اشبه ذلك. وفي شهر حزيران حين يقطع الحشيش ترى نساء كثيرات يجمعنه. وحين يحصدن الزرع لا يعملن بنص التوراة في سفر الاحبار فانهن يحصدن الارض من تحته، ومع هذا الشقاء فلا تزيد اجرة المرأة في اليوم على نصف شلن وهو بالنسبة الى غلاء بلادهم بقيمة قرش عندنا. فكنت اقول في نفسي: ما ارخص الجَمال في هذه البلاد وما اقسى قلوب الرجال الذين يحوجونهن الى هذا الابتذال، او لعلهم يريدون صبغ هذا البياض النقي بورس الشمس او سحمة الضباب:

فلو برزت سواعدهنّ يوماً لشاعرنا، لأنشد من ذهولِ
بربات الحقول يحق لي ان أشبب، لا بربات الحجول

ولو برزت ترائبهن ليلًا لصدر الدولة القرم الجليلِ
لقال خذوا حظايا الكرج عني فدى الصلفات عند ذوي الخمول

وفي الجملة فلا شيء ارخص من الجمال في هــذه الديار . هذا ولما كان لون البياض عاماً في الرجال والنساء في هذه البلاد كانت المرأة السمراء محببة الى الرجال جداً، والرجل الاسمر محبباً ايضاً الى النساء جداً، وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم جبس وهم صنف من نوَر بلادنا وغجر مصر لولا دناءتهم لكانت علية الانكليز تصاهرهم وذلك لسمرة لونهم وكحل عيونهم . وقد كان الدكطرلي متزوجاً احدى هؤلاء الجبسيات، رآها مرة فأحبها لسمرتها وأحبته هي لبياضه فوعدها بان يتزوجها بشرط ان تتهذب في مذهب النصرانية، فأجابته الى ذلك فتأهل بها .

٣ ــ طباع الانكليز

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض، وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحاً في الساعة الرابعة، كل ذلك حتى يأكلوا الفقع أعني البطاطس ويشربوا الفقّاع وربما بقي الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا اهل المدن . وغاية محاورتهم اذا تلاقوا في الطريق ان يقول احدهم : طيب بطرس فيقول الآخر : طيب يوحنا . وكنت اذا مررت باحدهم يقول لي صباح حسن، فأقول له كالصدى صباح حسن، وكنت أحسب ذلك تحية لان تحية الصباح عندهم صباح طيب، فظننت انهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سألت الدكطرلي فقال لي : ليس ذلك من التحية في شيء وانما هو مجرد اخبار عن حسن الصباح .

واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بــد ان يبتدئ احدهما أولًا بوصف الهواء وصحوه او برده، ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه او ثالول في رجله او اختلاج في عينــه فيقول السامع يحزنني ذلك جداً . ومتى اجتمعوا للمنادمة، وذلك لا يكون الا في القرى الجامعة، ملأوا كوباً كبيراً من الجعــة وجعل كل

منهم يكرع منه كرعة ويدخن في قصبة من الطين ثم يبصق فيملأون المكان بصاقاً وقذراً، وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء وذكر البرد، ولا يكاد احدهم يضحك ضحكاً طبيعياً وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس؛ فما كأن الضحك منهم الا قوة من القوى فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان تخرج معه تلك القوة .

ومن طبعهم ايضاً ان لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة، ولا تهاب الاولاد والديهم كما تهاب الاولاد عندنا ، ولا يحنّ الوالدون ايضاً على أولادهم كما عندنا، ولذلك يقع كثيراً ان الأب يقتل ولده والولد يقتل أباه وأمه .

ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن ان يحولوا عنها، مع علمهم بان جميع الافرنج خالفوهم فيها، حلقهم لحاهم وشواربهم حتى ان عساكرهم لم تتحلّ بالشوارب الا في الحرب الاخيرة ، فليت شعري كيف يرى وجه الجندي محفوفاً منتوفاً كوجه المرأة، ثم ليت شعري : أي حسن للشاب أكثر من الشوارب وأي حلية وكمال للشيخ اكثر من اللحية . واذا حسن للشاب حلق شواربه فلمَ لا يحسن حلق حاجبيه ؟ وأغرب من ذلك ان القضاة وأولي الأمر فيهم اذا جلسوا لفصل الامور وضعوا على رؤوسهم شعراً أبيض عارية وأرخوا منه نحو ذنب معقود على قذلهم ، فأخبرونا ايها الناس كيف يكون الحسن والهيبة في ذنب ولا يكونان في لحية ؟ لعمري ان الشيخ بلا لحية وشوارب أشبه بالقرد منه بالانسان، والشاب بلا شوارب أشبه بالانثى والخنثى منه بالرجل فانها من علامات الرجولية ومما خلقه الله في الوجه من المحاسن الطبيعية .

٤ — نساء الفرنسيس

ولنساء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس والمفروش، فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى ان يبلى، ولكن ليس لهن من الطهارة نصيب . ولهن ايضاً عناية بليغة بتنضيد اثاث البيت ، وبهن تليق جميع الاعمال، وفي الواقع فانهن

ازكن واتقن من سائر نساء الافرنج . وما من امرأة في باريس الا وتعرف شيئاً من المداواة . ومن طبعهن التبكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندره فان الغالب عليهن الكسل والتواني . ولهن ايضاً حرص على تربية اولادهن وتنظيفهن فلا تكاد ترى في اسواق المدينة اطفالاً يمشون وحدهم او يطوفون في الليل ويعرضون انفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة، وهن اللائي يتولين الدخل والخرج فلا يمكن لاحد ان يشتري شيئاً من المأكول والمشروب ما عدا الخمر الا من ايديهن وان تكن بعولتهن حاضرة .

ولهن مزية مشهورة بين الناس في النطق بالمغيبات كما يزعمون، واذا استنطقت واحدة منهن لزمك ان تعطيها عشرة فرنكات . ولم اسمع عن نساء لندرة هذه الدعوى الشائعة عن نساء باريس . وقد اتفق لي مرة ان سرقت كراريس من كتاب الفته وعزمت على عدم افشائه فقلقت لذلك كل القلق ثم رد علي بعضها من لندرة فأخذني الذهول، فلما اطلعت بعض اصحابي على ذلك قال لي عليك بالسمنمبول، فذهبت معه الى واحدة ممن اعرفهن وكان هو ايضاً يريد ان يسألها عن حاجة مهمة له، وتبعنا آخر لم يكن له مأرب سوى الامتحان فقط، فلما سألناها حضرت امرأة اخرى وجلست بين يديها وامسكت يدها اليمنى ثم جعلت فيها كرة صغيرة من بلور وجعلت تحدق النظر في المرأة، وبعد عدة دقائق غمضت المسئولة عينيها ثم تنفست الصعداء وأشارت الينا بالجلوس وعيناها مطبقتان، فناولتها حينئذٍ قطعة من الورق واخبرتها بما جرى من السرقة فشمتها وقالت هذه القطعة ارسلت اليك من بلاد بعيدة مع اوراق اخرى يخالف لون بعضها بعضاً واصل شرائها كان من تلك البلاد .

قلت : نعم ولكن اريد أن اعرف من سرقها . قالت : اين كان مسكنك حين سرقت ؟ قلت : في روبلانش . قالت : نعم في الطبقة الثالثة وقد سرقها رجل كان كثير التراداد عليك . قلت : من هو وكيف هو ؟ قالت : ليس هو بفرنساوي بل هو غريب مثلك . قلت : ما زيّه ؟ قالت : ليس كزيّنا ولا كزيّك وانما يلبس رداء طويلًا . قلت : ما سنّه ؟ قالت : في حدّ الثلاثين .

قلت بل اكثر من ذلك بثماني سنين، ففكرت هنيهة ثم قالت : لست أراه الا كما قلت لك . فكانت صادقة في كل ما قالت الا في السن . ويمكن ان يقال ان ذلك الشخص لم يكن يظن فيه ناظره انه جاوز الثلاثين .

ويقال ان هـؤلاء المنبئات انما ينبئن كما يضمره السائل، فاني كنت اضمرت شخصاً كان على تلك الصفة وكان يتردد علي كثيراً وجزمت بانه هو الذي فعل الفعلة.

٥ ــ اخلاق الفرنساوية

أما اخلاق الفرنساوية فالكلام عليها يستغرق زمناً طويلًا لان الطبيعة البشرية فيهم لحمتها من نوع وسداها من نوع، اما اولًا فلأن سِحَنهم وبنية اجسامهم متفاوتة جدًّا فأهل جنوبي فرنسا سمر كأهل البلاد الحارة، وأهل شماليها بيض شقر، والثاني ان ما يظهر منهم للغريب اولًا انما هو الانس وحسن المعاشرة، فاذا رأى ذلك منهم اول وهلة ظن انهم يزدادون من مؤانسته والفته، وان هذا الانس لا بد ان يتبعه كرم وصداقة، ويزيد تعجبه من ذلك على الخصوص اذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقته الانكليز عـلى حالة الانقباض والعبوس، ولكن هيهات فان أنيسك منهم اليوم اذا رآك غداً ظننت ان ملاقاتكما انما كانت حلماً، وعلى فرض استمرار الالفة بينك وبينه فلا يدعوك الى منزله ولا يعرّفك باهله .

ومن ذلك ان اهل البلاد الباردة كباريس وغيرها تراهم أخف حركة واحفد الى الاشغال من اهل البلاد الحارة او المعتدلة كمرسيلية ونحوها فان الناس هنا لا حركة لهم ولا نبض، فمن قدم اليها من باريس ورأى بلادة اهلها عجب كل العجب، فأين هم من اهل مالطة الذين يبادرون الى العمل بادنى اشارة .

ومن ذلك انهم مائلون بالطبع الى حب النساء ومخالطتهن ومداراتهن ومـع ذلك فانهم يدعونهن يعملن الاعمال الشاقـة ليكسبن بعض شيء، ويمكن هنا ان

يقال ان نساءهم مائلات بالطبع الى حب الكسب، وليست الراحة عندهن الا بتحصيل المال . ومن هذا القبيل ان الرجال من فرط عشقهم يقتلون انفسهم ويرتكبون اقصى الاخطار لارضائهن، ومع ذلك فليسوا يقيمون على ودادهن فتبديلهن عندهم اهون من تبديل اللباس . ومع اعتقادهم بان نساءهم أكيس النساء واظرفهن واحذقهن جميعاً فلا يأنفون من زواج الحبشيات وغيرهن .

ومن ذلك ترى ادباءهم وكيسيهم ابداً يترددون على الملاهي والملاعب ليسمعوا فيها ويروا ما سمعوه ورأوه مراراً وانت خبير بانه يكرر في هذه المواضع تمثيل الحوادث كثيراً اذ لا يمكن اختراع شيء حديث في كل ليلة ومهما يكن الشيء الممثَّل بديعاً فاذا اعيد زالت طلاوته .

ومن ذلك انك لا تزال ترى الخاصة منهم والعامة يتمشون في الحدائق والغياض ومواضع الفرج والغناء حتى تظن ان اهل باريس كلهم سباهلة لا شغل لهم ولا عمل، ومع ذلك فهم يتأنقون في المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش، فلا أدري في اي وقت من الاوقات يكسبون المال .

ومن ذلك ان لهم عناية بتربية اولادهم أكثر من الانكليز اذ لا يغادرونهم وحدهم في الشوارع والطرق عرضة للأخطار او يهملون تعليمهم حرفة من الحرف تغنيهم عن المكث في المستشفى او عن الطرّ والاختلاس في الشوارع كما هي العادة في لندرة غالباً، ومع هذا فانهم عقب ولادتهم يبعثونهم الى الريف ليتربوا عند المراضع، والانكليز على خلاف ذلك .

ومنها انهم على بلادهم وجنسهم أغير من الرجل على امرأته فلا يسلمون بان في الدنيا بلاداً تشبه بلادهم او جيلاً يضارعهم ومع ذلك فانهم يسافرون عنها لغير موجب وحيثما ساروا بثُّوا وسائل التمدن والعلوم وجادوا بما خصهم الله به من البراعة والحكمة على من لبثوا بينهم وربما كانوا لهم اعداء . لعمري اني ارى طريقة ملك الصين في منعه مخالطة رعيته بغيرهم أولى ، أو ليس ان الدولة حين تنصب

الحرب لدولة اخرى تمنع اخراج كل ما يتعلق بالمهمات الحربية من بلادها الى بلاد تلك الدولة، فأي الخارجين أنفع لها وافضل، الرجل ام الأداة ؟

ومن ذلك انهم حين يكونون متغربين في بلاد الناس يختلطون بهم ويجانسونهم ويحالفونهم حتى يصيروا كأنهم منهم، واذا تغرب احد بينهم لم يختلطوا به، فغاية ما يخصونه به من الاكرام انما هو ان يسألوه : من اين قدمت واين تقصد وكيف اعجبتك باريس ؟

ومن ذلك انهم لا يزالون ينقرون عن الحقائق ويودون لو يعلمون كل امر من فصّه، وقد حذقوا كل علم وبرعوا في كل فنّ ومع ذلك فقد عزب عنهم أهم الحقائق وهو ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرؤوس ولو سلّم لهم بأن الكيّسين واهل المعارف والادب غنيون عنه بما فطروا عليه من حسن الاخلاق او حسنوا به املاءهم من مطالعة الكتب، لم نسلّم بأن الرعاع الذين هم الجمهور الاعظم في كل البلاد غير مفتقرين الى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعل الخيرات . ولولا ذلك لأكل القوي الضعيف، فان قلت كيف يأكله والحاكم من ورائه قلت : ليس في كل الامور يمكن استحضار الحاكم او الاستغاثة به . ألا ترى انه اذا اجتمع مثلاً اثنان في مكان خالٍ وبطش القوي منهما بالضعيف، أفيكون لصاحب الحكم عين باصرة او اذن سامعة للقصاص ؟ فكم من قضية جرت بين الناس وفاتت اجتهاد اهل السياسة والايالة . ولكن اذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن ويخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم بذلك اعظم رادع ووازع . فاتصاف امة بعدم الدين من اعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها .

ومن ذلك انه لم يزل دأبهم تغيير الحكومة وتبديل السياسة وارباها ولم يخطر ببالهم قط ان يغيروا هذا الاسلوب السمج الشنيع الذي يجري في عبارات اهل السياسة والاحكام منهم فان فيه من التكرار والمواربة والحشو ما يشهد عليهم امام الله والناس بانهم لا ذوق لهم ولا المام بشيء من الادب .

عمامة الفارياق

قد كان من طبع الفارياق كما هو دأب جميع الاحداث ايضاً ان يحاكي في الزّي والأطوار والكلام من كان متميزاً في عصره بالفضل والدرايـة ، وانه رأى ذات يوم قرزاماً معتماً بعمامة كبيرة مدورة . وكان هذا القرزام يحسب وقتئذٍ من فحول الشعراء، فأحب الفارياق ان يكون له مثل هذه العمامة على صغر رأسه، فكان اذا مشى يميل رأسه منها يمنة ويسرة . واتفق ان أباه سار مرة الى دار الحاكم واستصحبه معه وأركبه مهرة له، وكان هو راكباً حصاناً، فمكثا هناك اياماً . ويعنّ للفارياق يوماً من الايام ان يركض المهرة في الميدان، وكان الحصان مربوطاً في جانب، فأجرى المهرة نصف شوط حتى اذا قابلت مربط أليفها التفتت اليه كالمشيرة ان فـارسها غير جدير بركوبها بين جياد الامير، فما كان من الفارياق الا ان سقط على أم رأسه، وأقبلت المهرة تجري الى الحصان وغادرته مجندلاً على الجدالة، ولو كان فارساً مجيداً لما تركته على تلك الحالة بل كانت تنتظره حتى يقوم .

ثم انه قام بعد ذلك يحمد الله على كبر عمامته فانها هي التي وقت رأسه عن احدى الشجات . ويومئذٍ عرف ان لكبر العمامة فضلاً ومزية، وظـن ان اتخاذ العمائم الكبيرة عند أهل بلاده انما هو لوقاية رؤوسهم فقط لا لتحسين وجوههم ، فان العمامة الضخمة تخفي محاسن الوجه وتشوه الوجه الصغير فضلاً عن كونها توجع الرأس وتمنع صعود الابخرة من مسامه . فإن قيل اذا كان سبب اتخاذ العمائم الكبيرة انما هو لوقاية الرؤوس لا للزينة والتحسين ، فما بال الذين يرقـدون ليلاً يتعممون، فهل يخافون ان تتدحرج رؤوسهم عن مصادغهم فيسقطوا في مهواة في بيتهم، مـع ان فرشهم تكون على الارض ؟

طالب النحو

فلنرجع الآن الى الفارياق فانه هو ايضاً رجع الى حرفته وهي النساخة وان كان ذلك على غير مراده . واتّفق اذ ذاك ان فتيين من امراء ذلك الصقع ارادا ان يقرأا النحو على بعض النحاة وكان الفارياق يحضر الدرس وهو مكبّ على النسخ .

وكان احد التلميذين بطيئاً عن الفهم سريعاً الى الجواب، يتثاءب ويتمطى . واذا خيّل له انه فهم مسألة حكّ تحت ابطه وشم رائحتها . ثم عربد من افتتانه وسلق من وليه بلسانه . وقال : ألا قبحاً لذوي الخواطر البليدة، والفطن البعيدة . كيف لا يتعلم الناس كلهم فن النحو، وهو اسهل من حك ما تحت الحقو ? أما والله لو كانت العلوم كلها مثله، لما غادرت منها كبيراً ولا صغيراً الا استوعبته كله . لكني سمعت ان النحو انما هو مفتاح للعلوم ولا يعدّ منها فلا بدّ ان يكون غيره اصعب منه .

فقال له معلمه : لا تقل هكذا بل النحو اساس العلوم وكل العلوم مفتقرة اليه افتقار البناء الى الاساس . الا ترى ان اهل بلادنا لا يتعلمون سواه ولا يعرّجون على غيره ? وعندهم انّ من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها . ولذلك لا يؤلفون الا فيه . وانما يحصل خلاف بينهم في تقديم بعض الابواب على بعض، وفي توضيح ما كان مبهماً منه بأدلة وشواهد . واختلفوا ايضاً في الشواهد فمن قائل انها مفتعلة ومن قائل انها مزورة او شاذّة، بيد ان المآل واحد . وهو ان العالم لا يسمى عالماً الا اذا كان متمكناً من النحو مستقصياً لجميع دقائقه . ولا يكاد يستتب امر الا به . ولو قلت مثلاً : ضرب زيد عمرو من غير رفع زيد ونصب عمرو فما يكون ضربه حقاً ولا يصح الاعتماد على هذا الاخبار . فان حقيقة

فعل الضرب متوقفة على علم كون زيد مرفوعاً . وجميع اللغات التي ليس فيها علامات الرفع هي خالية عن الافادة التامة . وانما يفهم بعض الناس بعضاً من دون هذه العلامات عن دربة او اتفاق . فلا معوّل على كتبهم وان كثرت، ولا على علومهم وان جلّت؛ واني وان كنت قد لقيت منه عرَق القربة وكثيراً ما بتّ وبالي مشغول بعقلة من عقله وبداهية من عراقيله . فكنت آرق ليلي كله ولا اهتدي الى وجه الصواب فيما عوِص علي من ذلك . الا اني استفدت منه فائدة عظيمة جعلتني ممنوناً لبنت ابي الاسود الدؤلي ابد الدهر، فانها هي التي كانت سبباً في استنباطه . قلت : وكذا سائر البدائع كان اصل استنباطها مسبباً عن النساء .

فقال له التلميذ : ما هذه الفائدة يا استاذي ؟ قال : قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس . فكنت اميل الى ما قالته الفلاسفة من انه كل ما كان له ابتداء فهو متناهٍ ؛ فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه فزال عني، والحمد لله، ذلك الابهام . ومثله او اكثر منه في الصعوبة فن المعاني والبيان .

فقال له التلميذ : لم أسمع بذكر ذلك قط .

قال : أما أنا فقد سمعت به وأعرف ما يشتمل عليه . وهو المجاز والكناية والاستعارة والتورية والترصيع وغير ذلك مما ينيف على مئة نوع . وبيان ذلك مفصلًا يستفرغ أجلًا . وربما قضى الانسان عمره كله في علم الاستعارات وحدها إن لم يمت وهو جاهلها، او يكون قد نسي في آخر الكتاب أو الكتب ما عرفه في أوله .

وذلك ان من اخترع هذا العلم الجليل لم يكن سلطاناً حتى يمكنه اجبار الناس جميعاً على متابعته ومشايعته، بل كان فقيراً فأولع بهذا الشيء وشرح الله صدره لتقرير قواعد له فكان لا يقع بصره على شيء الا خطر بباله طريقة من طرقه . فاذا نظر الشمس مثلًا طالعة قال : كيف ينبغي أن يفهم هنا طلوع الشمس،

هل هو حقيقي او مجازي ، وهل المجاز هنا عرفي او لغوي ؟ وكذا لو رأى البقل نابتاً في زمن الربيع قال : كيف تأويل قول القائل أنبت الربيع البقل ، فهل يصح اسناد ذلك الى الربيع وهو انما نشأ عن دوران الارض حول الشمس فهو ولا شك مسبب عنها، ولا ريب ان مدير الارض انما هو الله عزَّ وجلَّ، فيكون قوله أنبت الربيع البقل مجازاً بدرجتين، لان الربيع مسبب عن دوران الارض ودوران الارض مسبب عن تقدير الباري تعالى . وكذا قولهم جرت السفينة أو الحجر . ومن المجاز ما له أيضاً ثلاث درجات ومنه ما له أربع . ومنه ما تفوق درجاته درج المأذنة ومن هذا الدرج ما شكله قِرقي ومنه حلزوني ومنه لولبي، ومنه غير ذلك . ثم ما زال المستنبط يفكر في هذه البدائع حتى أدركه الأجل فمات وبقي عليه أشياء كثيرة لم يحكمها . فقام من بعده من أولع مثله بهذا الفن فاستدرك على سلفه مواضع كثيرة، وظل يباحثه ويعارضه الى ان قضى نحبه وقد ترك مجالًا لغيره . فجاء من بعده من أصلح بينهما في عدة مواطن وعاب على كل منهما أيضاً أموراً، ثم مات ولم ينه ما قصده . فخلفه من صنع به ما صنعه هو بغيره، وهكذا بقيت أبواب النقد مفتوحة الى عصرنا هذا . فمن قائل ان هذه العبارة من الاستعارة التبعية، ومن قائل انها من الترشيحية .

فقال له التلميذ وقد امتقع لونه : وهل النحاة ايضاً ماتوا ولم ينهوا قواعد هذا العلم، وهل قراءتي له عليك تغني عن اعادته عند غيرك هنا، وهل يجب على الطالب في كل بلد سافر اليه ان يتعلم نحو أهله أم هو علم مرة واحدة ؟ فقال له الشيخ : أما عن المسألة الاولى فأجيب انه ما جرى على البيانيين فقد جرى ايضاً على النحاة . فقد قال الفرَّاء أموت وفي قلبي شيء من حتى . وقد مات سيبويه وبقي في قلبه من فتح همزة ان وكسرها اشياء . ومات الكسائي وفي صدره من الفاء العاطفة والسببية والفصيحة والتفريعية والتعقيبية والرابطة حزازات . ومات اليزيدي وفي رأسه من الواو العاطفة والاستئنافية والقسمية والزائدة والانكارية صداع وأي صداع . ومات الزمخشري وفي كبده من لام الاستحقاق والاختصاص والتمليك

وشبه التمليك والتعليل وتوكيد النفي وغير ذلك قروح وأي قروح . ومات الاصمعي وفي عنقه من رسم كتابة الهمزة غدّة .

وفي الجملة فان معرفة حرف واحد من هذه الحروف اذا تعمّد الطالب استقصاءها وجب عليه ان يترك جميع اشغاله ومصالحه ويعكف على ما قيل فيه وأجيب عنه . وأما قولك هل يلزم ان تقرأ النحو ايضاً على غيري هنا أي في بلادنا فذلك غير لازم، فان أهل بلادنا كلهم لا يطالعون غير هذا الكتاب الذي تطالعه أنت، بل قلّ من يطالعه ويفهمه او يعمل بمقتضى قواعده . واما عن سؤالك الثالث فأقول انه لا ينبغي اعادة هذا العلم في كل بلد ولكنك حيثما سرت وايان توجهت وجدت أناساً ينتقدون عليك كلامك، فان عبّرت بالواو مثلاً قالوا الافصح هنا الفاء، أو بأو قالوا الاولى أم . وفي بعض البلاد اذا علم انك تنقط ياء قائل وبائع سقط اعتبارك من عيون الناس . فقد قرأت في بعض كتب الادب ان بعض العلماء عاد صديقاً له في حال مرضه فرأى عنده كراسة قد كتب فيها لفظة قائل بنقطتين تحت الياء فرجع في الحال على غضبه وقال لمن سار معه : لقد أضعنا خطواتنا في زيارته . وهذا هو سبب قلة التأليف في عصرنا، فان المؤلف والحالة هذه يعرض نفسه للطعن والقدح والبلاء، ولا يراعي الناس ما في كتابه من الفوائد والحكم، الا اذا كان مشتملاً على جميع المحسنات البديعية والدقائق اللغوية . ومثل ذلك مثل رجل فاضل يدخل على قوم بهيئة رثة ورعابيل شماطيط، فالناس لا تنظر الى أدبه الباطني بل الى بزّته وزيه، والحمد لله على قلة المؤلفين اليوم في بلادنا اذ لو كثروا او كثر نقدهم وتخطئتهم لكثرت اسباب البغض والمشاحنة بينهم . وقد استغنى الناس عن ذلك بتلفيق بعض فقر مسجعة في رسائل ونحوها كقولك السلام والاكرام، والسنية والبهية، فأخفّه ما كان ساكناً .

فأما الشعر في عصرنا هذا فانه عبارة عن وصف ممدوح بالكرم والشجاعة او وصف امرأة يكون خصرها نحيلاً، وردفها ثقيلاً، وطرفها كحيلاً . ومن تعمد قصيدة جعل جل ابياتها غزلاً ونسيباً وعتاباً وشكوى وترك الباقي للمدح .

ثم ان التلميذ النجيب أستمر يقرأ على شيخه الاديب في النحو حتى وصل الى باب الفاعل والمفعول فاعترض على ان الفاعل يكون مرفوعاً والمفعول منصوباً وقال: هذا الاصطلاح فاسد لان الفاعل اذا كان مرفوعاً كان الذي عمل فيه الرفع آخر والحال انه هو العامل، وبيانه أنّا نرى الفاعل في البناء يرفع الحجر وغيره على كتفه فالحجر هو المرفوع والفاعل رافع .

ثم ختم التلميذان قراءة الكتاب ولم يستفيدا شيئاً وكأن الشرح كله كان موجهاً الى الفارياق . ومذ ذلك الوقت أخذ في تجريد عبارته بمقتضى القواعد النحوية، فصار يهوّل بها على رقاع الناس .

طبيب

أتخمت يوماً من أكلة برغل اخذتها بجذافيرها فاصبحت وبي غثيان . واتفق ان زارني في صباح ذلك اليوم بعض الامراء الذين ينبغي ان يقال لما اثبتوه : نعم في موضع لا، ولما نفوه : لا في موضع نعم . فرآني على تلك الحالة فقال ما بك ، فاخبرته الخبر . فقال عليك بطبيبي الساعة فهو أمهر الاطباء لانه قدم من باريس منذ ايام، ولولا ذلك لما اتخذته طبيباً لي ولأهلي . قلت : من عادتي ان اصبر على المرض الخفيف اياماً وأستعين على معالجته بالاحتماء والتوقي فقد يكون في ذلك ما يغني عن العلاج ، فاني أرى هؤلاء الاطباء يعالجون الامراض بالخرص والتخمين ، فما يهتدون الى العلة والمعلول الا بعد ان تبلغ الروح الحلقوم، فيجربون مرة دواء ومرة اخرى غيره . قال : لولا ان المرض قد بلغ منك ما قلت هذا الكلام فلا بد من احضاره الآن . وما زال بي حتى بعثت اليه خادمي حياء وخجلاً .

ثم خطر ببالي ان الآدِب عندنا من فرط كرمه قد يجبر المأدوب على الاكل، وربما القمه بيده ما تعافه نفسه، ولكن لم أسمع ان أحداً تكرم بان يجبر غيره على

علاج . فلم اتمالك ان ضحكت . قال : ما أضحكك ؟ قلت لا شيء . قال : لا احد يضحك من لا شيء فلا بد ان يكون هناك شيء . قلت : فكرت في ذلك الطبيب الذي عاد مريضاً فقال لأهله : آجركم الله في مريضكم ، فقالوا انه لم يمت بعد . قال : يموت ان شاء الله ، فضحكت . قال : لا عليك فان هذا الطبيب ليس مثل ذاك . وبعد فانك عزَب ليس لك أهل حتى يقول لهم ذلك .

ثم ما عتم الخادم ان جاء به وهو أشد مني مرضاً ونحولاً . فالظاهر انه لم يكن له شغل حتى يخرجه من داره . فلما ان دخل جس نبضي ونظر الى لساني ثم زوى ما بين حاجبيه واطرق الى الارض وهو يحدث نفسه . ثم رفع رأسه وقال لخادمي : هات الطست . قلت : ما تريد ان تفعل وانا صاحب جثتي ، افلا تشاورني ؟ قال انه الفصد او الرمس . قلت : هداك الله يا شيخ ، انها أكلة برغل مع اللحم مما تسميه الناس كبيبة . قال : انا اعرف ذلك انا اعرف . انكم يا اهل الشام كلكم تموتون بهذه الكبة ، فقد شيعت بها حين كنت في بلادكم اكثر من مئة جنازة . نعم هي الكبة .

وفي الاختصار فانه ما زال هو والامير يخطئان رأيي حتى استسلمت للهلكة ومددت يدي فأعمل فيها مبضعه اعمال السكين في بطيخة ، فخرج الدم متبعقاً حتى دخل في عينيه فاطلق يدي وذهب ليغسل وجهه . ثم جاء بعد هنيهة وقد غشي علي فتداركني خادمي بماء الزهر وغيره ، والامير ناظر الى دخان تبغه والطبيب يساره . فلما افقت ربط يدي وخرج مع الامير وقالا احترز لنفسك فاننا نعودك عن قريب . فقلت في نفسي : لا اعادكما الله .

فلما كان الغد جاء الطبيب متأبطاً اعشاباً . فقلت ما هذه الاعشاب ؟ قال حقنة . قلت تكفيني واحدة . قال ان الامير يقول لك ينبغي ان تحتقن ان لم يكن لنفعك فلاكرامه . فقلت في نفسي لا بأس باكرامه في الحقنة .

ثم استعملت الحقنة . ثم وافاني اليوم القابل ومعه حقّة، فقلت وما بيدك ؟ قال مسهل مما اصنعه للامير . فاستففته . ثم جاءني في الغد وليس بيده شيء . فاستبشرت وقلت له : قد وهنت مني القوى بقوة المسهل . قال : ينبغي ان تتخذ اليوم حماماً في غاية السخونة لكي تعرق، وقد جربته في ذوي الامير فوجدته بعد المسهل انفع ما يكون .

ثم تولى هو بنفسه تسخين الماء . وانزلني في مغطس كنت اتخذته لنفسي ، فلما دخلته لفحني حرّه حتى غشي علي بعد ان سمط جلدي، فأخرجت منه على رمق من الحياة، فتداركني خادمي بالمشمومات حتى افقت .

ثم جاءني في الغد وليس بيده شيء. ففرحت ايضاً وقلت لعله قد نفد ما في وطاب علاجه وكان الحمام آخر ما عنده، فسألني عن حالي، فقلت هو كما ترى ، قال : عليل ؟ قلت : واي عليل ! قال : ينبغي ان تفصد ، فسقط علي كلامه كجلمود صخر حطه السيل من عل، وقلت : كأنك تهمّ باعادة ما صنعته اولاً، فمتى ينتهي هذا الدور ؟ قال : لا بد ان احد هذه العلوج (جمع علاج) يزيل ما بك، قلت : اجل اما الاول فهو انت واما الثاني فهو دمي او روحي . ثم تجلدت وتمنعت وقلت له قل للامير اني والحمد لله عَزب فلأي سبب يحاول تسفيري سريعاً ؟ فلم يفهم وقال اني اريد ان افصدك لا ان انقل عنك . قلت : فانا لا اريد فأرحني اراحك الله . فأولاني كتفه وولى .

ثم لم يلبث ان بعث الي برقعة الحساب وتقاضاني فيه خمسمائة قرش . فانه زعم ان عنده ناساً في الريف من الفلاحين يجمعون له تلك الاعشاب مع انها مما ينبت على حيطان ديار القاهرة، وما كفاه ذلك حتى توعدني باني اذا تأخرت عن قضائه كما تأخرت عن الفصد الثاني يرفع القضية الى ديوان قنصله . فنقدته المبلغ المذكور بتمامه وقلت لا بارك الله في الساعة التي أرتنا وجوه العجم وأدبارهم .

الفارياق والفارقية

١ — من هي الفارقية

تعليم المرأة

وكانت زوجة الفارياق لا تدري شيئاً سوى بيت اهلها، ولا تتكلم في أمر الا فيما جرى لها مع امها او لامها مع الخادمة او لهذه معها . وكانت اذا اخبرت مثلًا بان الخادمة ذهبت الى السوق لتشتري شيئاً تخللت كل جملة بضحكة طويلة فاقتضى لاخبارها من الوقت نحو ما كان اقتضى للخادمة من الذهاب والاياب . وسبب ذلك ان البنات في مصر والشام لا يعاشرن أحداً سوى الخوادم واهل البيت . أما امهاتهن فلا يطالعنهن بشيء من امور الدنيا مخافة أن تنجلي الغشاوة عن ابصارهن فيعرفن ما يراد منها . فمن ثم كان تحصيل معارفهن كلها من الخوادم لا غير .

٢ - الفارقية والرقص

ثم استمر الفارياق في الوظيفتين المذكورتين معبراً ومصلحاً مدةً مكنته من حل مشاكل زوجته . واتخذ له متاعاً فاخراً وآنية حسنة وصار يدعو الناس ويصنع لهم ولائم . وكان للحاكم عادة ان يدعو جميع المعروفين في خدمته الى ليلة عيد يرقص فيها الرجال والنساء بحضرته . وكان من جملة المدعوين الفارياق وزوجته فلما رأت الرجال يرقصون وهم مخاصرون للنساء قالت لزوجها : هل هؤلاء النساء أزواج هؤلاء الرجال ؟ قال : منهن هكذا ومنهن بخلاف ذلك . قالت : وكيف يخاصرونهن اذاً ؟ قال : هذه عادة القوم هنا وفي سائر بلاد الافرنج . قالت :

وبعد المخاصرة ما يكون منهم ؟ قال : لا ادري ولكن بعد انفضاض الناس يذهب كل الى منزله، انها عادة قد مشوا عليها . قالت : نعم هي عادة ونعمت العادة . ولكن كيف يكون احساس المرأة يلمسها رجل جميل في خصرها ؟ قال . فقلت : لا ادري انما انا رجل لا امرأة . قالت : ولكن انا ادري .

ثم تنفست الصعداء وقالت : يا ليت أهلي علموني الرقص، فما أرى فيه لأنثى نقص . فقلت : لو فتحت الصاد في كل من المصراعين لكان بيتاً مطلقاً . فقالت : يا للفضيحة بين الانام ! أتقول هذا الكلام في مثل هذا المقام ؟ قلت : هيتِ الى البيت، فقد كفاني ما سمعت الليلة وما رأيت . قالت : لا بد من أن أرى ختام الرقص .

قال : فلبثنا الى الصباح ثم انصرفت بها فكانت تقول وهي سائرة : نساء مع رجال راقصات، رجال مع نساء راقصون، راقصات راقصون راقصون راقصات . فقلت : فاعلات فاعلون فاعلون فاعلات . قالت : الرجال والنساء والبنون والبنات . كيف - متى - أين !

٣ — وداع الفارياق للفارقية

فاقبل على زوجته يودعها ويقول : عهدي اليك يا زوجتي بادئ بدء ان تتذكري السطح فيبعثك على حفظ العهد والوداد . وان تعني بأمر ولدي، الذي أغادر عندك معه كبدي . واذا أتاك فاسق بنبإٍ فتبيّني . أي اذا قال لك غداً أحد ممن حسدني عليك قد مات زوجك في البحر وأكله الحوت ولم يبق في عالم الوجود سوى اسمه، فلا تركني اليه قبل ان يرد اليك كتاب مني تعتمدين عليه .

قالت : ولكن كيف تكتب لي اذا كان الخبر صحيحاً ؟ قال . فقلت : يكتبه لك صاحب المعبّر . ولكني أرجو أن أصل سالماً وتقرّ عيني برؤية أهلي وأهلك وأبلغهم سلامك . قالت : ألا تعيّن لي مدة لارسال الكتاب ؟ قلت :

شهرين . قالت: هذا دهر دهارير . أية أمرأة تصبر شهرين ؟ قلت : نحن سائرون في سفينة الريح، فان الطبيب قال لصاحب المعبّر أنها أوفق من سفينة النار لما في هذه من رائحة الفحم التي تضر بالمصدورين . قالت : افعل ما بدا لك ولكن احذر من أن تفيق وتهوى غيري . قلت : انما أحذر من الثانية لآمن الاولى . قالت : لا بل مني فاحذر . قلت : انما عنيت اني أحذر من الهوى . قالت : نعم اياك واياه فانه يزيدك ضنى . قلت : النساء والرجال في جميع البلاد سواء، ولاسيما انك الآن في زي غريب، والنساء كاهن يتهافتن على الغريب، كما ان الرجال يتهافتون على الغريبة . قلت : قد فهمت هذا التعريض غير ان المرأة المصونة اذا دخلت بين جيشين تخرج كما دخلت . قالت : نعم تدخل امرأة وتخرج امرأة . قلت : واين المصونة أراكِ حذفتها . قالت : في زمن الفِطَحل . قلت : وما الفطحل ؟ قالت: دهر لم يخلق الناس فيه بعد . قلت : من أين علمت هذه اللفظة الغريبة ؟ قالت : سمعتك مرة تقولها فحفظتها وهو دليل على التهافت على الغريب.

ثم سكتت مفكرة ثم ضحكت . فقلت لها : ممَّ تضحكين أمن الفطحل ؟ قالت : لا وانما ذكرت حكاية عن امرأة سافر عنها زوجها، فضحكت . قلت : وما هي ؟ قالت : كانت امرأة متزوجة برجل يريبها في بعض احواله، ولم تكن على يقين مما رابها منه . واتفق انه سافر عنها فحزنت لفراقه لكنها ظلت واجدة عليه . فجعلت مرة تدعو له وأخرى تدعو عليه . وقالت : ان كان بريئاً بلغته دعواتي الصالحة والا فيلحقه غيرها .

فقلت : هل في نيتك اذاً ان تحاكيها ؟ قالت : معاذ الله أن أدعو . قلت : قولي لك او عليك حتى يفهم المعنى . قالت : عليك . قلت : لله انت ما أرى لي من يديك منجى . فالتفتت الى الباب وقالت : ما جاء احد . قلت : دعيني بحقك من الزبون ومن مَن جاء فأنا الآن على جناح السفر . قالت : سر في أمن الله ولا ترتب فأن للهزل وقتاً وللجد وقتاً وعرض المرأة هو من الاخير . قلت : وهذا ايضاً كلام موجّه كأنك تقولين انه ليس من الامور المقدمة . قالت : ألا

كن مطمئناً سواء كان من هذا او ذاك فانك ستجدني كما فارقتني ان شاء الله .

قال: فودعتها والدمع هامل على جيدها . وبكت هي ايضاً لفراقي فانها كانت اول غيبة عنها . وكان من خلقها اذا بكت أَن تبدو في طلعتها لوائح وجد شائقة، وملامح حسن رائقة . والنساء أَشوق ما يكنَّ اذا بكين . ولكن لا يكن كلامي هذا باعثاً على ضربهن، شلّت يدا من مسهن عن غضب .

قال، فتزايد بكائي لبكائها وأَحسست بلوعة الفراق . ثم أقلعنا وما كادت تغيب الارض عنا حتى ثارت لواعج الاشواق في صدري وخطر ببالي كل ما قالته مصبوغاً بالوساوس والهواجس . قال: ومن كان حلس بيته لم يفارقه ولم تبرح رائحة زوجته فاغمةً منخريه لم يدرِ ما ألم الفراق، ولاسيما اذا جرى ذلك أول مرة.

شذور من الشدياق

قال مرة: قد رأيت في السوق جبناً أبيض كالزفت . وقيل له: لمَ لا تغسل يدك ؟ قال: اغسلها فتعود وسخة في الحال، ولست اقدر على تنظيفها لكون دمي وسخاً .

وقال له أبوه: اذا كنت تغيب عنا افتحسن ان تكتب لنا كتاباً ؟ قال: نعم اكتبه واجيء به اوصله اليكم .

واشترت له امه ثوباً فلما فصّلته قال لها: أويزول لون هذا الثوب ؟ قالت: لا ادري . قال: ارجو ان يزول فلعله يصير احسن .

وقالت امه: إن فلانة التي كانت تحسن اليك قد ماتت . فسكت ساعة ثم قال: قد حزنت عليها كما حزنت على موت امي، الله يبعثها الى الجنة هي وزوجها حالاً .

وقال مرة في شيء اعجبه : تبارك الله من كل عين . وقيلَ له يوماً : ان فلاناً يريد ان يأخذك الى مدرسته ليعلمك . فقال : بعثه الله الى الجنة . قال له ابوه : اتريد ان تميته ؟ قال : فكيف اقول إذاً ؟ قال : قل اطال الله عمره . قال : طوَّله الله .

وشكوت ذات يوم لمخدومة طول استمراري على صنف واحد من الطعام، فأرسلت الي خادمها في اليوم القابل يقول : ان سيدتي تدعوك الى الغداء . فلما توجهت قالت لي : اني سمعتك بالامس تشكو من الطعام فصنعت لك اليوم ما يعجبك . فلما هيئت المائدة قدم عليها ارنب بأذنيه وذنبه واذا به منتن زَفِر يملأ زافره الخياشيم فتعوذت بالله وقلت ما قال ذلك الظريف : ان عمر هذا الحيوان بعد موته اطول منه في حياته .

المعلم بطرس البستاني

(١٨١٩ – ١٨٨٣)

« أوّل من أسس مدرسة وطنيّة عالية .
« أوّل من ألّف قاموساً عربياً عصرياً مطوّلاً .
« أوّل من ابتدأ بمشروع دائرة معارف باللغة العربية .
« أوّل من نادى بتعليم النساء في الشرق . »

فؤاد افرام البستاني

وهو أوّل بستاني نبغ . وأوّل من مدّ الى الغرب فكراً فتثقّف وأفاد . وأوّل من بسّط اللغة، على صحة واناقة واتزان، فاوجد لغة تفاهم واتصال بين النخبة والناس .

ولد المعلم بطرس البستاني في الدبيّة ١٨١٩ فتلقى مبادئ العربية والسريانية الاولية في مدرسة القرية ؛ واخذ العلم في مدرسة « عين ورقة » فأتقن التاريخ والجغرافية والحساب، ودرس اللغات السريانية واللاتينية والايطالية، وحصّل المنطق والفلسفة واللاهوت الادبي والنظري واصول الحق القانوني ؛ والمّ باللغة الانكيزية .

في السنة ١٨٤٠ نزل الى بيروت فتعرّف الى بعض مرسلي الاميركان واخذ يعاونهم في بعض تعاريبهم حتّى رغبوا اليه سنة ١٨٤٦ في تأسيس مدرسة « عبيه » .

وفي السنة ١٨٤٨ عاد الى بيروت وراح ينشئ الجمعيات الدينية والخيرية والعلمية والادبيّة، ويلقي الخطب والمحاضرات ، ويؤلّف الكتب، ويتضلّع من اللغتين اليونانية القديمة والعبرانية، ويحصّل الكثير من العلوم العصريّة الصحيحة، ويساعد الدكتور « عالي سميث » في تعريب اسفار الكتاب المقدّس . الى ان كانت السنة ١٨٦٠ والفتن الطائفيّة فاصدر جريدة سمّاها « نفير سورية » يدعو فيها الى وحدة القلوب حتّى اذا ادرك ان لكل شيء بداية « وان القلوب لا تتفق إلا اذا اعتادت الاتحاد والوئام صغيرة » اسس « المدرسة الوطنية » التي كان الشيخ ناصيف اليازجي احد الاساتذة فيها ؛ وقد وضع في هذه الفترة الاخيرة من حياته اعظم مؤلفاته « كالمحيط المحيط » و« قطر المحيط »، ودائرة المعارف التي كان قد سبقها الى عالم الوجود « مصباح الطالب في بحث المطالب» و« مفتاح المصباح » و « آداب العرب » و « كشف الحجاب في علم الحساب » و « تعليم النساء » و « الهيئة الاجتماعية » و« ترجمة رحلة روبنصن كروزوي » .

وكل ما كان نشر وظلّ يدبّج وينشر في مجلاته الثلاث « الجنان » و « الجنّة » و « الجنينة » .

وفي مساء اول ايّار ١٨٨٣ فاجأت هذا « الجبّار » (على حدّ تعبير معاصريه) اللبناني نوبة في القلب اودت بحياته بين كتبه واوراقه « شهيد العلم » وشهيد الواجب الذي الزم نفسه عليه فتمشى ببلاده جيلًا كان على السلف ان يمشيه مشية المتباطئ لولاه .

حالة النساء في بلادنا

واما النساء في هـذه البلاد، ولئن كنَّ ارقَّ حالًا وارفع درجةً مما هنَّ في بلاد الامم الوثنيين، فانهنَّ لم يبلغنَ الدرجة المطلوبة من المعرفة والتمدن مما يقتضيه نجاح البلاد، وتقدّم الاهالي. وكأنهنَّ في حدٍّ متوسط بين برابرة الدنيا ومتمدنيها: فهنَّ، بالنظر الى نساء الهند مثلًا، متمدنات؛ ولكن بالمقابلة مع نساء اوربا، لم يزلن بمعزل عن ذاك. فكم امرأة، بين الكرَّات الكثيرة في بلادنا، تعرف القراءة؟ وكم نرى مدرسةً في كل بر الشام اقيمت لاجل تعليمهنَّ؟ أوَليس من يُنكر احتقارهنَّ، وجهلهنَّ في الدين والدنيا، كمن يحاول انكار وجود الشمس في رائعة النهار؟ اما يستنكف الرجال من ذكرهنَّ، واذا أُلجئوا الى ذلك يعقبونه: «بأجلّك!» و«تكرم عن هـذا الذكر!» وهلمَّ جرًّا، كأنهم يذكرون بهيمة او شيئًا قذرًا دنيئًا؟ وهـل يحفظ مقامهنَّ او تُراعى لهنَّ حرمة؟ أوَما يُستعملنَ مرارًا كثيرة للمقاصد نفسها التي يُستعملنَ لها بين البرابرة؟ والى ايّ امر يلتفتنَ في الاكثر؟ أليس الى الزينة واللبس، والتفنُّن باصناف النقوش؟ أوَما نسمع الصراخ ضدّ ذلك يعلو المنابر؟ وماذا يعرفن من تربية الاولاد، وترتيب البيوت، ونظافتها، وخدمة المرضى؟ وكم هي الخرافات المنكرة التي يعتقدن بها مع انها محرَّمة بنصّ الديانة؟ وما لي وللنوادر فانها لا تُعتبر!

هذا واني لم اذكر عنهنَّ شيئًا يجهله غيري. اما امتلأت الكتب، والكازتّات، ومكاتيب اصحاب الاسفار، من شرح حالهنَّ؟ أوَليس كل من كان له ادنى اطلاع على احوال العيال والاهالي يعرف ذلك احسن مما اعرفه انا، ومرارًا كثيرة يئن من ثقله ويطلب اصلاحه؟ ولعلّ هذه الاشارات كافية في هذا الباب؛ وعلى الخبير اللبيب بسط النظر الى ما لم نذكره، اعتمادًا على شهرته، وحذرًا من الملل.

وقصدي فيه انما هو انهاض همّة النساء الى العلم، لكي يكنَّ اهلًا لكرامة اكثر. وان استعطف الرجال، لكي ينظروا الى اصلاح حالهنَّ وانتشالهنَّ من اعماق الانحطاط.

وجوب تعليم النساء

حق المرأة في التعلم لكي تقوم بواجباتها

اما وجوب تعليم النساء فيتضح مما يأتي:

لا يخفى ان الانسان، ذكراً كان او انثى، عند دخوله عالَمنا هذا بالولادة، يكون موكولًا بجملته الى عناية غيره وتدبيره. فهو لا يدرك ما حوله من الموضوعات ولا يستطيع الجدّ في طلب قوته وباقي احتياجاته. ولا يقدر على تمييز النافع من المضر، او الخير من الشر، حتى انه اذا تُرِك لنفسه هلك لا محالة، ولو كان قد بلغ السنة الرابعة من عمره. وذلك بخلاف ما نراه من طائفة البهائم وسائر الحيوانات كما لا يخفى. وعند ذلك تكون اعضاء الانسان ضعيفةً، وقُوى عقله مظلمةً، ومعرفته قاصرة محصورة في دائرة ضيقة جدًّا. ولكن بواسطة ما يُعرَض على حواسّه ظاهراً وباطناً من المواد الطبيعية، والقضايا العقلية العارية عن المادة، يأخذ في التقدم شيئاً فشيئاً في ادراك ما حوله، وتقليده والحكم عليه. وتتوسع قواه العقلية والادبية، ومبانيه البدنية بالتدريج، الى ان يدرك الحدَّ الذي اقامه له باريء الطبيعة، وحكم عليه بعدم تخطّيه ومجاوزته. وهكذا الانسان يتعلم بالاختبار ان النار مثلًا تحرق، والسم يهلك، ويميّز الحلال من الحرام، وما يوافق الآداب مما يغايرها الى غير ذلك. ولا يزال يتقدم في توسيع دائرة عقله وجسمه، وتهذيب اخلاقه، واصلاح سيرته وسريرته، او غير ذلك، الى ان يقال فيه انه قد صار اكليلًا على رأس الخليقة. هذا وانه يوجد في هذا المعنى تفاوت عظيم بين رجل وآخر، وامرأة واخرى

حقوق المرأة

النساء هنّ النساء بيد ان لهنّ حقوقاً

ان تركيب جسم المرأة، داخلاً وخارجاً، وضعف بنيتها، واللطافـة في مجموع اعضائها، ترينا انها غير قادرة، طبعاً، على مباشرة كثير من الصنائع او الاعمال الشاقة، كرفـع الاثقال مثلاً، وحراثة الارض، وعمل الحديد، وبناء البيوت، ونقل ادوات الحرب على الاعداء، الى غير ذلك مما يستدعي بناءً متيناً، ويليق بالرجل دون المرأة. ولكن وضع اعضائها على نظام مخصوص، واقتدارها طبعاً على اعمال كثيرة تناسب تلك الاعضاء، ووجود بعض فنون اكثر لياقة بها من الرجل، تحملنا عـلى الحكم بأنها لم تخلق لكي تكون في العالم بمنزلة صنم يُعبد، او اداة زينة تُحفظ في البيت لاجل الفرجة . ولا لان تصرف اوقاتها بالبطالة وكثرة الكلام والهذيان، او تقتصر من الاعمال على كناسة البيت مثلاً، والقيام بمهمات الدخان والقهوة، وايلاد البنين، وما اشبهها . او ان تمتزج طبيعتها بطبيعة الرجل، واعمالها بأعماله، حتى لا يبقى ما يميز بينهما الا مجرد البنية والهيئة. اذ لا توجد حالة تجعل لمجموع جهاز المرأة تلك القوة التي للرجـل، ولو مهما أُلقي عليها من الاعمال الشاقّة المختصة به كما نرى فيما بين البرابرة . حتى ان حذّاق المشرّحين يميزون بسهولة وسرعة اعضاءها من اعضائـه، ولو مرّ عليها في هذه الحالة آلاف من الاجيال المتوالية . وكذا اذا نظرنا الى ما اسبغهُ الله عليها من القوى العقلية والادبية، كالتمييز، والذاكرة ، وقابليـة التعلُّم والتعليم، والميل الى الخير والشر، وهلمّ جرّاً، نستدلُّ على ان هذه القوى لم تُعطَ لها عبثاً من دون غاية، وبالتالي انه يجب ان يكون لها حقُّ التصرف بها، وتهذيبها، وتوسيعها بحسب الاقتضاء . ولا يصدّق ان الباري، عزّ وجلّ، قد زيّن المرأة بهذه الصفات ولكن حرّم عليها استعمالها؟ او ان التمييز بين المرأة والبهيم انما يقوم بمجرّد وجود هذه القُوى فيها مع فقدها منه .

ولا يخفى ان للمرأة اختصاصات ليس للرجل حظٌّ فيها، وبالعكس . غير انهما قد يشتركان في حقوق متساوية بينهما، ومن جملتها ما نحن في شأنه . وهل توجد شريعة تمنع الرجل من تحصيل ما لا بدّ له منه لاجل مباشرة ما اشترك فيه من الاعمال مع المرأة، او انفرد به عنها، واتقانه جيداً ؟ فلا يجب اذن ان توجد شريعة او عادة او عائق آخر يمنع المرأة من التمتع بحقها من هـذا القبيل . ولا التفات الى من توّهم ان المرأة انما خُلقت لكي تكون موضوعاً للنسيب والغزَل، ولاجل قيام الكون وبقائه . ولا ريب ان من نزّل المرأة في هذه المنزلة لا يحتاج الا الى جمال قدّها، ومعانيها، وكونها مثمرةً لا عاقراً وما اشبه . واما ما وراء ذلك فلا سؤال عن وجوده لانه عنده كالعدم . وهو ظاهر ان هـذا عند زوال المبدإ الذي يحمله على طلب ذلك فيها ينبذها عنه كارهاً . ولا يعود عند المسكينة شيء من مطلوباته، او مما يحمله على محبتها او مصادقتها . وعلى مقتضى زعمه، يجب ان تلك الجوهرة الكريمة في المرأة التي يلتفت اليها العاقل عندما يستفيق من خمره، وينتبه من سكرته، تدفَن باقذار الجهل والتوحش . ومع انها قد فاقت ما للرجل في مباحث عديدة، يجب، عنده، ان تستتر باعمال وخصال تحطّ شأن هـذا الجنس كل الحط، وتلحقه بما لا عقل له من الحيوانات . فضلًا عن اضرار ذلك بالكون على انحاء مختلفة كما سنبيّنه ان شاء الله تعالى .

ولماذا لا نقول عن الرجل انه، في هذا المعنى بالنظر الى المرأة، كالمرأة بالنظر اليه . واذا وُجد بينهما فرق فيكون قليلًا لا يُلتفت اليه . ولو أُهمل الرجل من كل عناية ومُنع عنه كل وسائط المعرفة والتمدن كما يكون الحال غالباً مع المرأة، أفما كنا نراه قد تقهقر الى درجة النساء، اذا لم يتجاوزها انحطاطاً ؟

ثم لو سلّمنا ان للرجل وحده حقًّا في التعلُّم والتمدن والتمتع بخيرات هذه الحياة والحياة المقبلة، أفما يلزمنا التسليم بوجوب تعليم النساء لكي يتيسر له الحصول بسهولة على هذه الحقوق؟ اذ من المعلوم الذي لا يشوبه ريب أنه لا يمكن وجود العلم في عامة الرجال دون وجوده في عامة النساء، كما انه لا يوجد نساء عالمات

في عالَم من الرجال جاهل . وذلك لوجود العلاقة الرابطة بين الطرفين، وتأثر احدهما بالآخر . وما خرج عن ذلك فنادر لا يُبنى عليه حكم

فوائد تعليم النساء

اما فوائد تعليم المرأة فكثيرة . فمنها ما يرجع الى المرأة نفسها . ومنها ما يعود الى زوجها . ومنها ما يرجع الى اولادها . ومنها ما يشمل العالم اجمع . وقد سبقت الاشارة بالاجمال الى كثيرٍ من ذلك . فلنتقدم الآن الى الكلام عنه بالافراد والتفصيل على وجه الاختصار :

فوائد المرأة نفسها

فمن فوائد التعليم للمرأة نفسها انه يوسع قواها العقلية ويهذبها . ويوقظ ضميرها وينبههُ ويحييه . ويقوّم ارادتها، وعواطفها الادبية، ويرتب سلوكها وتصرفها . فيزيد رقّةَ قلبها رقّةً ، وحنوّها حنوًّا، ولينها ليناً ، وهلمَّ جرًّا من هذا القبيل . ويسهّل طرق واجباتها وييسر اعمالها وآمالها . ويأخذ بيدها في مدافعة الاهواء المنحرفة المغروسة فيها، طبعاً . ويؤازرها على كبح الجماح الغريزيّ ، وقمع الخصال والملكات الردية . ويقيها من الوقوع في ورطات الجهل والحماقة . ويلطّف اوجاعها، ويخفف آلامها . ويعطي راحةً لجسمها، وحرية لضميرها وعقلها ، واستقامة واصابة لافكارها وتصوراتها . ويعيّن لها واجبات واعمالًا تناسب بناءها وتليق بها . ويورثها خصالًا ومزايا تُلقي لها في قلب الجماعة اعتباراً وكرامةً ومحبةً وهيبةً ووقاراً . فلا تعود تُحسب مجرّد آلة منفعلة ، لا صوت لها ولا رأي ، بحيث تلتزم بالامتثال طوعاً او كرهاً لارادة سيّدها واوامره دون بحثٍ ولا سؤال بل تصير اهلًا لان تكون في العالم عضواً مهمًّا للجماعة يشاركها في الحاسيات والرأي والعمل . وبالتالي يجعلها تعيش بالراحة والغبطة والسعادة في هذه الحياة ، وربما في الحياة الآتية . وكل ذلك غير خافٍ على اصحاب البصيرة والنظر .

فوائد زوجها

اما فوائـد تعليم المرأة لزوجها فتتضح من النظر الى نسبتها اليه، وما تقتضيه تلك النسبة . ولا يخفى ان علائق الارتباط بينهما من اعظم ما يوجد في عالم نظير عالمنا . ويظهر عند التحقيق ان المقصود الاصلي من المرأة لزوجها ان تكمّل نقائص طبيعته، وتجعله اكمل مما كان لولاها . لانها في الغالب تقدر ان تميل بـهِ الى الجهة التي تروق لناظرها، فتجعله احسن واسعد، او اردأ واشقى مما هو، بحسب هواها . وهكذا القول في الرجل بالنظر اليها . وما دامت درجة المرأة او الزوجة لا تُحسَب ارفع من درجة الأَمَة او الجارية الا قليلًا، يكون تقدّم العيال، وبالتالي العالم، بطيئاً جداً . وذلك لانه، والحالة هذه، يكون ما يُعمَل في العائلة، التي هي سرير الطبيعة العظيم، قليلًا في الغاية، وتكون الآلة اقوى للحكم بشريعة المحبة واللطف باطلة عاطلة، والقوة الصامتة التي للمرأة في سياسة العالم ضعيفةً لا تأثير لها الا قليلًا. فيلزم حينئذٍ الالتجاء الى الحكم بقوة الخوف والتأديب التي هي قاصرة لا يتوصّل بها الى المراد على اكمل حال . والرجل انما يتخذ المرأة لكي تكون معينةً له في اعماله، وشريكةً في آرائه وافراحه واحزانه وفقره وغناه، ومربيةً لاولاده، ومهتمّة ببيته في غيابه وحضوره، واقرب صديق له، ترافقه في كل مكانٍ وزمانٍ وحالة، اذ تطّلع عـلى عيوبه ومحاسنه اكثر من كل انسان غيرها، دون استثناء الوالدين والاخوان . وهي تلتزم لهُ واجبات خصوصية من محبـةٍ وطاعةٍ وامانة، الى غير ذلك مما لا يسعني ذكره . وبما ان شرفها في شهرته، واكليلها في كرامته، وراحتها في نجاحه وصلاحه، يكون نصحه وتقويمـه وراحته من اكبر مرغوباتها وهمومها . وماذا ينتج من كل ذلك الا ان فوائد تعليمها، له ولما يتعلق به، جزيلة لا تقدَّر؟ وهل يتأتّى لهـا القيام بحق ذلك، او يليق بنا ان نطلب او نترجّى منها اعمالًا ومهمّات كهذه دون ان نعلّمها ؟ وكم تكون الخسارة اذ اعفيناها من كل ذلك لكي نتخلّص من كلفة تعليمها ؟ وكيف يمكنها، دون تعليم، ان تكون لرجلها زوجـة فيهمة، وصديقةً مشفقة، ومشيرةً حكيمة، وقرينةً امينة في تأدية واجباتها لهُ،

ومساعدةً له في اعماله، ومخفّفةً لآلامه، ومربيةً خبيرةً لاولاده، وحافظةً لترتيب بيتــه وتدبيره، وكاسرةً لعادية حميّته، وهلمّ جرًّا؟ والرجل الذي يسأل في المرأة عن حسن الاخلاق والفهم والمحاسن الادبية دون الصفات الخارجة المحضة، هل تروق له مساكنة زوجة خالية منها او مسامرتها؟ افما يكون البيت عنده كبريّة مقفرة، وتكون عيشته مكدّرة منغّصة، وبيته عادماً كل ترتيب ونظام ونظافة، واولاده متروكين لعناية التقادير والطبيعة؟ اما تفوته كل البركات والراحة والفوائد المقارنة لعائلةٍ امّها متمدنة تكللها باكاليل بشاشتها وهشاشتها، وتسود عليها بحكمتها وفطنتها؟

فوائد الاولاد

ثم ما اعظم الفوائد الحاصلة للاولاد من تعليم المرأة! لان المرأة تبذل ما لها من المعرفة، والآداب، والتمدّن، لاولادها . والولد يقبل المؤثّرات الاولى من امّه . لانها هي اوّلُ شيء يقــع تحت حواسّه وادراكاته . فمن النظر الى نور وجهها يكتسب ابكار افكاره . وعيناها، وصوتها، واستمالتها اليه، تنبّه الحركات الاولى في قلبه . واذ يكون كأرض بائرة لم يخطُّها محراث، ولا علّتها مِنجل، يقبل منها تلك الحركات مهما كانت، اي سواء كانت جيّدة او رديئة، جليلة او حقيرة، مستقيمة او معوجّة . ويراقب اعمالها وحركاتها بميل غريزي شديــد، ويتّجه نحوها بعواطف قويّة لكي يتقلّد اعمالها ويقتدي بمثالها . وهي حينئذٍ تطبع في قلبه الخالي اللطيف اللّين كل ما طاب لها ووافق ذوقها . وتتحرّك برباطات نفسه، وهي في قبضتها، الى الجهــة التي تقصدها وتروق لناظرها . ولا يخفى ان المؤثّرات الاولى تكون اقوى المؤثّرات واكثرها دواماً . لانها تدخل الى اعماق القلب بكل قوّة؛ وهناك تحيا وتنمو، وتكتسب بالتدريج قوّة تغلب جميع المؤثّرات الأخر، الطارئة عليه بعــد ذلك . وعندما تنهك الشيخوخة جسم الانسان، وتكاد تتلف اردية نفسه الخارجة، تبقى تلك التأثيرات في نفسه كبزرة ساطعــة في قشورها . والحاسيّات والافكار التي يقبلها الولد من امّه، وهو صغير، هي التي تكسبهُ في سلوكه الهيئة والصورة المخصوصة التي تكون لهُ في مدة حياته . وهي تبقى معه ولا تفارقه ما دام

حياً . ومتى رَمتهُ الشيخوخة بنبالها ، واضنت جسمه، وأَضعفتْ قُوى عقله، فانك تراه يقدر ان ينشد اشعاراً تعلّمها من امّهِ في نعومة اظفاره ، مع انه لا يقدر ان يذكر شيئاً من الحوادث الواقعة في امسه . وهو، كما قال احد المشاهير ، يتعلّم في مدة الاربع السنين الاولى من عمره اكثر مما يقدر ان يتعلّمه في سائر حياته . ولا يخفى انه يكون ، كلّ هذه المدة في مدرسة امّه يرافقها في كل مكان وزمان وحالة . وقلّما نراهُ مع ابيه، او تحت تدبيره وعنايته ، لان الاب يكون في الغالب مشغولاً في السوق او في الحقل . ولهذا اذا قصدنا اصلاح العالم او جماعة او عائلة ، فلكي يكون لنا املٌ بالنجاح، يجب ان نبتدئ اولًا باصلاح هذه المدرسة ، وان نُدخل فيها العلوم والمعارف، والآداب السليمة الشافية ؛ ونبذل الجهد في تثقيف الام التي هي معلّمةُ هذه المدرسة وكتبُها وقوانينُها وروحُها وحياتُها وكلّ ما لها . وحينئذٍ نرى الاولاد يرتضعون المعرفة والآداب مع الحليب ، ويستقون من ينابيع التمدّن الصافية مياه الخصال والعلوم والاخلاق الرائقة، بحيث تنتشر تلك المياه في اعضائهم اللّينة، وتؤثر فيها كطابعٍ تأثيراً لا يُمحى فيما بعد . وتراهم ، وهم في احضان امهاتهم او جلوس الى جانبهنّ، يدرسون المثالات الاولى الاساسية، ومبادئ العلوم والفنون . فيتمتّعون باثمارها الشهية في طفوليتهم، وبعد ذلك، الى نهاية حياتهم . وفي هذا المكان المظنون من كثيرين حقيراً لا طائل تحته ، يتصوّر جنين العالم ؛ وفيهِ يولد، ويترعرع . ومن هذا الابتداء نقدر ان نحكم : ماذا وكيف يكون العالم باسره . وعليه تتوقف سعادته وشقاؤه . لان المرأة هي التي تصوّر العالم كيفما شاءت، وتضعه في القالب الذي تريده . لانه ما من عائلة صغيرة او مملكة كبيرة، الّا وللمرأة التأثير الاعظم فيها . حتى اذا عمّ النساءَ الجهلُ في مكان او زمان ، نراه قد انتشر واستولى بملءْ قوته على جميع اهله . وما يجعل الناس برابرة او متمدّنين، اصحابَ ديانةٍ او كافرين ، اشراراً او صالحين ، علماء او جاهلين ، الى غير ذلك ، انما هو المرأة . وهي سيّدة الكون، وقالبه في طفوليته ، ومرآته وقدوته في صباه ، وحكمته وقائدته في شبابه ، وراحته وبلسمه في شيخوخته . وتراها عند ما يقع الولد على صدرها، او يجلس الى جانبها، تشغل اذنيه وسائر حواسّه بما لذّ لها، ووافق

ذوقها وعادتها . وتفيض عليه بسخاء ورغبـة إما ما راق وعذب من مياه تعليمها وآدابها، وإما سمًّا زعافاً من مجاري جهلها وحماقتها . وعلى ذلك يكون العالم، في معرفته وآدابه وروحه وطباعه واخلاقه وهلمَّ جرًّا، نظيرَ امّه . ويا ليت شاعرنا قال: «ومن يشابه امّه فما ظلم» . حتى قال احدهم: «اخبرني ما هو الانسان وانا اخبرك ماذا كانت امه!» . وهو مسلّم بالتجربة والاختبار انه، كما تقدّم، لا يمكن وجود علم في عامّة الرجال من دون وجوده في عامّة النساء، كما انه لا يمكن وجود نساء عالمات في عالم من الرجال جاهل . وما هي النتيجـة من ذلك جميعه الا ان فوائد تعليم المرأة لاولادها عظيمة لا تُقاس ولا تُقدَّر .

فوائد العالم

ولا يخفى ان كل ما سبق ذكره من فوائـد تعليم النساء لمن تقدّم يرجع الى العالم بالجملة . لان العالَم مؤلف من الافراد والعيال، ومن شأن المؤلَّف ان يكون بحسب اجزائه التي تألف منها . ولعلنا لا نحتاج الى التفصيل في ذلك، بعد كل ما تقدم في هذا المعنى .

النتيجة

رجل على الارض واخرى في السحاب

فالناتج مما تقدم انه، اذا حاولنا اصلاح قوم، يكون تعليم النساء هو الدرجة الاولى من السلّم، والباب الذي يجب ان يُفتح اولًا، مبتدئين في ذلك من صغرهن . واما الذين يتركون النساء وراءهم ويأخذون في تعليم الصبيان او الشبان، فهم كمن يضع رجلًا على الارض واخرى في السحاب . وتراهم في الغالب يقصِّرون في مطلوبهم، وبالكدّ يكون جهدهم كافياً لاصلاح ما تفسده النساء . لانهم كلما بنوا صومعة تراهن يهدمنَ برجاً، وكلما رفعوهم درجة تراهنَّ يحططنهم درجات . فان ما يبنيه الرجل في مائة عام قد تهدمه المرأة في سنة واحدة . وكل ذلك قد ثبت بالتجربة

والاختبار، وعلى من شكٍّ تحقيق النظر وجودة الاعتبار . ولعلَّ ما قلته كافٍ للدخول في موضوع كهذا لم تجرِ فيه اقلام اسلافي من اهالي البلاد . وخلاصته : وجوب تعليم النساء بناء على ان التي تهز السرير بيمينها هي التي تحرك المسكونة بذراعها .

التفاخر بعلوم الجدود

اننا كثيراً ما نسمع ابناء العرب يتباهون متفاخرين بكون اجدادهم الاقدمين هم الذين انعموا على العالم بالعلوم والفنون، مع ان الاكثرين منهم لم يتيسر لهم الوقوف على الحقيقة . ونحن شديدو الاعتقاد بصحة قول بعض الافاضل :

لا تقل اصلي وفصلي ابدًا انما اصل الفتى ما قد حصل

وبان وصول اجدادنا الى اعلى طبقة من العلوم لا يجعلنا علماء، ولا يوجب لنا حق الافتخار، اذا لم نكن نحن انفسنا كذلك .

اصلاح علوم اللغة

هذا، وانَّ حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلًا ليست باقل احتياجاً من اللغة نفسها الى الاصلاح من هذا القبيل . فانها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلباً لنوال ما يترتَّب عليها من امر المعيشة . وذلك لان كامل حياتهم بالكدّ يكفي لتحصيلها على حقها . وهذا من جملة الاسباب التي تجعل اهلها يهملونها بالكلية، او يتخذون لغة او لغات اجنبية ضرائر لها . وهل يليق بالانسان الذي انما جُعِلت لهُ اللغة واسطةً وباباً للعلوم ان يجعلها غايةً، ويصرف حياته كلها، واقفاً امام ذلك الباب يتفرّج على نقشه وزخرفه الخارجي، مع ايقانه بأن وراءه تحفاً قديمة وحديثة تسلب القلب وتخلب الالباب . وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل بان منهج الاقدمين في وضع قواعد هذه اللغة ونظامها، وادخالهم بين تلك القواعد ابواباً من كل العلوم والفنون، وتعليلاتهم المستطيلة التي

يحسبها البعض منزلةً مع انها ليست الا مناسبات حصلت بعد الوقوع، تلهي ابناء هذا الزمان عن الالتفات الى الامور الحقيقية، وتشغل وقتهم عن الوصول الى الفنون المفيدة . ولا شك ان ذلك هو من جملة الاسباب التي اوجبت فقد العلوم من بين العرب . ومما لا ريب فيه انه يجب وضع قاموس اللغة العربية والعلوم المختصة بها بالذات، في قالب يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لاهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغريبة في المدة المذكورة يشهد بأنه يجب ألّا يصرفوا اكثر منها في تعلم اصول لغة قد رضعوها مع اللبن . ولكن اذا وُجد قوم من اصحاب الغنى والخطر يلذ لهم الفحص عن الامور القديمة والتفتيش عن المواد السالفة، ويقصدون ذلك بالذات، فلنترك لهم الحرية التامة في هذا الامر ونكلفهم المحافظة على اللغة القديمة ؛ ولندع تكأكؤ الاعرابي واساجيع الحريري، وفيروزابادیات الفيروزابادي موضوعات لتأملاتهم الدائمة، ودرسهم الابدي . والظاهر ان هذا الاصلاح محفوظ للاجيال المستقبلة .

وهو مستغنٍ عن البيان ان اللغة من شأنها ان تنمو بنموّ معارف اهلها، وفنونهم، وصنائعهم، ومتاجرهم، واختراعاتهم، ومن ثمّ كان وضع حدّ للالفاظ والمعاني في لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه . لانه اذا وضع حدّ معلوم لالفاظ لغة ما، كما هو الحال في اللغة العربية التي قد دخل فيها ما دخل منذ اجيال كثيرة ولم يبقَ باب لدخول غيره، يلتزم اصحاب تلك اللغة عند امتداد المعارف والصنائع عندهم، لاجل التمكن من استخدام الفاظ للتعبير عما هو في انفسهم وقضاء مصالحهم، ان يلتجئوا الى لغة اجنبية، او يخترعوا كلمات جديدة حوشية .

اللغة الدارجة او العامية

وهكذا تولدت، عند العرب، لغة دارجة بينهم تختلف كثيراً عن لغة الكتب . وهذه اللغة الدارجة تراها تتهدّد دائماً اللغة الاصلية . واذا طال الحال عليها هكذا تميت كثيراً من الفاظها فوق ما اماتته، فيلتزم العرب في آخر الامر ان يفعلوا باللغة

العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية، ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية . فتصير اللغة الاصلية لغـة العلماء واصحاب التفتيش فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج . ولا يمكن ان يُتصور حصول خسارة للعرب اعظم من هذه . ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع في هذه الايام، واملنا بالزيادة على زيادتها في ما يأتي يجعلان لنا شيئاً من الطمأنينة من هذا القبيل .

انحطاط الآداب

فاين كان العرب ؟ واين هم الآن ؟ قـد مضى جيل آدابهم الذهبي، وخيَّم عليهم جيلها المظلم . وكان ابتداء جيلها المظلم اواخر القرن الرابع عشر، وما زال ينمو ويتزايد حتى عمَّ البلاد والعباد . اين الشعراء ؟ اين الاطباء ؟ اين الخطباء ؟ اين المدارس ؟ اين المكاتب ؟ اين الفلاسفة ؟ اين المهندسون ؟ اين المؤرخون ؟ اين الفلكيون ؟ اين كتب هذه الفنون ؟ . . .

موقف العرب من علوم الفرنجة

وهكذا ترى العلوم والفنون الافرنجية المبنية على مبادئ حقيقية قادمـة الينا من كل فجٍّ عميق . وما مكث فيـه الافرنج السنين العديدة، والمدد المديدة، يمكن العرب ان يكتسبوه في اقرب زمان مع غاية الاتقان والإحكام . فالعلوم اذاً قـد اكملت دورتها بوصولها الى العرب عن طريق الاسكندرية، واسلامبول، والهند، وبيروت وكما ان الافرنج لم يستخفُّوا بآداب العرب، في ايام جهلهم، لاجل مجرد كونها منسوبة الى العرب، كذلك لا يليق بالعرب ان يستخفُّوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونها افرنجيـة . بل يليق بنا ان نترحب بالعلوم دون نظر الى من يعطينا اياها، سواء كانت آتية من الصين او الهنـد او العجم او اوربا . وادّعاء البعض بأن العرب عندهم كل شيء يحتاج اليه من العلوم والفنون، لا يوجد برهان اقوى منهُ على عمق جهلهم . وكما ان العرب لا يأنفون ان يكتسبوا الصنائع من

الافرنج، ويأخذون عنهم العادات من الحسنة والمستهجنة، لا ينبغي ان يستنكفوا من ان يكتسبوا منهم العلوم التي هي واحدة عند الجميع . . .

اهذه هي بضاعتكم ؟

ان الآداب عند العرب، في هذه الايام، هي في حالة انحطاط كلي : اما العلوم اللغوية فاننا قلّما نجد احداً من ابناء العرب يمكن ان يشار اليهِ بالبنـان بانه يعرف لغته وقواعدها حق المعرفة . فانهم، في الاكثر، يكتفون من علم اللغة بحفظ بعض كلمات غريبة ميتة يدرجونها في كتاباتهم واشعارهم بقصد اظهار معرفتهم، والتمويه على الجمهور وما تلك الا حصًى صغيرة يتلاعب بها الجيل في ايام طفوليته .

واما المعاني والبيان، وما يتعلّق بهما، فمتروك حلّ مسائلها، وفهم مؤلفاتها النفيسة الى همة ونشاط اجيال مستقبلة .

واما علم المنطق فيكفيه اعتباراً وحفظاً عند اكثرهم قولهم فيه : « من تمنطق فقد تزندق » .

واما العلوم التعليمية كالحساب والهندسة وكل متعلقاتهما، فهذه يكتفون منها بالجمع والطرح، ومن زاد عليها الضرب والقسمة وحفظ بعض مسائل بأجوبتها مما أوجده لهم الاقدمون، يذيع اسمـه في الآفاق انه من فحول العلماء . ويستغنون بالمقوّمين عن المسّاحين، وبالبنّائين عن المهندسين .

واما علم الفلك فلا يوجد له من محامٍ ولا حافظ، كأنه علم لا فائدة منه للعرب، لأنهم يعلمون ان الشمس تغطس في البحر، وان الكواكب فوق رؤوسهم دون افتقار الى درس ولا عناء .

واما علم الطب فهو صناعة قد فُتحت ابوابها عفواً لمن اراد ان يدّعيها لنفسه، وان كان لا يعرف القراءة بشرط ان يكون في حوزته ريشة ماضية لتقطيع اوصال

العباد . وهي الصناعة الوحيدة التي يمكن الانسان ان يتعاطاها دون ان يتعلمها من استاذ . وأُلحِق بالطب علم الكيميا فانه قد تقهقر عند العرب الى حالتهِ التي كانت لهُ قبل ان مدُّوا اليه ايديهم .

واما صناعة الانشاء فهي منحصرة في نقل بعض كتابات قد ورثناها من المرحومين . واما الخطب فهذه ميدان الديني منها المنابر، وميدان الدنيوي القهاوي ولا يدخل في هذا الميدان الا من كان خشن الصوت، حسن الذاكرة يحفظ بعض حكايات من قصص السندباد البحري وبني هلال وما اشبه ذلك من الحكايات الموجودة في كتاب الف ليلة وليلة وغيره، ويحكيها على من حضر في القهاوي تكملة للكيف على حقه، ولكي تكون دليلًا على اصل متروك .

واما علم النبات فهذا متروك لرعاة المواشي والفلاحين . واما علم الزراعة، الذي وصل الى اعلى طبقاته عند اجدادنا، فهو الآن متروك لرحمة النقل والتقليد .

واما علم التاريخ فهذا مفقود ليس من يعتني به . واما علم الجغرافيا فيكتفي الواحد منهم بمعرفة اسم بلدته وطريق بيته، ويخشى ان يصيبه دوار، اذا تعلم ان الشمس ثابتة والارض تدور .

واما الشعر الذي من شأنه ان يتقدَّم جنازة الآداب، او يبشر بولادتها، فبابه مفتوح عفواً لمن اراد الدخول؛ وكل من حافظ على القوافي وألبس معاني الاقدمين اخلاق ثياب فهو شاعر؛ ولكن اذا ابدع بأن يأتي بكلمات غير مفهومة، واظهر مهارة وبراعة في التضمين والاقتباس، حتى لا اقول في السرقة من الاقدمين، فهو خنذيذ .

وهكذا القول في باقي العلوم . وما دام العرب يكتفون بالتقليد والنقل ولا يريدون ان يتعبوا انفسهم بالفحص والتحقيق لا يؤمَّل تقدمهم في العلوم والفنون.

الشيخ ابراهيم اليازجي

(١٨٤٧ – ١٩٠٦)

هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٧١) ولد في بيروت، واخذ العلم عن ابيه صغيراً فورث عنه الشغف بالاداب والعلوم .

كان لم يبلغ اشدّه بعد، عندما رأى نفسه مضطراً الى خوض نقاش في اللغة حمله عليه احمد فارس الشدياق (الجنان : ١٨٧١) الذي كان قد تناول بعض مؤلّفات الشيخ ناصيف اليازجي بالنقد والتجريح . فيسّر له الشهرة على صغر سنه مماً حدا الآباء اليسوعيين ان ينيطوا به تهذيب عبارة التوراة والاناجيل ؛ فعمل بهذه المهمّة تسع سنوات طلع لنا منها سفر من اجل اسفار العربيّة في هذه الديار .

مال الى التعليم؛ ثمّ انصرف الى الصحافة فآثر العلمية منها، واصدر مجلّة الطبيب (١٨٨٤) .

وفي السنة ١٨٩٣، اذ كانت الصحافة قد تحوّلت الى مصر لتوفّر حرّية القلم فيها ارتحل اليها في جملة اللبنانين المهاجرين؛ وهناك اصدر مجلّة « البيان » (١٨٩٧) التي احتجبت بعد سنة بعد ان حمّلها سلسلة من ابحاثه عن « اللغة والعصر » طيرت له شهرة في اللغة . ثمّ انشأ الضياء (١٨٩٨) ليحمل وقرها الى آخر حياته .

في السنة ١٩١٣ نقل رفاته الى بيروت . وفي السنة ١٩٢٤ ازيح الستار عن التمثال الذي اقيم له فيها قرب قصر العدل .

لم نكن للشيخ ابراهيم، في ما عدا ما نشر له في الجرائد والمجلّات، مؤلّفات تساند تلك الشهرة الواسعة التي رافقته منذ شبابه الاول . على انه عني بالعلوم فبرع في الرياضيّات وعلم الفلك والعلوم الطبيعية .

كان حاذقاً في صناعتي الحفر والتصوير اليدوي . « له خط جميل وقاعدة للحروف المطبعيّة حفرها بيده، شاعت في مصر، وبيروت، واميركة وهي المعروفة اليوم بالحرف اليسوعي » وهو محدث اول رزنامة في الشرق .

وله شعر جيد وإن جاء دون نثره جزالةً وبلاغة ورفعة .

بيد ان اكثر ما عمل على بناء تلك الشهرة النادرة اضطلاعه بشؤون اللغة واحوالها، واحاطته بخصائصها ودقائق مفرداتها وذلك الحسن الفائق في اختيار الكلم وفي تركيبه بحيث توفر له من كل ذلك اسلوب هو صنع نفسه لا يجاريه فيه واحد من المتقدّمين واللاحقين .

الشعر

تقدم لنا في الجزء الاول من هذه السنة كلامٌ في حد الشعر وبيان الخصائص التي يمتاز بها عن النثر على قدر ما أدّى اليه البحث واعانت عليه البصيرة، وتقريراً لما ذكرناه هنـاك نقول ان النثر هو القالب الطبيعي للكلام الموضوع للابانة عن المعاني التي تتمثل في النفس، يتخاطب به العالم والجاهل والذكي والبليد والكاتب والأمّي فوجب ان يكون بحيث تتفاهمه هذه الطبقات كلها ويُعبَّر به عن المقاصد بأبين الصور واوضحها وذلك يقضي ولا جرم ان يستعمل لكل معنًى اللفظ الموضوع له بحيث ينتقل من اللفظ الى المعنى من غير واسطة . وبخلافه الشعر فانه من الكلام الذي يُقصد به الى ما وراء مدلول اللفظ من مناغاة النفس ومناجاة الوجدان فتورَّى فيه المقاصد تحت الصور الخيالية وتبرز المعاني تحت ثوب من المجاز أو الكناية ونحوهما ولذلك اختص بمخاطبات البلغاء وطبقات الكتاب والمتأدبين ونُحي فيه من التفنن بالانواع البديعية ممـا يجمع بعض اطراف المعنى الى بعض بما يربطها من تناسب او تضاد او غير ذلك بحيث تتألف منه صورٌ كاملة على حد ما يفعل المصوّر في تصوير الاشباح والمغنّي في تأليف النغم . والمقصود من كل ذلك الاستيلاء على قوى النفس والباس المعاني المتأدية اليها من طريق الحسّ او العقل ثوباً من الخياليَّات بعد تلوينه باللون الذي يريده الشاعر تبعاً لغرضه .

والاغراض الشعرية ترجع في الغالب الى مقصدين احدهما تجسيم المعاني والمبالغة في اظهارها وتمثيلها مما تكون به اشد انطباعاً في النفس واثبت اثراً في المدارك على ما تقدمت الاشارة اليه . والثاني التأثير في النفس بحدث من الاحداث كالسرور والانقباض والاستئناس والاستيحاش والحب والبغض والخوف والرجاء وغير ذلك : ومن هذا الثاني اخذ المناطقة ما يسمونه بالقياس الشعري وهو عندهم كل ما اثر

في النفس بسطاً او قبضاً وذلك كما اذا وصفت الخمر فقلت هي ياقوتة سيّالة فان النفس تنبسط اليها وتجد لها ارتياحاً وسروراً وكما اذا وصفت العسل فقلت هو مرّة مهوّعة فان النفس تنقبض عنه وتجد منه اشمئزازاً ونفوراً : وبيّن ان هذا الذي ذكرناه من تأثير الشعر غير خاص بالكلام المنظوم ولكن كل ما تضمن شيئاً من الاغراض المذكورة واثر في النفس تأثيرها عدّ شعراً . وقد قدمنا ان غالب شعر الاقدمين لم يكن على وزن ولا قافية وانما كان الشعر عندهم يمتاز عن النثر بشرف معانيه وجزالة الفاظه ونوع اسلوبه . على ان عندنا من الصيغ النثرية ما يجزئ عن الشعر وهو هذا السجع المفصل بما يشبه قوافي الشعر فان رنة الفاصلة يكون لها نفس تأثير القافية فلا يبقى ثمة فرق الا بالوزن ولذلك ترى لغة السجع على الغالب تشبه لغة الشعر من حيث التأنق في الالفاظ والتراكيب والاغراب في المعاني وتوخي الصور المجازية وغيرها مما تقدم ذكره . على ان السجع لا يعدم شبهاً من الوزن ونعني به مراعاة طول القرائن بحيث تكون كل قرينتين متساويتين او قريبتين من التساوي فان ذلك من المستحسنات في السجع بل قد يعاب عكسه اذا كان التفاوت بين الفقرتين كثيراً . وهناك نوع آخر من السجع بني على التوقيع وقسم الى اجزاء عروضية قصيرة وان لم يكن له وزن مخصوص فكان له من الشبه بالموسيقى ما يقرب من شبه الشعر .

لغة الجرائد

ويقولون فلانٌ حميد النوايا يريدون النيات جمع نية وانما النوايا جمع نويّة مثل الطوايا جمع طويّة ولم ترد النويّة في شيء من كلامهم بهذا المعنى .

ويقولون انفرط العقد اي انتثر وتبدّد وهو من اوضاع العامّة صيغةً ومعنى ومن الغريب ان هذا اللفظ ورد في كلام ابن حجة الحموي في خزانة الادب وهو

قوله في الكلام على نوع الانسجام : « وقد ألجأتني ضرورة الجنسية الى ضم المتقدمين مع المتأخرين لئلا ينفرط لعقودها نظام » . ومثله بعد صفحات « وقدّمت عصر المتأخر لئلّا ينفرط سلكه » . فجعل هنا الانفراط للسلك وهو اغرب لان المتعارف في معنى هذه اللفظة عند العامة الانتثار وقد فرط الشيء فانفرط يقولون فرطت حب الرمّانة وانفرط عنقود العنب ونحو ذلك ولا يقولون انفرط الخيط او الحبل .

مَصير الارض

تتقلّب احوال الكائنات بين عاملي الكون والفساد ويتعاقب التركيب والتحليل على كل موجود من الحي والجماد سنة الله في المخلوقات من ارق السّدم الى رمة الحيوان ومن ذرّات الأثير الى دقائق الصوّان اطوارٌ تتوالى بين عقد وانحلال ووجود واضمحلال وإنما تضمحلّ الصور وتتلاشى الاشكال والمادة باقيةٌ لا تذهب منها ذرّةٌ ولا يعرض لها التلاشي في حال .

واعتبر ذلك في الارض وما يؤلّف أديمها من الجواهر ويشتمل عليه جوّها من العناصر وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء والحيوان السارح على وجه العراء، والسابح في لجّتي الماء والهواء، تجد هناك سلسلة يتصل اعلاها بأسفلها ويتحول بعضها الى بعض حتى يرتدّ اخرها على اولها بل ترى الارض نفسها عُرضة للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف والامواج التي تهاجم ثغورها والزلازل التي تُصدّع صخورها متعاقبةً عليها ما تعاقب الليل والنهار الى ان يأتي يومٌ تنحل فيه الجبال وترسب في درك البحار ثم لا تزال المياه تسحل وجه الارض حتى لا يبقى فيه أمتٌ ولا انحناء . وحتى يغمرها الماء من كل ناحية وقد عاد سطحها مستوياً تحت الماء كاستواء سطح الماء فعادت كما كانت في اوائل خلقها ماءٌ غامر وكون بائر قد خلا من عالمي البرّ والهواء ولم يبق فيه من ذوات الحياة الا عالم الماء .

هذا اذا لم تصب الارض قبل ذلك بالهرم، وينضب ماؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرم ولم تتشرب هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نباتٌ ولا حيوان ولا يجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران، على حدّ ما تم من مثل ذلك في القمر حتى لم يبق فيه وشلٌ لمرتاد وحتى تجرّد من ثوب هوائه او كاد وحتى اصبح قفراً هامداً لا ينبت عليه شجر ولا يتنفّس فيه دابّة ولا بشر، بل لو بقي هواء الارض وهو خالٍ من بخار الماء لجمَّد البرد سطحها تجميداً وانقبض الاحياء من وجهه الى حيث يقع شعاع الشمس عموداً ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقاً على توالي الحقب الى ان تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسَّغَب فتدفنها الثلوج حيث لا تنكشف رممها الى يوم التلاقي وتخطّ يد القضاء على اديم الارض سبحان الحي الباقي .

وهذا اذا لم يصدم الارض جرمٌ من الاجرام السابحة في الفضاء فيتطاير ما عليها من الأبنية والخلائق وتثب ميـاه البحر في الهواء او تلتهب بجملتها فتعود سديماً منتشراً في جوز السماء او يلاقِيها احـد المذنّبات فيمطرها من النيازك ما يدمّر ممالكها الغنَّاء او يبعث عليها من ابخرته ما يصير به هواؤها سمّاً قاتلًا للاحياء . او يحدث فيها زلزالٌ هائـلٌ يقلب برها بحراً ويردّ عمرانها قفراً ويدفن احياءها تحت انقاض البلدان أو في لجج البحار ويفجّر من باطنها ما يغرق سطحها في بحر من نار؛ حوادث كلها جائز الوقوع وان جاز ان لا يقع شيء منها عـلى الاطلاق والله واقي عباده سبحانه لا يقع امرٌ الا باذنه واليه المساق .

وهذا اذا لم تهرَم الشمس فتنقلب نارها برداً ولكنه برد بغـير سلام فتهيم السيارات والاقمار من حولها في فضاء من الزمهرير والظلام ويومئذٍ لا يبزغ الصباح فيذهّب آفاق المشرق ولا يقبل المساء فيخيم على ارجائه بجيشه المطبق ولا يكون اذ ذاك كسوف ولا خسوف ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالامس وقد التف بكفن من الثلج فآوته منها الى مثل ظلمة الرمس ويومئذ تتجمد البحار فلا يكون ثمة موج يتنفس ولا سحاب يتبجس

ولا سيل يتدفق ولا جدول يترقرق، وتركد حركة الهواء فلا تهب شمال ولا صبا . ولا تجري نسمة على الوهاد والربى ؛ واني والشمس مصدر الحركة في العوالم وقوام الحياة لكل قائم فاذا هبت الريح فالشمس هي التي تهب واذا دبت النعم فالشمس هي التي تدب واذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر، الا والشمس هي التي تجري في الانهار وهي التي تغرّد في الاطيار وهي التي تزهر في الرياض وهي التي يسمع حفيفها في الغياض ؛ وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها واذا ماتت الافئدة فمحال ان تعيش اجسادها .

لا جرم ان الشمس ليست باول جذوة من نيران السماء ادركها الخمود والانطفاء، فكم من نجم نص المتقدمون على مكانه وموضعه اليوم خال، بل منها ما دلت الدلائل على وجوده وهو غير مرئيّ في حال وانما الشمس من هذه النجوم فلا بد ان يدركها ما ادرك سواها اذا لم يفاجئها مفاجئ من مثل ما ذكرنا في الارض يعجل منتهاها، فانه لا دوام في الخلق ولكن كل ما له اول له آخر ولو بعد حين وانما البقاء لله تقدست اسماؤه وهو وارث العالمين .

اللغة والعصر

لم يبق في ارباب الاقلام ومنتحلي صناعة الانشاء من هذه الأُمة مَن لم يشعر بما صارت اليه اللغة لعهدنا الحاضر من التقصير بخدمة اهلها، والعقم بحاجات ذويها، حتى لقد ضاقت معجماتها بمطالب الكتّاب والمعرّبين وأصبحت الكتابة في كثير من الاغراض ضرباً من شاقّ التكليف وباباً من ابواب العنت . واللغة لا تزداد إلا ضيقاً باتساع مذاهب الحضارة وتشعُّب طرق التفنن في المخترعات والمستحدثات الى ان كادت تنبذ في زوايا الاهمال وتُلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومسَّت الضرورة الى تدارك ما طرأ عليها من الثلم قبل تمام العفاء وقبل ان ينادي عليها مُؤذن العصر : سبحان من تفرَّد بالبقاء ويختم على معجماتها بقصائد التأبين والرثاء .

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنها اغزر الالسنة مادّةً، واوسعها تعبيراً، وابعدها للاغراض متناوَلاً، وأطوعها للمعاني تصويراً قد أفضت اليوم الى حال لو رام الكاتب فيها ان يصف حُجرة منامه لم يكد يجد فيها ما يكفيه هذه المؤونة اليسيرة فضلًا عمّا وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ومنازل المترفين والاغنياء وشوارع المدن الغنّاء. وما ثمّ من آنية وأثاث وملبوس وفراش وغير ذلك من اصناف الماعون وادوات الزينة مما لا يجد لشيء منه اسماً في هذه اللغة ولا يكون حظّ العربي من وصفه الا العيّ والحصر وطيّ لسانه على معانٍ في قلبه لا يتسنى له ابرازها بالنطق ولا يجد سبيلًا الى تمثيلها باللفظ كأن المقاطع التي يعبر بها عن هذه المشخصات لم يُخلق لها موضع بين فكيه وليست مما يجري بين لهاتهِ وشفتيه . فعاد كالأبكم يرى الاشياء ويميزها ولا يستطيع ان يعبر عنها الا بالاشارة ولا يصفها الا بالايماء .

ويا ليت شعري ما يصنع أحدنا لو دخل احد المعارض الطبيعية او الصناعية ورأى ما ثمّةَ من المسميات العضويّة وغير العضوية من انواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن وعاين ما هناك من الآلات والأدوات وسائر اجناس المصنوعات وما تتألف منه من القطع والأجزاء بما لها من الهيآت المختلفة والمنافع المتباينة واراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات .

ثم ما هو فاعلٌ لو اراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيماويّة والفنون العقلية واليدويّة وما لكل ذلك من الاوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلًا ولا دقيقاً الا تدل عليه بلفظه المخصوص .

لا ريب أنّ الكثير من ذلك لا يتحرّك له به لسان ولا يعهد له بين الواح معجمات اللغة الفاظاً يعبر بها عنهُ ولا يُغنيه في هذا الموقف ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ومئتي اسم للخمر وخمس مئة للأسد وألف لفظة للسّيف ومثلها للبعير وأربعة

آلاف للداهية وما يفوت الحصر لشيء. آخر حَرَص مؤلِّف القاموس على استقصاء الفاظه حتى لم يكد يذكر مادّة إلا وفيها شيء يشير اليه ويدلّ عليه.

على ان اللغة مرآة احوال الامة وصورة تمدُّنها ورسم مجتمعها وتمثال أخلاقها ومَلَكاتها وسجل ما لها من علوم وصنائع وآداب وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيهِ حاجاتها في الخطاب وما يتمثَّل في خواطرها او يقع تحت حسها من المعاني. ومعلوم ان العرب واضعي هذه اللغة كانوا قوماً أهلَ بادية بيوتهم الشَّعَر والاديم ومفرشهم الباريُّ والبلاس ولباسهم الكساء والرداء وأثاثهم الرَّحى والقدر وآنيتهم القعب والجفنة الى ما شاكل ذلك مما لا يكادون يعدونهُ في حلّ ولا تَرْحال. فأين هم وما نحن فيه لهذا العهد من اتساع مذاهب الحضارة والاستبحار في التَّرف واليسار وكثرة ما بين ايدينا من صنوف المرافق وانواع الأثاث والزخارف وما نحن فيه من التفنن في احوال المجتمع والمعاش فضلًا عمَّا بلغ اليه أهل هذا العصر من التبسط في مناحي العلم والصناعة مما كان أولئك بمعزل عن جميعهِ إلا ما حدث بعد ذلك في عهد استفحال الاسلام مما ذهب عنا اكثره وما كان فيه لو بلغ الينا إلا غناءٌ قليل.

ومهما يكن من حال أُولئك القوم وضيق مضطرب الحضارة عندهم وما نجد في الفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن فلا يتوهمن متوهم أن ذلك وارد على اللغة من هرم أدركها فقعد بها عن مجاراة الاحوال العصرية وأناخ بها في ساقة الالسنة الحالية. فإن معنى الهرم في اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد خلت ألفاظها عنها ثم تضيق اوضاعها عن إحداث الفاظ تؤدى بها تلك المعاني فيطرأ على اللغة النقص حيناً بعد حين الى ان تعجز عن أداء اغراض اهلها ولا تبقى صالحة للاستعمال وحينئذٍ فلا يبقى إلا ان يُلقى حبلها على غاربها أو يُستعان بغيرها على سد ما عرض فيها من الخلل بما يغيّر من ديباجتها وينكر اسلوب وضعها حتى تتبدل هيآتها على الزمن وتصير على الجملة لغة اخرى.

وليس بمنكر أنّ ما وصفناه من هذه الحال يشبه في باديء الرأي ما نشاهده من حالة لغتنا اليوم وما لم تزل ننعاه عليها منذ حين من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية إلا أن ذلك اذا استقريت أوجهه وأسبابه وسبرت غور اللغة في نفسها وقست مبلغ استعدادها علمت انه ليس منها في شيء. وأيقنت أنها لا تزال في ريعان شبابها وطور ترعرعها وأن فيها بقية صالحة لأن تجاري أوسع اللغات وأكثرها مادة. ولكن ما ادركها من ذلك وارد من قبل الامة وتخلفها في حلبة الحضارة والمدنية إذ اللغة بأهلها تشب بشبابهم وتهرم بهرمهم وانما هي عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدو ألسنتهم ما في خواطرهم، ولا تمثل الفاظهم إلا صور ما في اذهانهم .

وبديهيٌّ ان اللغة لم توضع دفعة واحدة وانما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء. على قدر ما تعدو اليه حاجة المتكلمين بها . وقد اختصت هذه اللغة بمزية عز ان توجد في غيرها وهي ان اكثر الفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظي او المعنوي بحيث صارت الى ما صارت اليه من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيه لغة على كونها من أقل اللغات أوضاعاً إلا أنها من اكثرهن صيغاً وأبنية وهو السرّ في قبولها هذا الاتساع العجيب فضلًا عمَّا فيها من تشعب طرق المجاز . على ما سنعود الى بيانه بالتفصيل .

واعتبر ما ذكرناه من ذلك بالرجوع الى ما كانت عليه اللغة زمن الجاهلية وفي صدر الاسلام ومقابلتها بما بلغت اليه على عهد الخلفاء من بني العبَّاس بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح وتنبه الامة لطلب العلوم وتبسطها في فنون الحضارة بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية الى ابعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً اعجمياً ولا اضطروا فيها الى وضع جديد ولكنها خدمتهم بنفس اوضاعها التي وضعتها العرب فاشتقوا منها ما لا عهد به للعرب على وجهه الذي نقلوه اليه ولم تتكلم بهَ اصلًا حتى احاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الامم التي اجتاحوها شرقاً وغرباً وزادوا على ذلك كله ما استنبطوه بأنفسهم واللغة مشايعة لهم في كل ما اخذوا فيه لم تنضب مواردها دونهم ولا رأينا من شكا منها عجزاً ولا تقصيراً الى ان ادركهم من تبدل

الاطوار وغارات الاقدار ما وقف بهم عند ذلك الحد فوقفت اللغة عند ما نراه فيما وصل الينا من كتبهم . وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الامة وتتابعت دواعي الدمار حتى اندرست أعلام حضارتها وذهبت علومها أدراج الرياح فزال اكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أُمة متمدنة ولا هو أهل لان يبلغ بها ما منزلته تلك . ولذلك فان كان ثمّة هرم فإنما هو في الامة لا في اللغة لأن ما عرض لها من الهجر والاهمال غير لاصق بها ولا ملحق بها وهناً ولا عجزاً وإنما هو عجز في ألسنة الأمة ومداركها وتأخر في احوالها واستعدادها . ولو صادفت من اهلها البقاء على عهد اسلافهم من السعي في سبل الحضارة وتوسيع نطاق العلم لم تقصر عن مشايعتهم في كل ما فاتهم من الاطوار حتى تبلغ بهم الى مجاراة العصر الحالي .

ولقد اتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك لم يزد فيها حرف بل لم يكد يحفظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم بما طرأ على اهلها من الضغط والفاقة وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران وذهاب الحضارة من بينهم حتى عادت حوائج كثير من اهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدوي والاكّار . وما دامت المعاني التي يعبر عنها باللغة معدومة فلا سبيل الى بقاء الالفاظ الدالة عليها اذ اللفظ انما يتخذ للعبارة عن الخواطر التي في النفس فلا يكون الا على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كله ذهاب ما كتب المتقدمون بعضه بالاحراق كما تم في مكتبة قرطبة وكأن هذا في مقابلة ما وقع من مثله بالاسكندرية وفارس وبعضه بالاجتياح والنهب فلا بقي في مكانهِ فينتفع به المتأخر ولا احتفظ به الذي نهبه لجهله قيمته وبقي الشيء اليسير نجده اليوم في مكاتب الاعاجم واكثره مما اشتري من ايدينا بالذهب . فلا غرو ان نشأ عن تلك الاحوال كلها ذهاب هذه اللغة من السنة الاعقاب حتى لو رام احدنا اثارة دفائنها وتعهدها بالتجديد والاحياء لما وجد منها في البلاد الّا الشيء النزر لا يعدو في الغالب علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد اهل بلادنا يحافظون على سواه .

على انك لو طفت اليوم في انحاء البلاد التي كانت مباءة للعرب ومعرضاً لحضارتهم وفنونهم لم تكد تجد موضعاً تتوسم فيه آثار ذلك القديم سوى الديار المصرية التي هي مستودع ذخائر السلف ومجمع شمل علومهم في شمل بقاياهم والتي ان كان قد كتب لهذه اللغة ان تستأنف البقاء مدة اخرى فان مبعثها انما يكون من ناحيتها وعلى ايدي رجالها وان سبقهم الى احياء رسومها بعض المجاورين لهم ممن اصطبغوا صبغة العرب وليسوا منهم في شيء. وشتان بين من يعنى بالامر لضرورة احوجته اليه ومن تكون فائدته له وخسرانه عليه .

وقد كان عقد في هذه العاصمة اعني مدينة القاهرة مجتمع لغوي تطالت اليه اعناق الناطقين بالضاد من جميع الآفاق العربية وتوقع المتأدبون منه فوائد جمة مما لم تبرح النفوس متطلعة اليه والاماني معقودة عليه فاعترض دون تلك الثمرات ما في اهل الشرق من وناء الهمم وتخلف الثبات على حين لم يجروا في هذا الشوط الّا خطوات يسيرة ابانوا فيها عن رأي فطير وبضاعة مزجاة وصدرت الآمال عنهم كما وردت لم تظفر منهم ببلة بل تجرعت من اليأس ما زادها على غلتها غلة .

ومهما يكن من امر هذا المجتمع فقد مضى على وجهه ودرجت بعده الايام ودبت الليالي والحاجة في مكانها والرغبات متطالة والخواطر هائمة والاقلام جافة واللغة على ما كان من عهدها لم تستغن بتلك الكلمات العشرين ولا وجد بعد ذلك من اجرى لها ذكراً ولا اخطر للنظر في امرها فكراً . فكأن ذلك المجتمع انما عقد لتثبيط العزائم عن نهضتها وقطع آخر عرق من الامل وكأن اربابه نفرٌ من الاطباء اجتمعوا للائتمار على عليل فكان قصارى ما في طبعهم ان قضوا باليأس منه ثم خرجوا وهم يقولون عظم الله اجركم في الفقيد .

فبقي الان امّا ان نسجل بموت اللغة وموت الآمال معها واليأس احدى الغنيمتين واما ان نستأنف العزم ونجدد السعي في احياء ما اندثر منها وتدارك ما طرأ عليها من الثلم وهو ما لا تزال الآمال فيه منوطة بهمم رجال هذا القطر ان نشطوا له

وتفرَّغوا للاشتغال به وتنبهوا لمكان اللغة وانها هي عنوانها والفصل الذي تتميز به عن سائر الامم بل اللغة هي الامة بعينها فكما تشخص تأريخها وعلومها وعاداتها وعباداتها فانها تشخص الامة بنفسها وبها يشار اليها ويدل عليها وذلك فضلًا عن انها هي مجمع الفتها والوصلة الحسية بين آحادها وجماعاتها فهي علة الضم الحقيقية بينها والجامعة الطبيعية التي بها يستتب معنى المدنية . واذا تفطنت للمراد من قولهم الانسان مدنيٌّ بالطبع شف لك عن حقيقة هـذا القول وتبينت موضع اللغة من الحالة الاجتماعية . واعتبر ذلك في الامم الاوربية لهـذا العهد فانها على اتحاد اكثرها في النحلة الدينية وما يصل بينها من لحمة النسب انما تتميز الجنسية عندها باللغة وهي الفصل الفارق بين امة وامة وعليها مدار الوحدة الوطنية وصيانة المصلحة الامية . وما لم تتحد الامتان منها في اللغة لا يؤمن انتقاض احداهما على الاخرى ولو اتحدت بينهما المصلحة الوطنية والجامعة السياسية . بل انظر الى الناطقين بلساننا العربي فانهم على تباينهم في الانساب والاديان والعوائد الى ما لا تجد له مثيلًا في العالم كله وعلى ما بينهم من اختلاف الحال السياسية وتفاوت المصالح الذاتية وتضافر دواعي الشقاق والافتراق لم تثبت لهم جامعة ينضمون بها ويتألفون حولها سوى اللغة حتى لقد تجد من الدخلاء فيها من هو اشد اعتصاماً بها ومحافظةً عليها ممن ورثها عن اولية وانتهت اليه عن غير كلالة

بل عندنا اليوم مـا هو ابلغ من ذلك وهو ما نراه من كثير من فتياننا الذين يتلقون العلم في المدارس الاجنبية فانك تجد كل فريق منهم قد أُشرب الميل الى الامة التي يدرس في لسانها فمن تعلم في المدارس الانكليزية مثلًا خرج ميله انكليزياً وكذا من درس في المدارس الفرنساوية او الطليانية او غيرهـا حتى تراه يباهي برجال تلك الامة ويتبجح باخبار ملوكها وكبرائها وفضائل اهل العلم والشعر منها ويقتبس كثيراً من اخلاقها وعاداتها ويتشبه بمشاهير اهلها ومن يقع في نفسه منها موقعاً . وربما اشرب عقائد بعض علمائها وفلاسفتها الى غير ذلك مما لا تكاد تفرقه فيه عن احد افرادها بل ربما بلغ من بعضهم ان ينزع الى اللحاق بجنسيتها والانتظام في عداد آحادها فيطلب مشاركتها في الوحدة الحسية بعـد الوحدة المعنوية وهو

نهاية ما يمكن تصوُّره من الشواهد في هذا الباب . وهذا الامر مما تنبهت له الامم الفاتحة من قديم واتخذته قاعدةً تجري عليها في تقرير فتوحها وتوثيق سلطانها واتقاء سورة المغلوبين اذا حزبهم من ناحيتها ظلم او سامتهم شيئاً من ضروب الخسف . ولذلك كان من اوجب الواجب في المحافظة على بقاء الامة وصيانة الجنسية بينها احياء لغتها بين عامة اهلها وتكثير سواد اهل العلم منها والتجافي بها ما امكن عن لغات الاعاجم الا الخاصة الذين عليهم المعوَّل في نقل علومهم الينا ونشرها بلغتنا بحيث نلحق بهم في الحضارة دون الجنسية . وهذا انما يتم اليوم بان تنهض الامة بنفسها لهذا الامر الخطير ويتجرد له عقلاء سراتها واهل العلم فيها لا يتكلون في ذلك الا على انفسهم ولا يصدرون الا عن عزائمهم والا فان استنامتهم الى من سلم اليهم قياد العلم وتهذيب الامة في القطر لا يعد الا ضرباً من التغرير بمصلحتهم والاعانة على اضمحلالهم .

وقد اطلنا في هذا المعنى حتى كدنا نخرج عن المقصود وما نحن في شيء مما انسقنا اليه في هذا الموضع ولا هو من اغراض هذه المجلة . وانما اوردنا ما اوردناه متابعةً لمقتضى البحث وايضاحاً لما توخيناه من بيان خطر اللغة في الامة ومنزلتها من الجامعة الجنسية والحديث ذو شجون . ولذلك نترك بقية هذا المطلب لرصفائنا من اصحاب الجرائد السياسية يوفونه حقه من القول ويستنهضون الامة للعمل به ان شاءت اذ هو من خصائصها وهممها . ونعود الى ما كنا فيه من الكلام على اللغة واستئناف الوضع فيها سدًّا لما طرأ عليها من مواضع الخلل وهو ولا ريب من اخشن المباحث مركباً وابعدها مطلباً واغمضها آثاراً واخفاها مناراً ومما لا يفي به ما عندنا من المادة التافهة والعلم النزر ولكنا سنجعل البحث فيه ذريعة الى ما نتوقعه من اقلام ائمة العلم في هذا العصر والله سبحانه ولي الاعانة والتوفيق .

وقد تقدم لنا ان اللغة لم توضع دفعةً واحدة ولكنها كانت تابعة لاحوال المجتمع ومبلغ الامة من الحضارة وما هي عليه من التبسط في العمران والتفنن في مذاهب الترف والتوسع في المدارك العلمية والصناعية وما يختلف عليها من الاحوال

السياسية والدينية الى ما يتصل بهذه الاطراف ويتشعب عنها . فهناك سلسلة من المعاني لا تنقطع ولا تنتهي الى حد تقف عنده ولذلك كان من المحال ان لغة قوم مهما بلغت من الكمال وتناهت في الاتساع تصل الى حد تصلح فيه لان تستعمل في كل عصر . لان ذلك الكمال انما يكون بالقياس الى زمن مخصوص ومبلغ من الحضارة لا يتعداه ولكن حقيقة الكمال في اللغة ان تكون بحيث يمكن ان يستنبط من نفس اوضاعها الفاظ لما يحدث من المعاني لا ان تكون بحيث تستغني عن المزيد اذ المعاني ابداً تتجدد وليس من المحتمل ان قوماً يضعون الفاظاً لمعانٍ لا توجد . وانت اذا تتبعت اوضاع اللغة لم تكد تعد منها ستة الآف تركيب حالة كون المواد المؤلفة منها والجارية على السنة اهلها تبلغ فيما ذكروا ثمانين الف مادة وهي عدة ما اشتمل عليه لسان العرب . وهذا ولا شك لم يكن كله من الوضع القديم ولكنه ما انتهى الى الصورة التي نقلت الينا والتي نراها مدونة في كتب اللغة الا بعد ان قلبَ كل مقلب ودخل عليه من التبديل والزيادة ما اقتضاه كل عصر من اعصارها حتى بلغت الصورة المتعارفة آخراً وانما هي لغة عصر بعينه هو عصر اواخر الجاهلية وما يتصل بها من صدر الاسلام مما لا يكاد يتجاوز مئة سنة . واما ما قبل ذلك من اللغة فقد غمض عنا علمه لفقد النقل عن اهل تلك الازمنة ولعل الكثير منه كان على غير الصورة التي انتهت الينا بل ذلك مما لا ريب فيه لما قدَّمناه من ان تبدّل الاحوال من لوازم المجتمع بل من لوازم كل حادث سنةُ الله في خلقه . وما من تبديل يحدث في حال الامة الا وصورته في لغتها ضرورة ولو لبثت العرب على عهدها الاول ولم يعترض اللغة من امر مخالطة الاعاجم ما وقف في طريق الوضع والزمها الحد الذي وصلت اليه لذلك العهد لطرأ عليها من الاحداث والتبديل ما انتسخ به كثير من الفاظها المدونة ونشأ كثير من اللفظ الذي لم يكن للعرب به عهد .

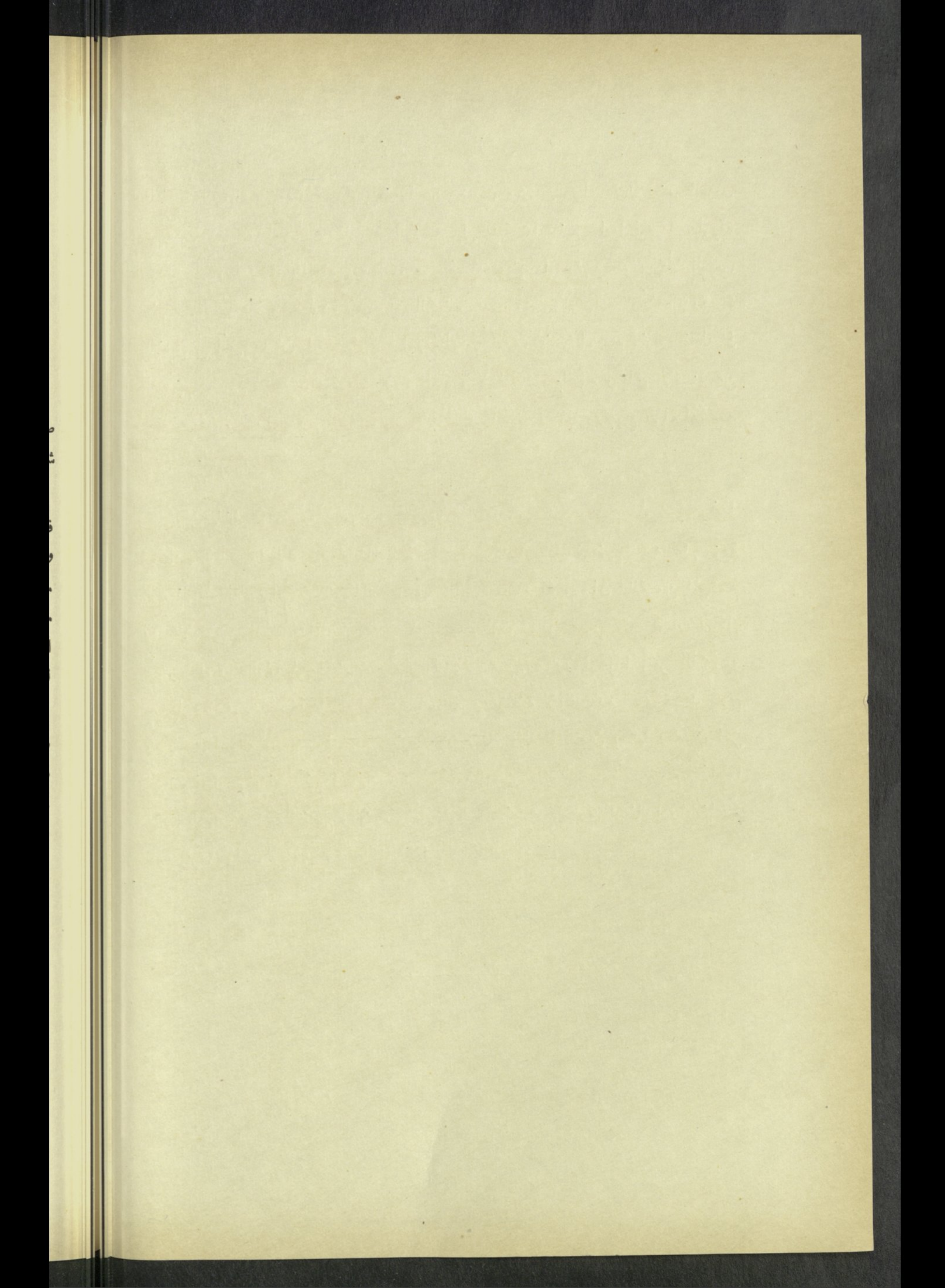
على ان المولدين لم يقفوا عن الاحداث في الفاظ اللغة ولم يمكنهم الاستغناء باوضاع البادية على الحد الذي كانت عليه ولاسيما مع شدة تفاوت الحال بين عهدهم وعهد الجاهلية وانتقالهم فجأةً من حال البداوة الى الحضارة والملك وانتشار

العلم بينهم في زمن قصير الا ان مصنفي اللغة لم يكادوا يدوّنون من اوضاعهم الا النزر اليسير مما يسمونه بالمولد واغفلوا اكثر المحدَث حتى لا تكاد تجد له اثراً الا في كتب اربابه من اهل الفنون التي طرأ فيها ذلك الاحداث وكثيراً ما تمر باللفظة منه ولا تفهم المراد بها لقصور القرينة عن الدلالة عليه او لاحتمالها معنى غير المقصود . وهو تفريط من مدوني كتب اللغة يؤاخذهم عليه المتأخر وقصور منهم ادَّى اليه سوء تقديرهم للمنفعة المقصودة من معجمات اللغة حتى كان كل ما وضع بعد زمن الجاهلية منحطاً في اعتبارهم عن منزلة ما وضعته العرب خلا ما نقلوه من الفاظ الشرع وما يتصل به مما وضع على عهد الاسلام وهو ما يطلقون عليه الالفاظ الاسلامية . وفي ذلك ما يدلك على ان اشتغالهم بتدوين اللغة لم يكن على الجهة التي نتوخاها اليوم والتي يتوخاها اهل كل لغة من تقييد الفاظها وتيسير استعمالها للخلف . وانما كان جلّ غرضهم منها الاستعانة على فهم الفاظ التنزيل والسنَّة مما لا دخل لالفاظ المولدين فيه وهو عين ما قصدوه من تدوين سائر علوم اللسان من النحو والبيان وغيرهما على ما تنطق به خطبهم في فواتح كتبهم وهو المعنى الذي لاجله تطلب هذه العلوم لعهدنا الحاضر حتى اصبحت على الغالب لا تتعدى فرض الكفاية . وهذا احد اسباب ما نجده اليوم من النقص الفاحش في اللغة وتقصير اوضاعها عن اداء كثير من المعاني المدنية والعلمية مما كان ولا ريب متداولاً على السنة السلف واقلامهم حتى لو رجعنا الى مثل عصرهم وتوخينا الكلام فيما تكلموا فيه لم نجد فيما بين ايدينا من اللغة ما نغني به غناءهم ولا اضطررنا الى مثل ما نحن فيه اليوم من مزاولة الوضع واستئناف ما قد فرغوا منه من عهد بعيد .

على اننا لا ننكر ان ليس كل ما جرى على لسان المولد ولا سيما من جاء بعد الصدر الاول للاسلام يصلح لاستعمال الفصحاء وأرباب الاقلام ويجوز ان يلحق بالفاظ المتقدمين ويحصى في جملة اوضاعهم لما ان ألسنة الاعقاب قد فسدت بما طرأ عليها من مخالطة العجم وفارقت سنة العرب في وضع الالفاظ واشتقاقها وتقليبها على صيغها المألوفة عندهم الا ان الامة لم تخلُ مع ذلك من قوم قد توفروا على البحث في اوضاع اللغة وتتبع احكامها والنظر في اوجه صوغها وتصريفها حتى استنبطوا سرّها

وقبضوا على قيادها فتهيأ لهم ان يضعوا عن كسب ودرس ما كانت تضعه العرب عن سليقة وتلقين طبع . ومتى كان الواضع على بينةٍ مما يضع جارياً فيه على طريقة العرب واسلوبها وكان الموضوع مقتبساً من نفس الفاظها حتى يكون كأن العرب وضعته بانفسها فلا وجه لرده بحجة ان الواضع ليس منها واعتداده نازلًا عن رتبة كلامها بل أحرِ به ان يلحق باوضاعها وينزل من عدم الاستغناء عنه منزلة الفاظه اذ لم يوضع الا عن حاجة داعية وضرورة ماسة والا فالقضاء باهماله وتجافي الالسنة عن استعماله قضاءٌ باهمال علوم السلف بل التجافي عن الحضارة جملة ورجوع الامة الى عهد البداوة .

ولا يؤخذ مما تقدم ان مرادنا الازراء على علماء السلف رحمهم الله تعالى وغمط احسانهم فيما نقلوا الينا من اوضاع اللغة واحكامها وانما الغرض التنبيه على مزية الالفاظ المحدثة وبيان مكان المولدين من اللغة بعد معرفة مكان اللغة من المجتمع وانه لا يستقيم ان يمنع المتأخر مما بيح للمتقدم لان لكل عصر لغته كما ان لكل عصر اهله وانما اللغة لمن افضت اليه وكانت في عهده وربما هو المتأخر الذي به حياتها والذي انما يتخذها للعبارة عن احواله واغراضه لا للمتقدم الذي قد درج ودَرجت احواله معه . فنحن الآن منزّلون منها منزلة المتقدمين بعينها وهم في امر الوضع فيها سواء نصرّف اعنتها كيف شئنا وشاءت حالة العصر لكن مع التزام ما اشرنا اليه من متابعة سننهم والضرب على قوالبهم بحيث تتساوق اوضاعنا واوضاعهم على طريق واحد ويتفق صداها على نغمٍ لا يختلف .



الدكتور يعقوب صروف

(١٨٥٢ – ١٩٢٧)

مثلما كان جرجي زيدان يفتح اذهان الناطقين بالضاد الى تاريخ لغتهم القديم، راح يعقوب صروف يفتح الاذهان الى الشؤون العلمية التي يستطيع بها وحدها ابناء الشرق ان يكون لهم شأن في سير الحضارة .

ولد في الحدث ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت، ثم زاول التعليم في صيدا وطرابلس، فشعر بالحاجة الى كتب علوم باللغة العربية فوضع كتاباً في الكيمياء . وانصرف الى التأليف والتعريب، مشتركا مع نسيبه وصديقه فارس نمر في تحقيق الكثير من المشاريع الادبية، وكان من اهمها مجلة المقتطف التي صدرت في بيروت ١٨٧٦ وبقيت فيها حتى ١٨٨٥، اذ لاح ان جو مصر ارحب وميدانها اوسع للنشاط الادبي فانتقل الاديبان العاملان بمجلتهما اليها – والمقتطف، مثل اكثر المجلات التي كانت تصدر في تلك الحقبة، كانت الموسوعة التي يقبل الناطقون بالضاد عليها للتعرف الى « غرائب العلم » .

وقد ألّف يعقوب صروف وعرب كثيراً من الكتب قبل انتقاله الى مصر، منها « سر النجاح »، « الحرب المقدسة »، « الحكمة الالهية »، « مرآة العصر » . ومما عربه مع فارس نمر « سير الابطال والعظماء، ومشاهير العلماء » . ومن اهم ما نشره في المقتطف واسترعى انتباه الكثيرين درس طويل عن « نوابغ العرب والانكليز » قابل فيه بين المعري وملتن، وابن خلدون ومسيتمر، وصلاح الدين وريشار قلب الاسد .

على ان اثره الاعظم والاعمق يبقى في المقالات العلمية التي كان ينشرها في كل عدد من المقتطف (وقد جمعت في كتب بعدئذ) يبسط فيها اختبارات العلماء الغربيين في مختلف القضايا العلمية، باسلوب له صبغته العلمية دون ان يكون جافاً – وكان الى ذلك يثبت في مقالاته هذه الكثير من ملاحظاته الشخصية ومن اختباراته الخاصة في الموضوع المطروق، مما يضاعف قيمته .

تفرّق بزور النبات ايضاً

دخلنا بالامس بيت احد فضلاء الجرمان من نزلاء العاصمة فرأينا فيه منظراً تنبسط له النفوس وتبتهج به الابصار وهو زير من ازيار الماء العادية اتخذه السرخس المعروف بكزبرة البئر وطناً له فنما على جوانبه حتى جلله كله وطال واينع فصار كحرجة غبياء وهو لم يغرس هناك ولم يزرع بل حملت الرياح بزوره من اصيص كان بجانبه والقتها على ظاهر الزير فأفرخت ونمت . وقد حاولنا زرع هذا النبات مراراً عديدة فلم نفلح كما افلحت الرياح في زرعه .

ومعلوم لدى كل زارع انه مهما اعتني بحرث الارض واستئصال الاعشاب منها تنمو الاعشاب فيها من تلقاء نفسها اذا تركت بوراً حتى زعم المتقدمون ان الاعشاب تنمو من نفسها من غير بذور . والحقيقة ان الرياح تحمل بزورها وتلقيها في كل مكان فاذا صادفت تربة مناسبة لها نمت فيها واينعت . ولكن الرياح لا تستطيع ان تحمل كل البزور ثقيلها كخفيفها ولذلك يستعين النبات بوسائط اخرى لابعاد بزوره عنه لئلا تقع تحته ويغطيها ظله وتخنقها جذوره ويستخدم لذلك من الحيل والوسائط ما يحير الالباب .

من جال في بلاد الشام في شهري يوليو واغسطس يرَ في جوانب الطرق نباتاً اخضر قاتم اللون في ورقه واغصانه وبر غليظ واثماره كاثمار القثاء الصغيرة وهي كثيرة الوبر ايضاً حتى تكاد تكون شائكة ولذلك تسمى قثاء الحمار . فما دمت بعيداً عن هذه الاثمار ترى بعينك ولا تلمس بيدك فأنت سليم منها آمن من شرها واما اذا لمستها بيدك او رجلك ولو عن غير قصد منك رشقتك بكل ما في جوفها من العصار والبزر واللباب وهذا شأنها إذا لمستها المواشي او غيرها من الحيوانات

وعصار ثمرها مرّ حرّيف إذا دخل عين حيوان علمه درساً لا ينساه مدى الحياة . الا ان النبات لا يفعل ذلك انتقاماً ممن يلمسه او يدوسه بل وقاية لنفسه من عوادي الحيوان وله فيه مآرب اخرى يتوقف عليها بقاء نوعه وتفريق بزوره بعيداً عنه لكي تجد تربة صالحة لنموها لان اثمارها ترشق بذورها من نفسها حينما تنضج ولو لم يمسها احد ولولا ذلك ليبست حيث نمت وسقطت بزورها معاً تحت امها وتعذر نموها .

ومعلوم ان القثاء والخيار والبطيخ وما اشبه من النباتات لا ترشق بذورها لانها استعاضت عن ذلك بطيب طعمها وحلاوة عصارها فيقطفها الانسان والحيوان ويأكلانها ويفرقان بذورها . والحنظل وهو من هذا النوع ايضاً لا يرمي بزوره بعنف إذا نضج ولا يأكله الانسان ولا الحيوان لكراهة طعمه ولكنه استعاض عن ذلك بتطويل فروعه فتمتد منبسطة على الارض الى مدى بعيد حتى تتفرق اثماره وبزوره بعضها عن بعض فضلًا عن ان اثماره مستديرة فيسهل على الرياح ان تدحرجها من مكان الى آخر فتتفرق في طول الارض وعرضها .

وللرياح المزية الكبرى في تفريق بزور النبات فانها تحملها على عاتقها وتعبر بها الانهار وتقطع من فوق البحار ولاسيما اذا كانت البزور قد استعدت لذلك فنشرت اجنحتها للرياح . نذكر اننا سرنا مرة في بقاع العزيز ببلاد الشام وكان النسيم يهب حينئذٍ في الجهة التي كنا ذاهبين فيها ويسوق جيشاً عرمرماً من بزور الفصيلة المركبة وغيرها بين كرات محاطة بالزغب الدقيق كأنه زف الرئال ومخاريط محاطة بالاغشية الرقيقة كأنها اكواب الزجاج . وبقيت هذه البزور تسير معنا تتقدمنا تارةً وتنتظرنا اخرى مسافة ساعتين ثم دارت بنا الطريق فتركناها آسفين وفي ظننا انها وجدت لنفسها مقرًّا في ارض خصبة فألقت فيها عصا التسيار وغارت في التربة بفعل الرياح التي ساقتها هذه المسافة الطويلة واقامت فيها الى الربيع التالي فنمت واينعت .

وقد يكون النبات سنوياً لا خوف على بزوره من ان تزاحمها امها ومع ذلك تسعى بزوره لتبعد عنه كأنها تعلم ناموس تعاقب المزروعات وان الارض التي يزرع فيها نبات ما هذه السنة لا يجود فيها ذلك النبات عينه في السنة التالية فيجب ان يزرع فيها غيره وتزرع بزوره في ارض اخرى ٠

ومعلوم ان الرياح لا تستطيع حمل كل البزور وغاية ما تحمله البزور الصغيرة الخفيفة والتي لها شعر او زغب او اجنحة واما بقية البزور فتستعين على انتقالها بوسائط اخرى فمنها ما يسخر الحيوان لهذه الغاية فيلبس ثوباً حلو الطعم جميل المنظر فتأكله الحيوانات والطيور وتلقي بزوره بعيداً عن اماته كما تقدم ومنها ما يلصق بطعام الحيوانات ويدخل اجوافها ويخرج مع برازها سليماً فينمو حيث وقع ٠ ومن قبيل ذلك اشجار الزيتون والتين التي ترى في جدران المباني القديمة ببلاد الشام فانها كلها من بزور الاثمار التي اكلتها الطيور ثم رمت بها مع سلحها بين حجارة تلك الجدران .

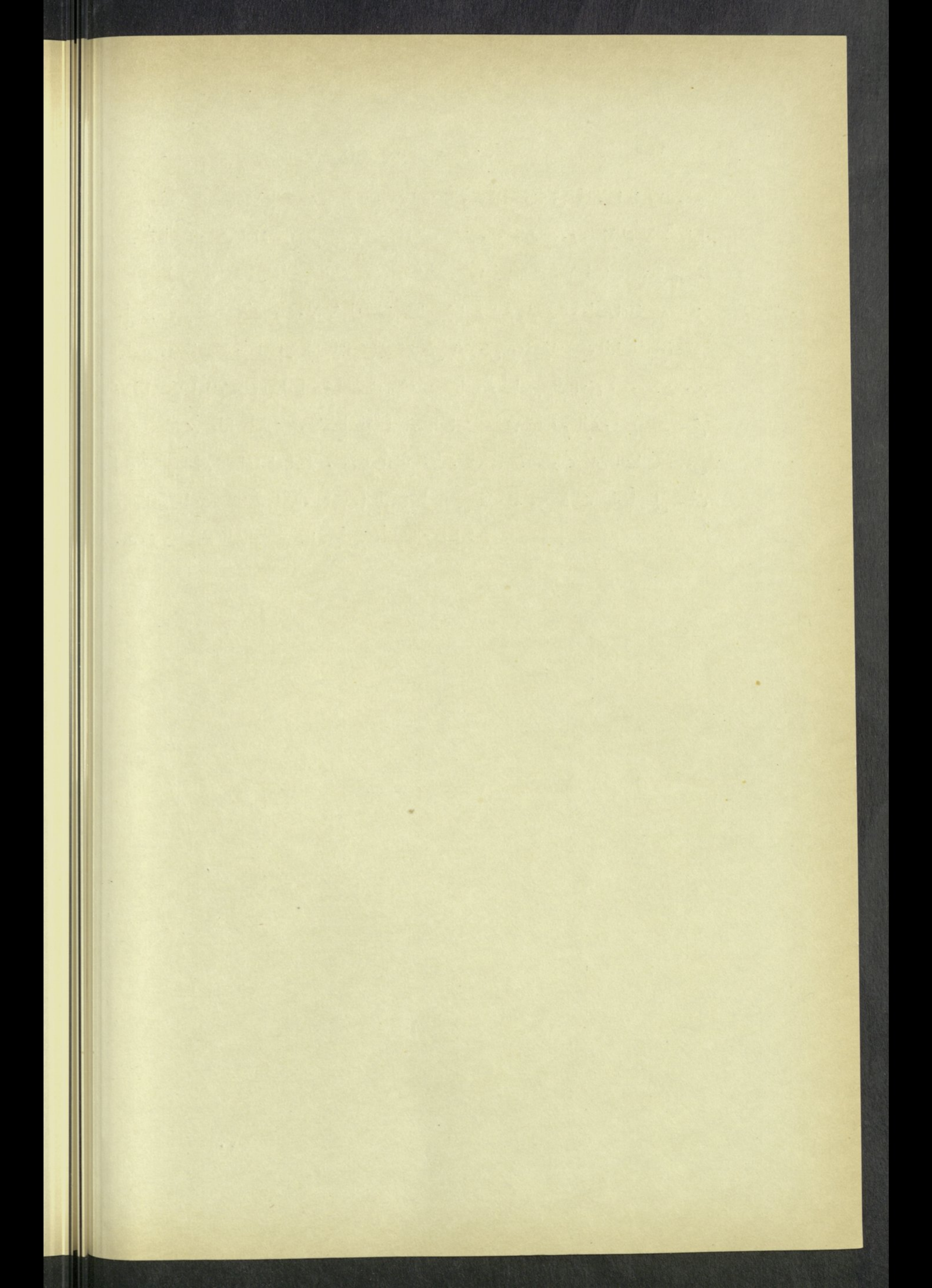
ذكر الشهير دارون انه التقط اثني عشر نوعاً من بزور النبات من زرق الطيور التي مرت في بستانه مدة شهرين وزرع بعضها فأفرخ ٠ والطيور آكلات الحبوب تبقي ما تأكله في حوصلتها من اثنتي عشرة الى ثماني عشرة ساعة فإذا اصطادتها الكواسر ومزقت ابدانها وقعت الحبوب من حواصلها ونمت حيث تقع واذا اكلت الكواسر هذه الحبوب مع لحم الطيور لم تهضم الحبوب في امعائها لانها معدة لهضم اللحوم لا لهضم الحبوب فتخرج منها سليمة وتنمو حيث تقع ٠ هذا فضلاً عما تحمله الطيور بأرجلها ومناقيرها من البزور وتنتقل به مئات من الاميال فقد ارسل الاستاذ نيوشن الى المستر دارون حجلاً رماه بالرصاص فجرحه حتى لم يستطع الطيران وكان برجله كرة من الوحل لاصقة بها فحفظت هذه الكرة ثلاث سنوات ثم بلت بالماء ووضعت تحت اناء زجاجي فنما فيها ٨٢ فرخاً من النبات ٠

والجراد من اقدر انواع الحشرات على نقل البذور فانه يبتلع كثيراً منها مع ما يلتهمه من النبات ويلقيه في الاراضي التي يمر فيها فقد ارسل بعضهم قليلاً من

بعر الجراد الى دارون فتفحصه بالمكرسكوب فوجد فيه بزور سبعة انواع من النبات وزرعها فنمت كلها ولذلك تكثر الحشائش في الارض التي يعبر الجراد فوقها . ولكثير من البذور شوك اعقف كالكلاليب وغاية النبات من ذلك ان تعلق بزوره بجلود الحيوانات التي تمر بجانبه وتنتقل بها من مكان الى آخر . واكثر النباتات التي من هذا القبيل تنمو في الهشيم وبجانب الطرق فاذا مر بها خروف علقت بصوفه ، ثم يمر الخروف بنجم من الشوك فيعلق جانب من صوفه بالشوك وفيه البزور المشار اليها حتى اذا هطلت الامطار انحلت عراها فتقع على الارض وتنمو فيها . ومن هذه البزور ما يسخر الانسان لخدمته فيلصق بأثوابه ويسير معه حينما سار حتى ينزعه ويرميه بجانب بيته فينمو هناك .

وقد يظن لاول وهلة ان تفرق بزور النبات بواسطة الرياح والحيوانات ليس مقصوداً بالذات بل هو حادث اتفاقاً فاذا عصفت الرياح ببزر فرقته وإلا فلا . واذا مرت المواشي ببزور شائكة علقت بها و إلا لم تعلق . ولكن الباحث المدقق يرى ان البزور معدة بالطبع للاساوب الذي تتفرق به فاذا كانت مما يتفرق بواسطة الرياح كان اتصالها بأمها ضعيفاً حينما تنضج حتى إذا عصفت بها الرياح انفصلت حالًا وطارت واذا كانت مما يتفرق بواسطة الطيور لبثت اثمارها متصلة بالنبات بعد ما تنضج حتى تقع عليها الطيور وتأكلها وترمي بزورها . والبزور الكبيرة قليلًا التي تفرقها الرياح لها زغب واجنحة واما الكبيرة كثيراً التي لا يمكن الرياح ان تحملها لثقلها فليس لها اجنحة ولو كانت من نوع البزور الاولى كما في بزر الارز والصنوبر . فان الاول صغير خفيف على الرياح فله اجنحة والثاني ثقيل على الرياح فليس له اجنحة ولو لم يخل من آثارها كأنه كان مجنحاً لما كانت بزوره صغيرة . واعتبر ذلك في نبات الكشوث الذي ينبت على الاشجار ويمتص غذاءه من عصارها فانه لا بد لبزره من ان يوضع ما بين اغصان الاشجار لكي ينمو فيها وقد اعدت له الطبيعة مادة لزجة كالدبق فيلصق بمنقار الطيور التي تأكله وتطير الطيور به وتمسح مناقيرها بين اغصان الاشجار تخلصاً منه فيلصق في خير الاماكن المناسبة لنموه . واعتبر ذلك في الخشخاش (ابو نوم) ونحوه من النباتات التي لا

تخرج بذورها منها الا إذا هزتها الرياح هزًّا عنيفاً وحينئذٍ تتفرق في مساحة واسعة. وقد يقطع النبات امله من الرياح والحيوانات كالخروع فان بزوره ثقيلة لا تحملها الرياح وليس لها غلاف طيب الطعم اغراء للطيور والحيوانات ولا فيها مادة لزجة حتى تلصق بمناقير الطيور ولا شوك حتى تعلق بجلود الحيوانات وطعمها تفه تقز النفس منه فلم يبق لها الا ان تتفرق في عرض الارض بنفسها . ولذلك يتشقق غلافها حينما تنضج ويدفعها دفعاً بعنف شديد كانها رصاص البنادق . وكثير من النبات يجري هذا المجرى ولاسيما في المنطقة الحارة حيث تندفع البذور بعنف حتى لقد تقتل الحيوان اذا اصابته . ومن أمعن نظره في ما تقدم رأى ان النبات يسعى في طلب المعيشة كالحيوان مستخدماً الوسائط التي تمكنه من ذلك جارياً على سنن معلومة مما سنه الخالق سبحانه لجميع المخلوقات الحية .



الدكتور شبلي الشميل

(١٨٥٣ - ١٩١٧)

ولد في كفرشيما من ساحل لبنان . اخذ العلم في الكلّية الاميركية ببيروت حيث انهى علومه الطبية في السنة ١٨٧١ ، فغادر ، على الاثر ، لبنان الى اوروبا للتزيّد من الطب فاطلع فيها على المباحث البيولوجيّة وتأثر بما وقف عليه من الادلّة على مذهب النشوء وتولّد الانواع بعضها من البعض الآخر ، والتولد الذاتي . وما كاد يستقر به المطاف في الديار المصرية ، حوالي السنة ١٨٧٥ ، حتّى شرع يطالع الناس بآرائه في الفلسفة المادية ويعرّب لهم داروين ، ويعرض لهم « شرح بخنر على مذهب داروين » (١٨٨٥) ويناقش ، ويجادل ، مستنبطاً الادلّة والحجج والبراهين لدعم فلسفته . له اول مجلّة طبيّة راقية في الشرق اسمها « الشفاء » كان تحريرها بقلمه من الباب الى المحراب وله مباحث في السياسة والاجتماع . وله خطب ومحاضرات وشعر وهو لم ينقطع عن ممارسة الطب وقد تميّز فيه بحيث قال الدكتور يعقوب صرّوف « كان الشميّل من مشاهير الاطباء في التشخيص الطبّي كانما يوحى اليه . وقد بلغت منه الفراسة ان علّل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتي قبل ان شاع هذا التعليل في اوروبا . . . »

امّا اشهر موءلّفاته « فمجموعة الدكتور شبلي الشميّل » بجزئين كبيرين و « فلسفة النشوء والارتقاء » ثم كتاب « سورياً ومستقبلها » . وله شروح وتعليقات على بعض الكتب الطبيّة القديمة التي تولى نشرها كفصول بقراط ، وارجوزة ابن سينا .

اجمع معاصروه على انه كان « انيس المحضر حسن المحاضرة » فكه الحديث ، طلق المحيا ، محبوبا لحسن طويته واخلاصه ، ولا سيما لشجاعته الادبيّة المفرطة اذ لم يكن يخشى ان يقول للظالم « يا ظالم » ولو ملكاً . وكان خطيباً مفوّهاً .

توفي في اليوم الاول من رأس السنة ١٩١٧

لماذا

كن شديد التسامح مع من يخالفك في رأيك فان لم يكن رأيه كل الصواب فلا تكن انت كل الخطإ بتشبثك . واقل ما في اطلاق حرية الفكر والقول تربية الطبع على الشجاعة والصدق وبئس الناس اذا قسروا على الجبن والكذب

. . . وقد اطلقت عليه اسم « فلسفة النشوء والارتقاء » لاني لم اقتصر فيه على النظر التقريري البسيط من حيث نشوء الاحياء وتسلسلها بعضها من بعض بل اطلقت نظريته على الطبيعة كلها من جماد ونبات وحيوان من حيث اصلها وتحولها ونسبتها بعضها الى بعض مبيناً ان هذا الكل المشهود مترابط ترابطاً لا ينفك في كل صوره وافعاله سواء في الطبيعة الصامتة او في الاحياء النامية او في الحيوان الاعجم او في الانسان الناطق ، موضحاً ان القوى الفاعلة في كل ذلك المواد الداخلية فيه من اصل طبيعي واحد متحوّل الى ما لا حدّ له بحيث ان الافعال الظاهرة في اعلى سلّم هذا التحول كما نشاهدها اليوم ليست الا تلك الافعال البسيطة كامنة في أدنى هذا السلم متدرّجة فيه وهي لا تنتظر حتى تظهر بأسمى مظاهرها ارتقاء واعظمها شدّة إلا توفّر شرائط معلومة لو فقدتها بعد ذلك لعادت الى بسائطها عملًا بناموس الاقتصاد الطبيعي الذي يقتضي ان كل شيء في الطبيعة منها وبها واليها . مستنداً في كل ذلك الى العلم الاختباري المحسوس . وذلك لبلوغ الحقيقة المنشودة في كل زمان من الطريق الوحيد الموصل اليها والتي يلمسها الانسان في كل اطواره في التاريخ من غير سبيلها فضلّ عنها ولم يهتدِ اليها إلا من عهد قريب جداً . متوخياً من كل ذلك المنفعة العملية لكلّ انسان يشيد اجتماعه على اساس متين عالماً ان اقلّ شيء في الطبيعة قد يكون فيه أكبر نفع له فلا يحتقر شيئاً بل يعتد بكل شيء ويصرفه الى غرضه ويسترشد بنواميس الطبيعة فيتحدّاها في توخي المنفعة المشتركة التي لا تكون المنفعة الذاتية بدونها الا ناقصة وقد تنقلب الى الضدّ فيتضافر عن علم لتوفير

هذه المنفعة من مصادرها الطبيعية لا لتمزيق بعضه بعضاً كما هو جارٍ حتى اليوم لاعتماده على ما سوى الطبيعة أو لسوء فهمه لنواميسها في نظامها لانه اذا كان نظام الطبيعة اساسه تنازع البقاء القاضي بالتنازع الشديد بين عناصر الكائنات جميعها من اصغرها الى أكبرها ومن احقرها الى اعظمها عملاً بناموس محبة الذات او الانانية التي تطلب النفع الخاص والمنتشرة في عمومها وغير المقتصرة على الاحياء فقط كما قد يظن توهماً الّا انهُ يوجد ناموس أرقى ينقل هذا التنازع من بين الافراد المنعزلة بناء على ناموس التكافؤ والتكافل مرتقياً الى الجماعات المنضمة في مصلحة واحدة الى ان يشمل الجنس كله عسى ان يتهيأ للانسان الفوز التام على الطبيعة اذا فهم هذا الانسان الكلي مصلحته الكبرى من وراء ذلك كما يجب ان تكون .

ولم يكن ذلك متيسراً له حقيقة قبل خمسين سنة اي قبل اكتشاف مذهب النشوء والارتقاء على المبادئ التي قررها داروِن في مذهبه لانه لم يكن يعلم حقيقة نسبتهِ الى هذه الطبيعة ولا نسبة الطبيعة بعضها الى بعض ولم يكن يقدر النواميس الطبيعية حق قدرها في ذلك كله .

ولما قمت ابث هذا المذهب بيننا ولاسيما ما بني عليه منذ سنة ١٨٧٦ لم يكن له اتباع ولا مؤلفات في اللغة العربية بل كان انصاره حتى في اوربا نفسها لا يتجاوزون عدد الاصابع وكان خصومه من العلماء انفسهم يفوقون حد الحصر فلم يكن سوى داروِن رجل القرن الماضي الاعظم الذي نظر الى الجهة العلمية فقط ليقرر تكوّن الانواع في الاحياء بالتحول والارتقاء من اصول قليلة لم يتعرض لكيفية نشوئها الاصلي سوى انصاره هكسلي وبخنر وهكل الذين وجدوا حالًا في هذا المذهب مسنداً علمياً قوياً للعلم المادي والفلسفة المادية ؛ وسوى سبنسر الذي شاد عليه علم الفسيولوجية وتوسع فيه الى اقصى ما ترمي اليه نظرياته الكبرى . وقد دامت نار الحرب بين العلماء في اوربا مستعرةً اخذاً ورداً ونفياً واثباتاً ودحضاً وتأييداً من سنة ١٨٥٩ الى حوالي سنة ١٨٩٠ والعلماء يدخلون في هذا المذهب افواجاً ، وعم ايضاً حتى اطلق على كل الكون على العالم المادي وعلى العالم المعنوي ، على العالم

الطبيعي وعلى العالم الادبي بحيث لا تمر اليوم بالانسان مسألة جليلة او حقيرة اجتماعية او علمية او فلسفية الا وتجد لها في هذا المذهب حلًّا في كيفية نشوئها وتحولها حتى مصيرها ايضاً وكان ذلك عوناً كبيراً لتعزيز العلم الطبيعي ودعامة قوية للفلسفة المادية في الكون .

ومن أول ما طرقت هذا المذهب طرقته من هـذه الجهة القصوى في مباحث مختلفة نشر بعضها في الجرائـد واكثرها في مجلة المقتطف حتى سنة ١٨٨٤ حيث نشرت اصل هذا الكتاب اولًا تحت اسم شرح بخنر على مذهب دارون .

وقد احدث نشره لغطاً عظيماً مع انه لم يطبع منه الا خمسمائة نسخة لم تنفد الا بعد خمس عشرة سنة – لغطاً كان قليله من الخاصة المعدودة فقامـوا ينفونه كله او بعضه كل على قدر علمه او حسب هواه ، وكثيره من العامة الذين اكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة لانهم سمعوا ان فيه مساساً بأعز شيء لديهم .

. . . على ان هذه الرجة التي حصلت حينئذٍ هي المقصودة مني في ذلك الحين لايقاظ الافكار من نومها العميق والحركة مهما كانت خيرٌ من السكون . ومن منا نحن الشرقيين اليوم اولى بهزة تصل فينا الى اعماقنا وقد تقادم علينا السبات حتى بتنا في رتبةٍ في صف الاحياء لا هي بالميتة فتدفن جثةً هـامدة ولا هي بالحية فتبعث بشراً سوياً .

انت متمسك بما نشأت عليه

كم انت متمسك بما نشأت عليه ؟ فانا كنت مثلك واكثر . وما استمساكك به عـن تروٍ في اول الامر لانك كنت صغيراً لا تستطيع ان تقيم احكاماً لك من نفسك تستقر عليها ، بل عن اعداد لـك بالتربية وانطباع فيك بالوراثة .

فالتربية تجد الطفل ليناً غير قاسٍ. فلا تجد صعوبة في تكييفه فتؤثر فيه تأثير الطابع في الشمع . وبالتكرار والاستمرار يستقيم المرء على المطبوع وينفر اذا حاولت تحويله عنه كما يستقيم العود على اعوجاجه وينكسر اذا حاولت تقويمه . وعليه المثل « العلم في الصغر كالنقش في الحجر » . ثم ينتقل هذا التكييف في النسل بالوراثة فيولد الطفل وبه استعداد للميل مع هذا الانعطاف او ذاك .

ثم لما كبرت وصرت قادراً على التفكر لم تفتكر غالباً لتمحيص ما نشأت عليه . بل كنت دائماً تجهد كل قوى عقلك لتأييده كلما دعا داعٍ الى ذلك . بحيث لم تكن في احكامك مستقلًا البتة عن فعل المؤثرات التي نشأت عليها من التربية البيتية والمدرسية والاجتماعية . ولهذا كان اكثر الناس غير مستقلين في احكامهم خاضعين فيها للمؤثرات السابقة المكسوبة والراسخة فيهم مهما اتسعت دائرة معارفهم وسمت مداركهم . ولا يشذ عن ذلك الا النزر اليسير لاسباب خاصة تخف فيها عليهم وطأة هذه التربية . واشد هؤلاء استقلالًا اذا سهت مداركهم قليلًا يرجعون في عواطفهم الى ما يسمونه بديهاتهم المكسوبة عن هذا السبيل . فيناجي الكافر ايمانه ويقع المصلح الاجتماعي في خطإ النظام الذي يشكو منه حتى اذا فكر قليلًا انكر عمله هذا على نفسه وهذا يدلك على ما للتربية الاصلية من السطوة على العواطف والعقول . وكثيراً ما يتخذ ذلك اصحاب هذه المبادئ دليلًا على صحة مبادئهم ويقولون ان مثل هذا الانعطاف الذي يعبرون عنه بالوجدان ايضاً غريزي في الانسان فلو لم يكن صحيحاً لما كان ذلك . والحال ان ما نشاهده في الطفل الذي لا يزال على الفطرة لا يؤيد هذا القول بل ينافيه في اكثر الاحيان فما منا الا من سمع من اطفال عند اول نطقهم اعتراضات ضد مبادئنا المقررة كثيراً ما يتعوذ منها الجاهل ويبتسم لها العاقل ولكننا نصرفهم عنها بما لنا عليهم من السلطة حتى يقروا اخيراً على ما هو مقرر عندنا .

خطوة في العلوم

ولقد كان كل شيء غامضاً على الانسان في اول الأمر وكان ينحو في تعليله منحى القول بالقوى المجردة فاخذ يتعرفهُ شيئاً فشيئاً حتى تبيّن كثيراً من هذا الغامض وردَّه الى قوى الطبيعة . ومن هذه المباحث الغامضة التي لا يزال كثيرون يعتقدون روحانياتها حتى اليوم ظواهر بعض الامراض العصبية كالصرع والهستيريا التي تجعل الانسان يأتي اعمالًا غريبة لا يستطيعها الانسان في حال الصحة فينبئ بامور خارقة العادة . فطالما اعتبروها حالات ناشئة عن ارواح نجسة فعالجوها بانواع التعذيب لطردها من الاجسام الحالَّة فيها فان تعذر عليهم ذلك — وكثيراً ما يتعذر — احرقوا المصابين بها غير مشفقين عليهم .

ومنها ايضاً الانفعال الغريب الذي يكون في البعض فيشعرون بما لا يشعر به سواهم مما هو غير مألوف فيحملونه على فعل الارواح . ومن الاسف ان كثيرين من العلماء الذين لم يستطيعوا التخلُّص من مفعول تربية الأوهام التي نشأوا فيها في صغرهم ساعدوا العامة على تمكين هذا الوهم فيهم . وكثيرون منهم لا يزالون حتى اليوم يشتغلون بفن مناجاة الارواح لمخاطبة ارواح الموتى ويتخبطون فيه على غير هدًى مخدوعين للمشعوذين تارةً وواهمين في انفسهم اخرى .

ولقد ازاح الطب هذا الوهم عن المصابين بالامراض العصبية . ولقد مهد العلم الطبيعي السبيل لتفهم الخوارق الاخرى التي يتراءى انها فوق طور العلم الحقيقي كقراءة الافكار ومطلق الشعور عن بعد حتى قرع الاوهام ومناجاة الاحلام التي يطلقون عليها اسم مناجاة الارواح . واول ما كتبت في هذا الموضوع رادًّا مفعول القوى الروحانية المزعومة فيه الى الاسباب الطبيعية كان في سنة ١٨٧٦ على اثر حادث من هذا القبيل اقام الجرائد في انكلترا واقعدها حتى اهتمت الجمعيات العلمية

بالبحث فيه مما يدل دلالةً واضحة على الميل المتأصل في البشر بالوراثة والتربية الى سرعة الاندفاع مع هذا التيار لاقل عارض يعرض لهم ويشكل عليهم تعليله تعليلاً طبيعياً . ومن السهل تغيير الغريب باغرب منهُ لديهم حينئذٍ كأنه لا يجوز لهم ان يقرروهُ وان يضعوا وراء تعليله الطبيعي علامة الاستفهام . وكنت يومئذٍ في الاستانة وكانت كتابتي باللغة الفرنساوية[1] ولقد خطونا من ذلك الى اليوم خطوة واسعة في العلوم الطبيعية جعلت فهم ذلك علينا ايسر كذلك .

وان بقي عندك ريب فقل لي

وان بقي عندك ريب فقل لي :

اولاً : لماذا هذا الاختلاف في الاحياء باختلاف جنس المعيشة والاقليم وما شاكل ان لم يكن فيها ميل الى التغيّر بحسب الاحوال الخارجية ولماذا نفس هذا الميل الى التغيّر ان لم يكن هو اصله ناشئاً عن مثل هذه الاحوال .

ثانياً : لماذا هذا التنازع بين الاحياء ان لم يكن هذا الاختلاف يكسبها قابليات وجودية مختلفة بعضها اصلح من بعض في بعض الاحوال وغير صالح في البعض الآخر .

ثالثاً : إن لم يكن الانتخاب الطبيعي نتيجة لازمة للتنازع فلماذا كان هذا النوع مثلاً لا يقوى على الثبات في مكانٍ ويقوى عليه في مكانٍ آخر او لماذا كان بعض الانواع يضعف وربما تلاشى امام البعض الآخر .

رابعاً : ان لم يكن للوراثة الطبيعية يدٌ قوية في نقل الصفات فلماذا كانت الصفات الطبيعية والادبية العارضة كالعيوب والالوان والامراض والاميال العقلية

(١) وقد نشر ذلك في جريدة الكوريه دوريان التي تطبع في الاستانة بتاريخ ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ .

وسائر الصفات المسمّاة أدبية تنتقل في النسل واذا توفّرت لها الاسباب الطبيعية كجنس المعيشة والاقليم والتوليد فلماذا كانت تنحصر في النسل وتصير لازمة ضرورية اي جوهرية .

خامساً : لماذا كانت الاعضاء والصفات تضعف وربما تلاشت بالإهمال والترك وتنمو وتقوى بالاستعمال والتمرين ان لم يكن للعادة تأثير ظاهر . ولو لم يكن للعادة مفعول لما اقتضى ان يكون شيءٌ من ذلك كلهِ . اذكر اني من ثلاث سنوات ٍ شاهدت رجلًا المانياً اقطع الذراعين خلقةً من عند قرب مفصل الكتف وسائر جسده نامٍ جدًّا وكان طويلًا ضخماً فكان يستعمل رجليه لقضاء جميع حاجاته كاستعمال امهر الناس ليديهِ ويأكل بالسكين والشوكة برجليه وهو جالس على المائدة ورافعهما عليها حتى كان يتعذّر على من يجهله ان يعرف انهما رجلاه ؛ ورأيته يلعب بهما على (المندولينا) وهي آلة كالقانون عندنا واصغر منه بما يطرب القلوب ويذهل العقول . وفتح بهما زجاجة بيرا بالآلة المعروفة ولعب بالورق مع أحد الحضور باللعبة المعروفة (بالأكرته) فكان يخلط الورق برجليه وهو رافعهما على مائدة اللعب خلطاً يعجز عنه مهرة اللاعبين وزد على ذلك انه كان يجمعه بصناعة غريبة حتى انه غلب خصمه مع كونه من الماهرين بهذا الفن وقد اطلق برجله رفولفراً واصاب الهدف بالرصاص وعند تاملي اصابع رجليه وجدت ان الابهام اكتسب بالعادة قوة الانضمام الى سائر الاصابع كابهام اليد والاصبع الثاني بعد الابهام اكتسب طولًا يكاد يبلغ طول السبّابة وان هذا الرجل اذا ولد اولاداً بلا يدين مثله وولد اولاده مثلهم على بضعة أجيال تتحول الرجل فيهم بالوراثة والمطابقة يداً بكل صفاتها . لان التغير الذي حصل في رجليه كما رأينا مهم جدًّا والزمان الذي تم فيه ذلك ليس شيئاً بالنسبة الى الاجيال الطويلة لتاريخ الحياة فانه لا يكاد يحسب معها طرفة عين .

سادساً : كم هي الانواع وهل جمهور الطبيعيين متفق على عددها واذا كان غير متفقٍ فلماذا هذا الخلاف . وهل من فاصلٍ يفصل النوع عن التباين فصلًا

تاما واذا كان هذا الفاصل لا يوجد فما سبب هـذا الارتباط ان لم يكن تكوُّن الانواع من التباينات والتباينات من الافراد .

سابعاً : واخيراً، لو كانت الانواع نتيجة خلق خصوصي لما اقتضى ان يكون فيها شيءٌ من الاعضاء المسماة اثرية او لم يكن من الواجب ان كل نوع يتضمن فيه وفي جرثومته كل الاعضاء اللازمة له لا اكثر ولا اقـل . والا فما معنى الخلق على هذه الصورة واين الحكمة وما هي الغاية وهل يمكن تعليل هـذه الاعضاء تعليلًا يرضي العالم ويقنع العاقل بغير مذهب دارون. اليست رابطاً يربط الصور بعضها ببعض وبما تقدمها من الاجداد البالية التي تقادمت عليه العصور وتقلبت عليهـا الدهور . ايحتاج بعد ذلك الى دليل على كون الحيّ متصلًا بعضـه ببعض بسلسلة انتقالات وان خفيت في البعض لاسباب طبيعية معلومة الا انها ظاهـرة في البعض الآخر بما يصح معه القياس ويتأيّد بهِ البرهان او يا ترى لا يجوز للطبيعيين القياس على الاختبار ويجب لسواهم بدون ذلك ام هل يُعدُّ مثل هـذه المعلومات افتراضات واباطيل واضاليل وغيرها مما لا يستند الى شيء من العلوم الطبيعية يحسب حقائق .

اسمع غمغمة !

وانا اسمع من هنا غمغمة وارى اناساً يقومون ويقعدون وخاصة وعامـةً يهزأون او يسخطون وربما قام منهم مُتحمسون تحدثهم نفوسهم لو انهم لا يصـبرون . وكاهم يقولون كيف تريد ان تعيضنا بعلمك المقيّد وفلسفتك المحدودة عن ذلك العلم المطلق وتلك الفلسفة التي لا تقف في سبيلها عند حدّ بل تخرق حجب المـادة وتتطلّع الى ما وراء المنظور . بل كيف تريد ان تصرفنا بماديّتك الارضية وتصوراتك الترابية عن تلك المصابئ العالية والافكار السامية التي يناجي الانسان بها امانيهُ بل اماله بل نفسه وربه اذ يصعد بالخيال الى سماء المآل ويراها بذلك الجمال في فراديس الآمال ؟

وهل يجد العقل فيها تلك اللذة التي يجدها في هذه ؟ ام هل يجد وجدانه فيها تلك الراحة التي يرتاح اليها ؟ واين عظمة كتب العلماء من عظمة كتب الانبياء ؟ بل اين جمال مصنوعات تلك المشهودة من جمال موضوعات هذه الموعودة ؟ بل اين مقدرة علوم اولئك المقيدة من مقـدرة مواهب هؤلاء المطلقة ؟

ام هل تُقاس كتب القصاصين الطبيعيين اليوم ام اي مؤلفٍ آخر يؤلفهُ أي عالم في الهواء والماء والتراب لتقرير ما فيها من الحقائق او في المحراث والمعول والعمل لبيان ما فيها من المنافع بكتب اساطين الادب ولاسيما القصّاصين الفرنسويين الذين احرزوا قصب السبق اليوم في ميدان « الرومان » حتى بلغ منهم التأنق في السبك والدّقة في الوصف والرِّقة في التصور أنهم وصفوا الخيال بأرق من الخيال ؟

بل اين اشعار المعري التي تكاد تنقصم صلابةً من اشعار الفارض التي تكاد تذوب رقةً ؟ بل أين وقعها في النفس من اشعار شكسبير الموضوعة وما يتخللها من الخيال الرائع الذي يستفز الطبع ويستهوي العقل ؟ بل اين جمود قولك هذا :

لازم الموتَ في الوجود حياة　　لازمت في وجودها الموت قسرا
حاول الناس منعهُ وبمنع الموت　　منع الحياة في الكون طرًّا

من لين قولك هذا :

وحكم من يزدري بحياةٍ　　كل يوم تزداد بالطول قصرا

بل اين فتور كل ذلك من حرارة هذا القول الحماسي :

اذا استلَّ منا سيدٌ غرب سيفهِ　　تفزّعت الافلاك والتفت الدهرُ

بل اين جفاف مثل قولك هذا العلمي :

وما الحب من أدنى فاعلى على الرجا　　فما فوق إلا الشوق في كبد النهى
ترقى بنا حتى النهى وهو دونها　　كما في نيوب الليث أو في حشى الثرى

من طلاوة هذا القول الخيالي :

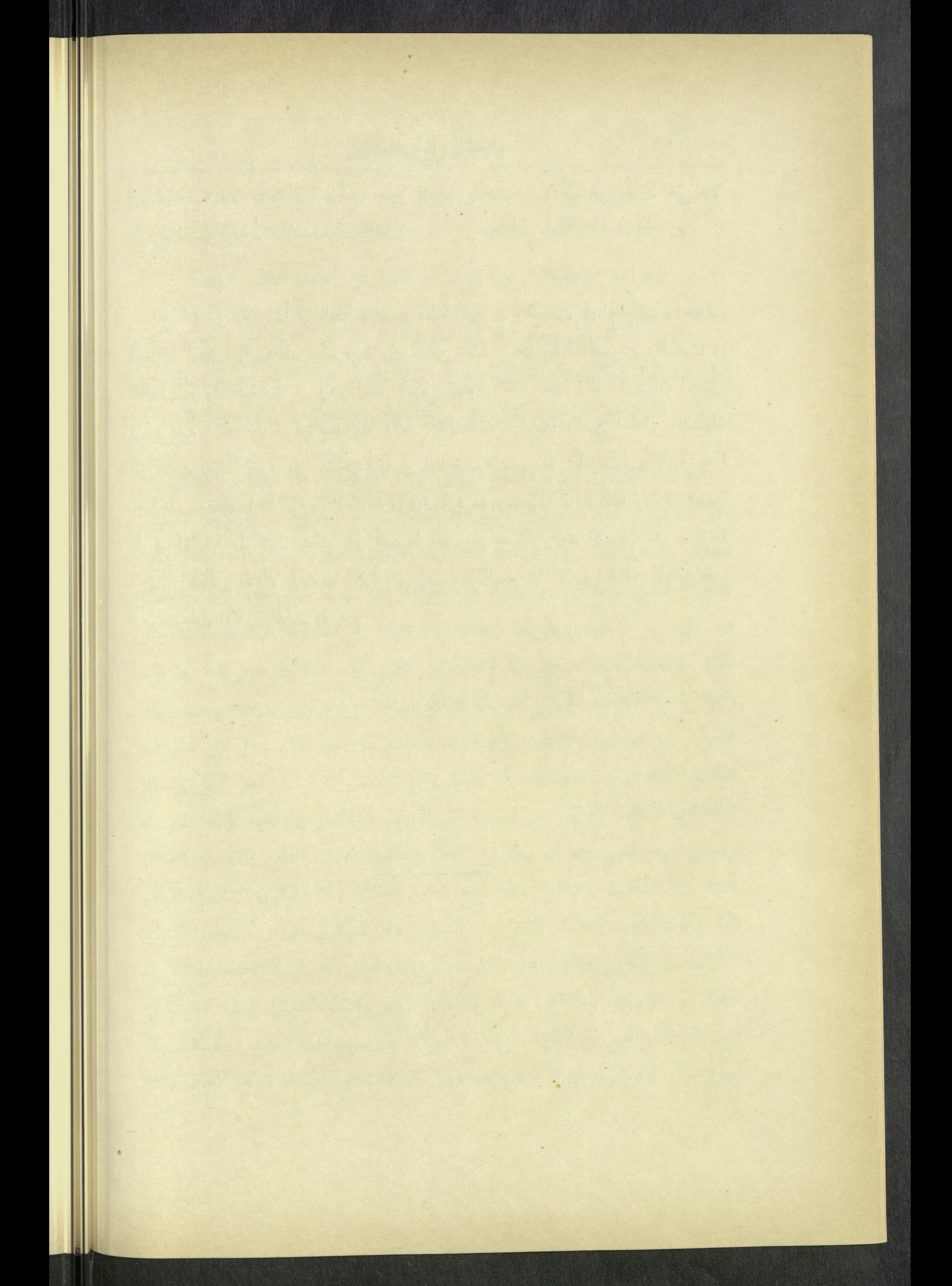
وهززته بقصيدة لو انهـا تليت على الصخر الاصم لأعذقا

بل اسأل اي فتى متعلم او اية فتاة متعلمة ان تقرأ فصلًا في مخترعات الكهربا قبل ان تقرأ رواية من سقط الوضع . بـل اسأل عالمًا اليوم ان يقرأ مقالًا في تحوُّلات المادَّة قبل ان يقرأ كتاباً في مناجاة الارواح فانك لا تفلح ولماذا ؟

لأن لتكيّفات الطبع والعقل الشأن الاول في اعداد ما فيهما من القابليات . وأثر الخيال في هذه القابليات اعرق في القدم من أثر الحقائق . فالانسان لم يعرف الحقائق في اول الامر وما عرف الا الاوهام فانطبع فيها وتكيّف لها وشاد بنيانه العقلي والادبي عليها ونسج كلامه على منوالها فصارت لا ترتاح الى مباحث الحقائق ولا تلتذ بها كما تلتذ بموضوعات الخيال لان اللذة والراحة انما هما المطابقة بين فعل الفاعل وقابلية القابل . حتى ان لغته نفسها تضيق بهذه المباحث فليس لها فيها تلك السلاسة ولا تلك السعة التي احرزتها في المباحث الأدبية وحتى ان عقله يتعب منها . فالقول ان تصورات الاحلام يلزم الاستمساك بهـا لانها تبدو أجمل من تصورات الحقائق وانها اصح كذلك لان الوجدان يرتاح اليهـا . وان ترويض العقل بمباحثها الكلامية التافهة انفع لنا من تدريبه على البحث في المحسوس المفيد لانها اعذب له واسهل عليه يقتضي منه ان يكون كذلك الكذب عـلى النفس انفع من الصدق لهـا وان تكون الأوهام نفسها انفع لنا من الحقائق وان يكون الاشتغال بالكلام الفارغ والمناقشات العقيمة افضل من العمل ، وان تكون اضاعـة الوقت بتنميق المقالات الخلافيَّة في مسائل جدليَّة لترسيخ الميل في العقل الى المباحث النظرية المجرَّدة افضل من الاشتغال باختراع آلة لجر الاثقال، وان يكون الطيران بمناطيد الخيال في قبب الاحلام انفع من الطيران بمناطيد الصناعة في فسيح هذا الفضاء . فكيف لا تسوء حال الانسان الذي لا ترتاح نفسه إلا الى ذلك في العمران ؟ فلا الحيـاة مما

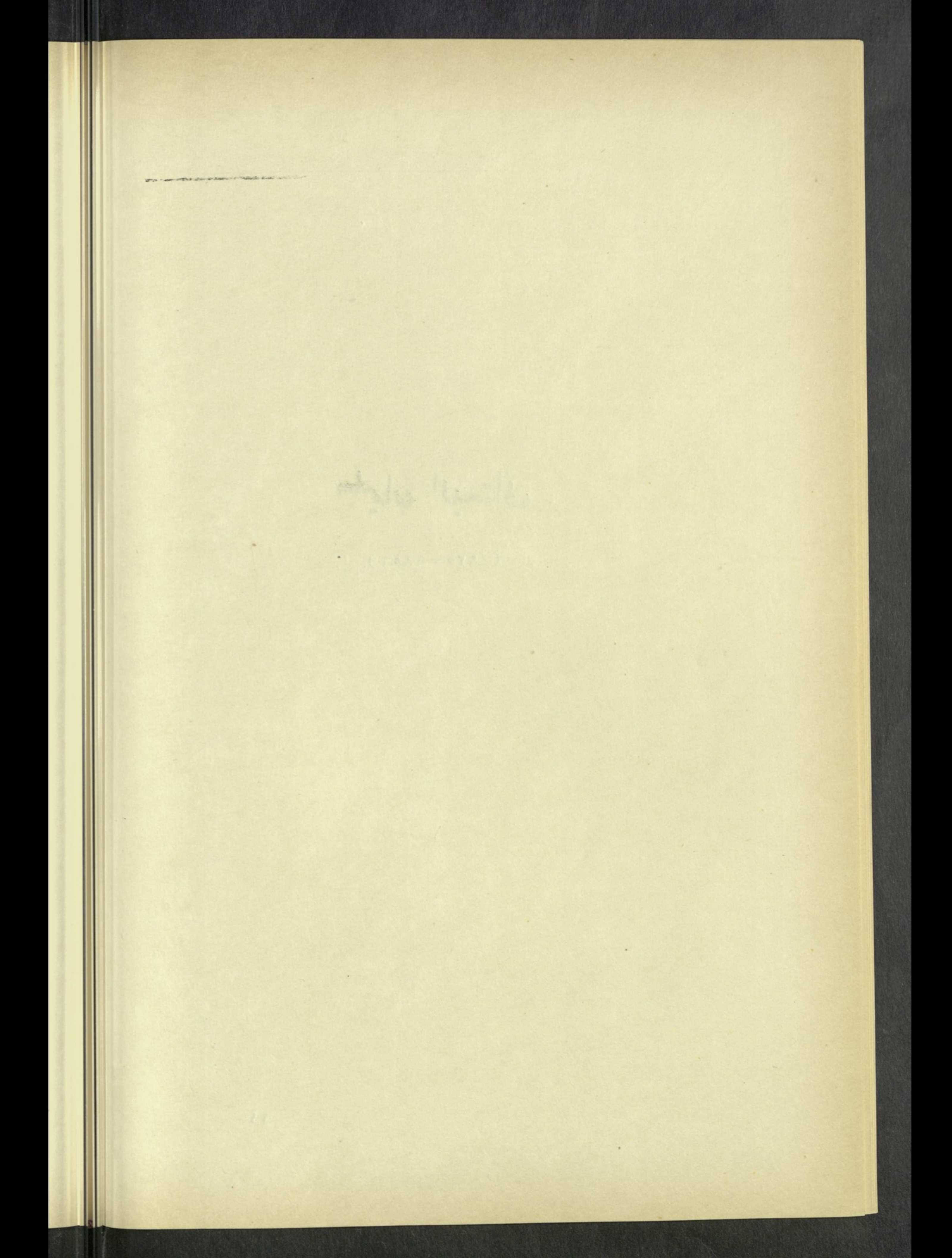
يزدرى بـه ولا الافلاك تتفزّع ، ولا الدهر يلتفت ، ولا الصخر يغُدق حتى ولا المروج نفسها تورقُ بمثل هذا الكلام .

فكما ان ذاك نشأ في العقل والطبع بغلبة الغريب والبحث في الماهيَّات والحقائق المجردة اولًا فهو سينقلب ضرورة متى تمكَّن الضد فيهما بغلبة المحسوس والبحث في الطبائـع والكيفيات . وهو آخذٌ اليوم بالتحوّل كلما اخذ نظر الانسان الماديّ يتقرر فيه اكثر . وسوف يبدو له ذلك الجمال سخيفاً قبيحاً وتصير الحقائق البسيطة التي لا صبر لنا اليوم على التبحّر فيها او اننا نزيدها مبهرجةً مماً يستحبُ الينا جدًّا او تجلب مطالعتها لنا الراحة المطلوبة واللذة المرغوبة وتتحول لغاتنا اليها ويتغير منهجنا في بسطها من المركب المعقد الى البسيط الصريح حينئذٍ يجد الانسان في مطالعة كتب الحقائق لذة لا تدانيها اللذة التي يجـدها اليوم في كتب الخيال الموضوعة ، وموضوعات الادب المصنوعة .



سليمان البستاني

(١٨٥٦ — ١٩٢٥)



حكاية المعرّب في تعريب الالياذة

سألني الجم الغفير من اصدقائي الادباء كيف عربت الالياذة ومـا حداني الى تعريبها، فكتبت الفصل الآتي ولعله لا يخلو من فائدة لمن قضي عليه ان يسير في مثل هذه العقبة ·

كلِفت منذ الصغر بمطالعة الشعر القصصي ولاسيما ما تعلق منه بالخيالات وعبارات الاقدمين · ولما كانت لغتنا تكاد تكون خلوًا من ذلك الشعر وفروض الدروس تستنزف الوقت ولا تبقي معها بقية لقراءة ما شذ من مثل ذلك عن معيّناتها فتحول دون استقاء المياه من مواردها كنت التقط ما سقط عرضاً من افواه الاساتذة او ورد شاهداً في كتب التدريس · فاجتمعت لديَّ نبَذ ضمنتها بعض قصائد لفقتها ولم اتم العقد الثاني من اعوام الحياة · ولا يطالبنّي المطالع اللبيب بامثلة من تلك القصائد فحسبي هزء نفسي بي دون هزءه اذ لا اتمالك من الضحك كلما خطر على البال شيء مما علق في الذاكرة · فهنالك يمٌّ مختبط اختلطت فيـه الهة الكلدان بالهة اليونان والرومان وانزلت معبودات مصر موضع معبودات الهند والصين واشتبه الذكور بالاناث والتبست الاعلام الافرنجية بالاسماء اليونانية على نحو ما دوّن الكتبة في كثير من اخبارهم عن امم القرون الخالية · وهـذا ولا بدع شأن كل كاتب تطاول الى فنّ دخله من غير ابوابه ·

فلما حكمت نفسي واصبحت متصرفاً مطلقاً في استعمال اوقات العطلة ادركت انني لم اعرف شيئاً مع سابق الظن بسعة الاطلاع فانتهيت الى حيث كان يجب ان ابتدئ · فعمدت الى تلك المنظومات ولم اكن بعد قرأت شيئاً منها قراءة صحيحة ما خلا « الفردوس الغابر » لملتُن وقرأت جميع ما وصلت اليه كل كتاب

بلغته اذا كنت من قرائها والا فبترجمته الى لغةٍ اعرفها وكنت كلما قرأت منظومة من المنظومات القديمة والحديثة زاد اعجابي بالالياذة لانها وان كانت اقدمهنَّ عهداً فهي لا تزال احدثهنَّ رونقاً وابهرهن رواء واكثرهن جلاء واوسعهنَّ مجالاً، وابلغهن جميعاً . نسج صفوة الشعراء على منوالها فلم يبلغوا شأوها واستقوا من بحرها فملأوا بحارهم ولم ينقصوها شيئاً .

فقلت ما احرى لغتنا العربية ان تحرز مثالاً من هذه الدرّة اليتيمة فهي اولى بها ممن تناولها من ملل الحضارة. فليس في شعر الافرنج ولغاتهم ما يوفر لها اسباب البروز بحلة اجمل مما تهيئه معدات لغتنا . فالشعر اليوناني بلغة قريبة الى الفطرة كلغتنا والبحث في جاهلية قوم كجاهليتنا . وليس في شعراء ملة من الملل من انطبقت معانيهم على معاني الالياذة بالحكمة والوصف الشعري كالمتقدمين من شعرائنا .

فناجتني النفس بتعريبها مع علمي بخطورة الموقف ووعورة المسلك وطول الشقة وقلت تلك ملهاة تقضى بها اوقات الفراغ . فاذا فتح الله وفسح في الأجل زففتها الى القراء . والا فلا اقل من ان اروّض نفسي بها وهي خير ما تروّض به النفوس. وعزمت منذ نظمت اول بيت منها على ان لا اغادرها حتى آتي على آخرها .

تعريب الاصل

خططت لنفسي خطةً وقلت لانظمنَّ منها امثلة من حيث اتفق لي واعرضها على الادباء، فاتنسم ما يكون من وقعها في النفوس واتبيّن مواطن الخلل فخيرٌ لي ان اتبينها قبل التوغل في العمل . فتوكلت على الله وعمدت الى ترجمة فرنسية منها كانت بين يديَّ وألقيتها الى جانب ترجمة انكليزية واخرى ايطالية وفتحت الكتاب الفرنسي من ثلثه الاول فاذا بأخيل واغاممنون يتخاصمان واخيل ينهال على اغاممنون بالسباب والشتيمة فنظمت الابيات التي مطلعها :

يا مليكاً بنشوة الراح مُثقَلْ . . . (ص٢٢٢) فعربتها على الطريقة المألوفة في النظم وكانت اول ما نظمت من الالياذة . وذلك في اخريات سنة ١٨٨٧ بمصر

القاهرة . ثم فتحت الكتاب من ثلثه الثاني فاذا بي في معترك عنيف في اول النشيد الخامس عشر فنظمت القصيدة التي مطلعها :

تجاوزتِ الطرواد حد الخنادق يعلمهم فيها حسام الاغـارق

فكانت قصيدة طويلة توثقت بها من اتساع اللغة للمعاني والقوافي ونهجت فيها نهجاً جديداً مما كنت اعددته في ذهني وستراه مفصلاً في باب « النظم في التعريب »

ثم فتحت الكتاب من ثلثه الاخير فاذا بي في الصفحـة الثالثة من النشيد الثالث والعشرين فرجعت الى اوله ونظمت منه نحو مئة بيت رجزاً مصرعاً ومقفى على اسلوب استحسنته وحسبته وافياً بمرامي لتعريب كل النشيد على سياقه .

فحملت جميع ما تجمع لديَّ من القصائد الثلاث بمسوّداتها وجعلت اعرضها على من زارني وزرته من الادباء والشعراء ممن الف الشعر العصري ومن نشأ على انتهاج الشعر القـديم فاستحسنوا وجاملوا فزدت بمجاملتهم نشاطاً . وانست من بعضهم ريبة وخشية عليَّ من الملل والقنوط لوفرة ما يتبع هذا العمل الشاق من العناء الفادح وكثرة ما يستلزم من النفقات لو مُثّل بالطبع وليس قرّاء العربية وطلّاب امثال هذا الكتاب ممن ينشّط على المجازفة بمثل تلك النفقات وشق النفس وضياع الاوقات : على ان ذلك كان اقل ما تجزع له نفسي اذ اقدمت وليس بي جشع للربح من وراء هذا العمل بل انا راضٍ بالخسارة لو حصلت ليس ذلك ترفعاً عن الكسب ولكن لغرام في النفس تستسهل الصعب في سبيله . فقلت لقد حان اذاً اوان الشروع فرجعت الى اول نشيد واخذت في النقل تباعاً حتى اكملته ونظمت نصف النشيد الثاني . وكنت اثناء النظم اقابل الترجمات بعضاً ببعض فأرى فرقاً يصعب عليَّ معه تبيّن الرجحان لنسخة دون اخرى . فاوقفت النظم وقلت لا بد اذاً من الرجوع الى الاصل اليوناني اذ لا يصلح النقل من غير اصله .

وكانت معرفتي باليونانية قاصرة اذ ذاك لا تكاد تتجاوز القراءة البسيطة وبعض اصول ومفردات لا تشفي غليلاً . فأخـذت الجث عن استاذ يروي غلّتي

فارشدت الى عالمٍ من الآباء اليسوعيين وأُبلِغت انه متضلعٌ باليونانية تضلعه بالفرنسية . وكنت اعلم ان الآباء اليسوعيين لا يسعهم التفرغ لالقاء دروسٍ خاصة خارج مدارسهم فكان لا بد اذاً من رضاء الاستاذ واذن الرئيس فوفقني الله الى الحصول على الامرين فشكرت لهما هذه المنة وجعل استاذي يلقنني اصول اللغة ويفسر لي فصولًا من الالياذة وانا مكب على الدرس متفرغ للاستفادة . وبعد ان قضيت معه اشهراً وعلمت منه انه يسعني ان استتم الدرس وحدي وانا اتناول تعريب الالياذة من اصلها مع الاستعانة بكتب اللغة وتفاسيرها فارقته شاكراً ولبثت مدة اجهد النفس بالمطالعة ثم استأنفت التعريب

وكان بنفسي شيء مما عربته من النشيد الاول والثاني فرجعت الى امعانِ النظر فيه ومقابلتهِ على أصله فرأيت خللًا الجأني الى التنقيح والتصحيح فكنت لا احجم عن تغيير البيت والبيتين وربما اعدت نظم مقاطع برمتها . ولم يقع لي شيء من هذه الاعادة في سائر الأناشيد الا ان يكون في استبدال فقرة او شطر بغيرهما او تغيير قافية باخرى مما يقع لكل ناظم . وفي ما سوى ذلك كنت اجهد النفس باحكام البيت على قدر الاستطاعة قبل كتابته .

ولم اكد استقر في مصر حتى حدا بي حادي الاسفار التي الفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغف بها وحنينٌ اليها . فانتهى بي التطواف الى العراق بعد ان طرقت الهند واطراف العجم فاقمت فيها زهاءَ سنتين اضطررت الى طي الالياذة في معظمها ولم يتسنَّ لي العود اليها الا بضعة اسابيع . على انني لم اجتمع باديب منها الا عرضت عليه شيئاً من منظومها وادباء العراق مولعون بسماع الشعر .

ثم شخصت الى الاستانة واتخذتها مقاماً طيباً لبثت فيه سبع سنوات كنت كثير التنقل في اثنائها بين الشرق والغرب فيوم بسوريا وسنة باوربا وامركا والمرجع الى الاستانة وكانت الالياذة رفيقي حيثما توجهت اختلس الاوقات خلسة فلا تفرغ اليد من عمل الا عدت اليها . ولطالما مرت الاسابيع والاشهر وهي طي الحجاب

ثم هببت بها من رقدتها وعاودت العمل وكثيراً ما حصل ذلك في رؤوس الجبال وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد فهي بهذا المعنى وليدة اربع اقطار العالم.

وكنت حيث حللت اتوخى الاستفادة من اهل ذلك المحل ولاسيما في الاستانة حيث هيأ لي حسن التوفيق ان اتصلت ببعض ادباء اليونان عشاق هوميروس والياذته كاستاڤريذس ترجمان السفارة الانكليزية وكاروليذس احد اساتذة كلية خلكي اليونانية بالاستانة وبعضهم من قراء العربية فكنت اشاورهم في بعض ما التبس واغلق وهم لا يضنّون واقرأ لهم اجزاء من المنظوم العربي فتعروهم هزة الطرب مستبشرين بتعريب اعظم منظومة لاعظم شعرائهم .

وهكذا ظللت بين وقوفٍ ومسير الى اول صيف سنة ١٨٩٥ فخرجت بعائلتي الى مصيف فنار باغجه في ضواحي الاستانة وظللت فيها اربعة اشهر فرغت في نهايتها من عناء التعريب .

النظم في التعريب

لا بد للشارع في تعريب منظومة كالالياذة او نظم ملحمة على مثالها من ان يقف طويلًا ويتردد برهة قبل ان يعيّن اوزان منظومته وقوافيها وليس لنا في اوضاع السلف اصولٌ نرجع اليها في مثل هذه الحال . وهيهات ان يتسنّى وضع مثل هذه الاصول فيتقيّد كل بحر من بحور الشعر ببابٍ من ابوابه او تعيّن كل قافية من القوافي لمعنًى من المعاني .

فقد نظم العرب كل معنى على كل بحر وكل قافيةٍ واجادوا . والقريحة الجيّدة نقادةٌ خبيرة اذا طرقت باباً انفتح لها ملء رغبتها فتقع على البحر والقافية وهي لا تعلم من اين تأتّى لها ان تقع عليهما وانما هو الشعور الشعري يدفعها الى حيث يجب ان تندفع .

فالشاعر المجيد اذا تصوَّر امراً فانما يتصور له ذلك الأمر على كماله فتهيّئ له السليقة جمال الشكل كما هيَّأت له جمال المعنى فيجتمع له احكام التناسب بين اللفظ والمعنى والوزن والقافية . فكل بيت بنى عليه قصيدته فهو الأساس الذي يصح ان يستند اليه ويبني عليه .

ولا يخرج عن هذه القاعدة الا الشعر المنظوم لاغراض معلومة ودعت الحاجة الى تقييده بقيود لا مناص له منها كالأراجيز المنظومة في العلوم وبعض الموشحات والاغاني المربوطة بانغامٍ معينة فالشاعر مقيد فيها بنمطٍ لا يتيسر له العدول عنه الى غيره .

وفي ما سوى ذلك فالشاعر مطلق اليدين يتصرف بالشعر كيف شاء وله ان يرتضي ما تيسر له من الاوزان والقوافي وهي في الغالب تبرز له من نفسها بشكلها الأنيق وقوامها الرشيق .

على ان قريحة الشاعر وان كان مجيداً ليست كيد النساج تنطلق في العمل ايَّان حركها العامل . فقد يضطرب الجنان وينحبس اللسان والذهن وقاد . وقد يكون القلم سيَّالاً فيجف فيه المداد . فالامساك عن النظم في مثل هذا الاعتقال خير من اجهاد النفس فلا يلبث العقال ان ينحل من نفسه . واذا طال الخمول فليشحذ الشاعر قريحته بتلاوة جيد الشعر فهو كالجلاء للسيف الصدىء .

ولكنه قد يحصل خلاف ما تقدم فتتراكم المعاني وصورها وتتدفق التخيلات تدفقاً يكاد يذهب بها شتاتاً فيتهيأ للشاعر رسم مطلعه ببيتين او اكثر على ابحر مختلفة فيحار في الاختيار ويميل الى الاسترشاد .

الحاجة ام الاختراع

والحاجة ام الاختراع . فلما كان ابناء هذه اللغة مشتغلين بها كانوا يتقدمون فتتقدَّم ويرتقون فترتقي . فلما وقفوا وقفت وانحصرت سجلاتها في خزائن افرادٍ

من العلماء معدودين . وما كان وقوفها لعجز فيها او نفاد في معدن جوهرها الوضاح . ولكنها عوامل قاهرة اصابت اهلها فاقعدتهم معظم هذا الزمان وما هبت نسمات النهضة الاخيرة في مصر وسوريا حتى اسرع ابناء القطرين الى استخراج تلك الكنوز الدفينة . ولو تتابعت التآليف العلمية التي فتح لها محمد علي وخلفاؤه أرحب الابواب وتواصل تدريس العلوم العالية بها، او لم تُصبْ سوريا بما اصيبت به مصر من ضرورة التقاعد عن وضع المؤلفات العلمية لانتقال الدروس في تلك العلوم الى اللغات الاجنبية لما اعوزنا تعبيرٌ في علم من العلوم او فنٍّ من الفنون، ولما رأيت ناشئة هذا العصر اذا احتاجت الى تعبيرٍ علميّ عمدت الى لسان اعجمي .

ولكن تيار الافكار اذا اندفع بأمة قضّ السدود وتجاوز الحواجز فإن ابناء العربية شاعرون ان حياتهم بحياة لغتهم وقد علموا الآن انه لا مُعين لهم غير انفسهم على بلوغ امنيتهم منها . فاذا اخلصوا النية فلا حائل يصدّهم عن النهوض بها . ولا ننكر انهم اعادوا الكرّة فوثبوا بها وثبة جديدة في هذه الآونة المتأخرة وهذه مجلّاتهم وجرائدهم وقد صعدت في مرقاة الكمال درجات لا عهد لهم بها قبل اعوام . واصبح الكثير من اصطلاحاتها الحديثة « كالمجلة والجريدة والصحافة والمنطاد » مقبولًا عند الخاصة والعامة كأوضاع القدماء . وان في مؤلفات الكتّاب والادباء ما يعد لهم فخراً في هذا الموقف الحرج . واعظم من كل ذلك انتشار الميل الى المدارس الوطنية، فلغة البلاد لا تحيا الا بمدارس البلاد .

والشعر من توابع اللغة ولوازمها فاذا ارتفع شأن اللغة فبشّر الشعراء . على ان مطلب الشعراء يختلف عن مطلب العلماء والمؤلفين فحاجة الشاعر ايسر وموادّها اوفر وذخيرتهُ في دماغه فاذا جلاها العلم كانت له ولبني لغته مورداً صافياً ومنهلًا عذباً . وفي الامة والحمد لله فطاحل خرجوا عن جادّة التقليد البحت فمالوا ميل والزمان واخذوا يسعون الى استجلاء المعنويات سعي رصفائهم الى استجلاء الحسيّات . وما هي الا جولةٌ وتلتها مدة من الزمن حتى تستعيد صناعتهم مقامها الشامخ ومجدها الباذخ .

جرجي زيدان

(١٨٦١ — ١٩٤١)

كان مؤرخ « الادب العربي » و « التمدن الاسلامي » يخصص نفسه للصيدلة ، وبالفعل نال شهادة العلوم الصيدلية من مدرسة الطب الاميركية في بيروت ، ولكن تهيأ له ما صرفه عن ذاك . فعندما نزل مصر عقب الثورة العربية، كان يقصد تكملة الطب . فراح يشتغل بالتحرير في جريدة الزمان لكي يحصل ما يقوم باوده، وكان ان انثنى عن دراسة الطب ، وتعين في قلم الترجمة ثم اشتغل في المقتطف . وبعد ان تمكن من القيام برحلة قصيرة الى لندن وسواها من عواصم اوروبا، وطد النفس على الانصراف الى الكتابة والتأليف . وفي سنة ١٨٩٢ اصدر مجلة « الهلال » متولياً وحده جميع شؤونها . وكان قد نشر قبل ذلك، اي سنة ١٨٨٦، اول كتبه وهو عن « فلسفة اللغة العربية » ، وتوالت من ثم تلك السنوات الخصبة ، وتوزع ذاك النشاط المنتج ، واذا الكتب تصدر من قلم جرجي زيدان في شتى الفروع ، تتناول جميعها الحضارة الاسلامية والاداب العربية، وقد راى ان اجهل الناس لها هو المسؤول عما آلت اليه النفوس من مسكنة في بلد كمصر مثلًا له اوثق الصلات بها .

ووفق له ان يحمل الناس على التعرف الى تاريخهم بواسطة الروايات وهكذا اصدر تلك السلسلة الروائية التي لا تزال لها الحظوة الاولى لدى جمهرة الناطقين بالضاد ، وقد بلغت حلقاتها الاثنتين والعشرين بينها ١٧ رواية مخصصة للتاريخ الاسلامي . ومن اهم كتبه « تاريخ التمدن الاسلامي» في ٦ اجزاء ، وقد بسط فيه باسلوب سهل واضح جملة ما استخرجه العلماء المستشرقون من استنتاجات . واما اهم كتبه فهو « تاريخ الادب العربي » في ٤ اجزاء ، الذي لا يزال مرجعاً في تقسيمه وشموله ، على رغم اختصاراته .

القول والعمل

دع السياسة وانظر في سائر اعمال الناس، فانها تفتقر الى العمل اكثر مما تفتقر الى القول . فمن عزم على تأليف كتاب مثلًا اذا كان من اهل العمل اشتغل بدرسه وتأليفه ولا ينشر خبره حتى يتمه الا ما تقتضيه الحال من مشورة او استعانة . فاذا رأى بعد الشروع به ان يعدل عنه لا تخجله الخيبة . على ان مجرد التحدث بالكتاب قبل اتمامه قد يدعو الى وقفه . ولكن جرت عادة بعض الكتّاب عندنا ان احدهم اذا خطر له ان ينشئ جريدة اعلن عزمه وعيّن الاثمان وعدّد الشروط واخذ في اطراء عمله، ويندر ان يكون مشروعه مبنيًا على اساس متين لان الغالب في القول ان لا يكون فعالًا . فاذا لم يصادف نجاحًا في صحيفته القى التبعة على القراء وطعن في جهلهم وعقوقهم . وزعم انهم لا يقدرون الاعمال حق قدرها وهم براء من تلك التبعة — وان كنا لا ننكر جهل السواد الاعظم من العامة مثل شأنهم في كل امة . ولكن الكاتب الذي وقف نفسه على افادة الناس يجب عليه اولًا ان يعرف كيف يعلمهم فيكتب لهم ما يفيدهم ويشوقهم ويسهل فهمه عليهم، فاذا فعل ذلك استغنى عن اتهام الامة بالعقوق والجهل، ولم يضطر الى الترفع عن خطابهم وحبس قلمه غضبًا وانتقامًا .

كثيرًا ما نقرأ ان بعض كتابنا الافاضل وعلمائنا الاماثل امسكوا عن التأليف او التحرير لانهم يرون الامة جاهلة لا تدرك قدر العلم والعلماء، وان احدهم اذا الف كتابًا او نشر صحيفة لا يصادف اقبالًا ولا يلقى كسبًا . ولا يخفى ان من واجبات الكاتب الحقيقي ان يعوّد الناس المطالعة بطلاوة اسلوبه وحسن اختياره، فيتطامن قليلًا ليأخذ بيد العامي وينهضه اليه، لا ان يجلس على كرسيه متشامخًا ويباعد ما بينه وبينه ثم يعنفه لانه لم يفهمه . وشكوى اولئك الكتاب لا تقتصر على الطعن

في القراء، ولكنها تتناول كل كاتب راجت صحيفته او كتبه لانهم يزعمون ان العامة لا يروج لديهم غير السفاسف والبحوث التافهة . وهذا وهم، اذ لا يعقل ان يكون سبب هذه النهضة اشتغال الكتاب بالسفاسف والقول الهراء . وهذه صحفنا ترتقي وتتقدم نحو الكمال كل عام عما قبله ولا ينكر فضلها في خدمة الوطن وترقية نفوس الامة الا المكابر . اما تقاعد اولئك الكاتبين او ترفعهم فسببه لا نقول قلة البضاعة اذ قد يكون بينهم علماء فطاحل، وانما هو انهم لم يتعودوا العمل، فلما ارادوا خدمة الامة لم يؤسسوا عملهم على قواعد عملية، فاكتفوا بما يبدو من حسن مشروعهم اول وهلة، لما يسمعونه من اعجاب مريديهم ومتملقيهم، وتوهموا ان صدور اول عدد من صحيفتهم كاف لاقبال الناس على الاشتراك من كل صوب فتنهال عليهم النقود انهيال الغيث . فلما صدرت نفثات اقلامهم لم يجدوا اقبالاً سريعاً فتوقفوا عن العمل والقوا التبعة على الفقراء المساكين وطعنوا في الكتاب الآخرين واحتقروا ما يكتبونه وما ينشرونه وقالوا فيه ما قالوه . ولا يشمل هذا الحكم كل من رجع عن مشروع باشره اذ قد يكون رجوع بعضهم اسباب قهرية لا سبيل الى دفعها .

التأليف في اللغة العربية

لا يستطيع من راقب سير العلم بمصر في الاعوام الاخيرة غير الاعتراف بوجود نهضة ادبية كثر فيها المؤلفون وتعددت المؤلفات، وان كنا بالقياس الى سائر الامم اطفالاً في هذا الميدان .

وينقصنا على الخصوص التدرب على البحث والتنقيب والقياس والاستنتاج . فان بعض كتابنا لا يزالون يسيرون في طرق تأليفهم على خطة اسلافنا القدماء . والتأليف في العربية قديم كما جاء فيما بسطناه في كتابنا « تاريخ اداب اللغة العربية» .

وكان لعلماء العربية القدماء القدح المعلى في هذا الباب، لكن لكل عصر نسقاً في التأليف يلائم اهله . فنسق هذا العصر يختلف عن نسق القدماء مثل اختلاف سائر احوالنا عن احوالهم . ونحن في هذه النهضة عوّلنا في اقتباس العلوم الحديثة على اصحاب هذه المدنيّة فنقلناها عنهم، ولهم طرق في التأليف يحسن تحديها لما فيها من التمحيص والترتيب والتبويب مما يسهل عـلى القارئ تفهم الموضوعات وحفظها .

ومع ذلك لا ينبغي لنا ان نبخس آدابنا العربية حقها ولاسيما في الموضوعات التي كتب فيها اسلافنا؛ وان اختلف ما كتبوه من حيث روحه واسلوبه عمّا يقتضيه هذا العصر . لكنا نرى بعض كتابنا ينظرون الى تلك الآداب بعين الاحتقار ولا يتعبون انفسهم في تفهمها . ولو فعلوا لوجدوا فيها كنوزاً ثمينة في كثير من المباحث التي يحتاجون الى نقلها من اللغات الافرنجية . ولعل السبب في اهمالهم المصادر العربية ما يجدونه اول وهلة من الغرابة في اسلوبها لانه يخالف ما تعوّدوه من الاسلوب العصري . ولو زاولوا مطالعـة تلك الكتب قليلاً لتعودوا ذلك الاسلوب وهان عليهم فهمه . وقد يجدون في تلك الكتب حقائق هامة غير ما يستفيدونه من طرق التعبير والالفاظ الوضعيّة فيستعينون به عـلى تقويم اسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الافرنجية .

ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل ان بعضهم يعتمدون على هـذه المصادر ولو كان ما يكتبونه متعلقاً بعلوم العرب انفسهم او تاريخهم . ولعلهم يفعلون ذلك لثقتهم بتدقيق الافرنج فيما يكتبونه، لكن ذلك جر بعضهم الى ارتكاب خطإٍ شوّه ما كتبوه . فقد قرأنا كتاباً حديثاً في تاريخ الاسلام فرأينا فيه رسائل كتبها بعض القواد المسلمين الى خلفائهم في صدر الاسلام هي في اصلها العربي مثال البلاغة وحسن البيان، فترجمها مؤلف ذلك الكتاب عن الافرنجية فجاءت اعجمية اللهجة عاريـة من البلاغة العربية مع إمكان نقلها بعبارتها الاصلية لفظاً ومعنى

ومعلوم ان العلم الحديث جاءنا اولا على يـد الفرنسيين والايطاليين في زمن محمد علي باشا، ثم تناولنا جانباً منه عن الانكليز والاميركان وخصوصاً في سوريا .

ثم كان الاحتلال الانكليزي لمصر فسعى اهله في نشر لغتهم بيننا، فاصبحت المصادر التي نعول عليها فيما نكتبه إما فرنسية او ايطالية او انكليزية ولكن الايطالية لم تثبت لضعف نفوذ ايطاليا بيننا فانحصرت مصادرنا في الفرنسية والانكليزية .

وبديهي ان من يتناول العلم عن امّة تعلم لغتها وآدابها يشب على حبها فيتوخى تقليقدها والاقتداء برجالها، فاصبح كتابنا من اجل ذلك فئتين : فئة تقلد الفرنسيين، وفئة تقلد الانكليز . وقل من يجمع بين الاثنين، فاختلفت اذواقنا باختلاف ما لديهما من المبادئ والاخلاق حتى ظهر اثر ذلك فيما نكتبه لفظاً ومعنى . فقل ان تقرأ مؤلفاً الفه كاتب من اهل هذا العصر في علم حديث إلّا قرأت خلال سطوره مبادئ احدى الامتين الفرنسية او الانكليزية . ولعل هذا هو السبب في تشيع عامتنا الى احداهما لان الامة من حيث المبادئ والاخلاق تسير على خطوات كتابها فتتبع كل فئة منهم فئة من الكتاب فتقلدهم في اقوالهم واعمالهم

ولا يقتصر تقليدنا كتاب الافرنج على فحوى ما يكتبونه، ولكنه قد يتناول طرق التعبير، فترى اللهجة الافرنجية ظاهرة على عبارات بعضنا مهما كانت الفاظها عريقة في العروبة، لان لكل لغـة نسقاً في التعبير خاصاً بها، فمن كانت مطالعاته ومراجعاته في كتب فرنسية اكتسب ملكة التعبير فيها وخصوصاً اذا اهمل المطالعة في الكتب العربية، وهكذا يقال في مطالعي الكتب الانكليزية .

فعلى من يعمد الى التأليف ان يحافظ عـلى ملكة اللسان العربي ويتجنب التعبيرات الافرنجية ، ولا يتم له ذلك الا بمطالعة الكتب العربية الخالية من شوائب العجمة . بل لا بد له من مطالعة الكتب التي كتبها العرب في الموضوع الذي يريد الكتابة فيه او ما يقرب منه لاقتباس طرق التعبير في ذلك العلم . اذ لكل علم عبارات والفاظ لا يستحسن ايرادها في علم آخر . فلغـة العلوم الطبيعية مثلًا غير لغة الموضوعات الادبية، ولغة التاريخ غير لغة الطب ولغة الكتابة غير لغة الخطابة . فما يستحسن ايراده من العبارات المبرقشة بانواع البديـع في موضوع ادبي تهذيبي

يستقبح في موضوع طبيعي او رياضي . فعبـارة ابي الفضل الهمذاني في رسائله لا تستحسن في اثبات قضية هندسية او تقرير حقيقة طبيعيـة . واذا كتبت المعاني التهذيبية بعبارة الهندسة لا تؤثر في النفس تأثيرها لو كتبت بعبارة مزخرفة باساليب الاستعارة وضروب المجاز . هـذا الى ما تقتضيه الحقائق العلمية من البساطة وما تستلزمه الموضوعات الادبية من المبالغة والاطناب بين تهديد وتنديد وترهيب وترغيب . فيقسم الانشاء بهذا الاعتبار الى قسمين كبيرين : انشاء علمي، وانشاء ادبي . ولكل منهما فروع يستخدم كل فرع منها في موضوع دون الآخر .

امين الريحاني

(١٨٧٦ — ١٩٤٠)

رحّالة وداعية ؛ جال الجولة الاولى في مؤلفات الغربيين فعاد منها يكتب ؛ وجال الجولة الثانية في بلاد العرب وعاد منها يكتب . امّا دعايته فللوحدة العربية هنا ، وللعرب هناك ، ثمّ للثقافة الانكلوسكسونية هنا وهناك .

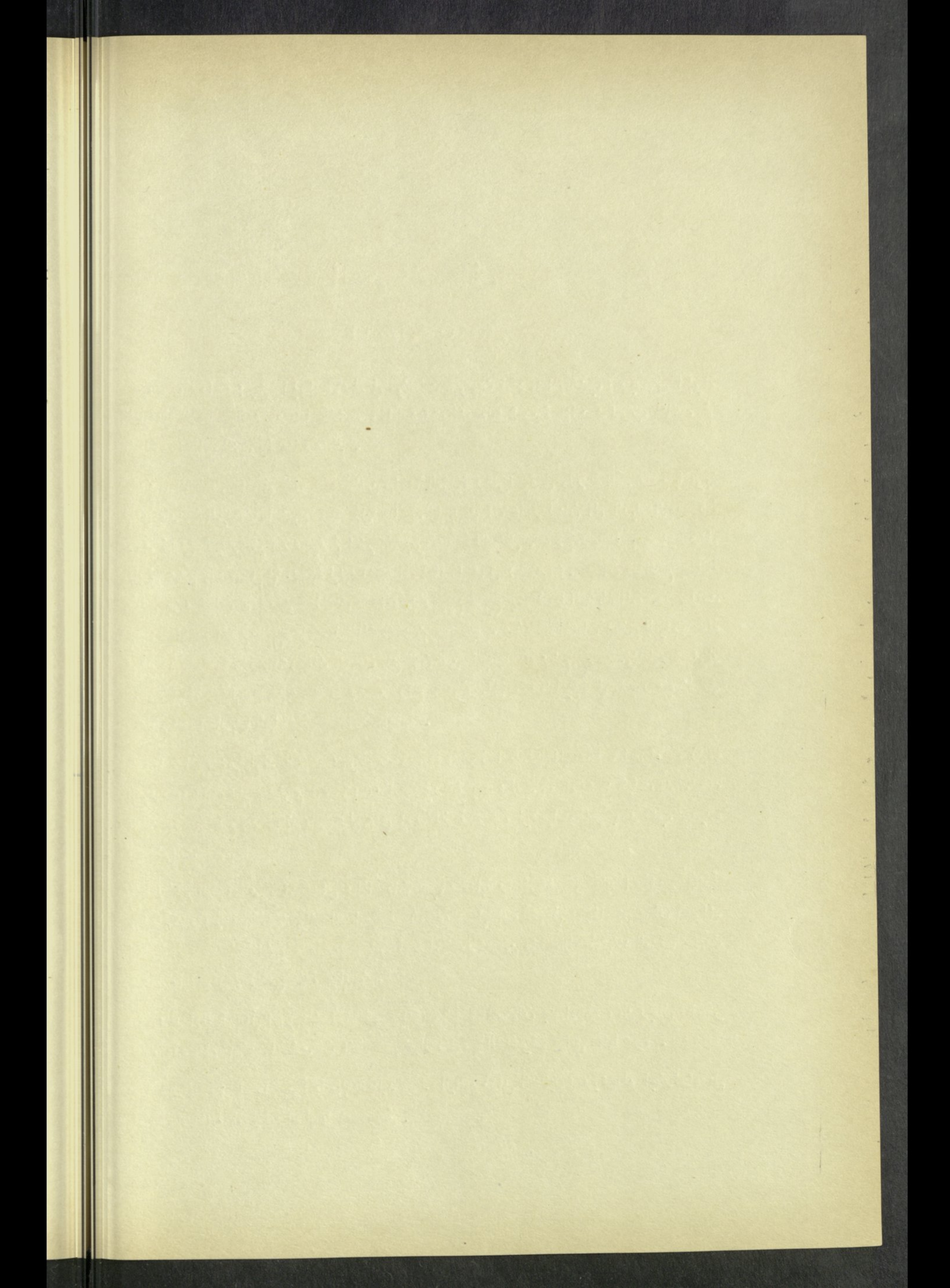
ولد امين الريحاني في الفريكة فتلقّن مبادىء العربية والفرنسية في مدرسة الكاهن بالقرية ثمّ في المدرسة التي انشأها نعوم مكرزل هناك . لم يلبث ان غادر لبنان الى الديار الاميركية حيث تعاطى التجارة مع عمه وابيه ثم انضم الى جوقة نقّالة للتمثيل . عاد بعدها الى بيت ابيه والى متابعة التعلّم والتحصيل في مدرسة ليلية ابلغته الى شهادة الحقوق (١٨٩٨) . وكان قد اولع بمطالعة شكسبير ، فولتير ، روسو ، تين ، داروين وهيوم فراح يصرف لياليه بالمطالعة حتى ساءت صحته فرجع الى لبنان وظلّ منذ ذلك التاريخ بين مجيء وذهاب الى ان اعتزم القيام برحلة في البلاد العربيّة سنة ١٩٢٢ تلك الرحلة التي كان من نتيجتها انه وضع احسن مؤلفاته « ملوك العرب » في جزئين (١٩٢٤) . وقد راح يكرّر مآل هذا التأليف في ما بعد ، بمؤلفات ومحاضرات اكثرها الساحقة باللغة الانكليزية .

للريحاني ، غير ملوك العرب ، مؤلفات عديدة ابرزها : الريحانيات (٤ اجزاء) ، زنبقة الغور (١٩١٥) ، خارج الحريم (١٩١٧) ، تاريخ نجد الحديث وقلب العراق والنكبات (١٩٢٧) ، قلب لبنان (طبع بعد وفاته) . وله في الانكليزية ترجمة لزوميات المعرّي وكتب عديدة ومحاضرات .

لم يضع الريحاني عمره في المحال وانما كان يحب الكتابة والنشر فسافر كثيرًا وألّف كثيرًا وطبع كثيرًا . فقد كان يؤثر السطحية في السرعة على التعمّق في الابطاء بحيث ان الفوائد التاريخيّة التي احبّ ان ينشرها على الناس في سياق حديثه عن مشاهداته في بلاد العرب جاءت بدون ما تمحيص لا توحي الثقة للقارىء .

وقد اراد الريحاني ان يسلك الى الشهرة اقرب الطرق فاستعان بحصاد غيره من رجال الفكر لبناء هذه الشهرة التي ما فتئت ان انهارت بانهيار سمعة « الفيلسوف » التي حملها عمره .

غير انه تبقى للرجل جرأته على التقاليد الرثّة البالية ، على الظالمين ، ويبقى له احترامه على اصول الكتابة العربيّة واساليبها الصحيحة .



في حضرة الحسين

... الهاتف في مكة المكرمة ! ولكنه مستعرب تماماً . فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها :

آلو آلو . الناس هناك يهتفون ويتحادثون بلغة عربية لا رطانة البتة فيها .

— مركز، اعطني مكة .

ولا انتظار، ولا ابطاء، ولا تسويف، ولا مشاتمة .

— مكة، محافظ جده يتكلم . الديوان . خير . قل لجلالة الملك ... خير .. خير .. ابشر .

ثم كلمني المحافظ قائلًا : سيدنا لم يتأكد قدومكم في هذه الباخرة، لذلك لم ينزل لملاقاتكم . ولكنه يجيء اليوم .

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول : سيدنا دخل البلد . ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع فسارعنا الى باب القصر ننتظر قدوم جلالته . وكان قد اجتمع هناك نفر من اعيان جدة وعلمائها . وقفت امام الباب سيارة فخمة فخرج منها ناظر الخارجية، ثم ناظر المالية، ثم الامير زيد، ثم الملك حسين . صافحته مسلماً سلاماً عربياً — حي الله مولاي باالخير . ولا اذكر بأية كلمة حياني . ولكني لا انسى اننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ بيدي لأسير الى جانبه .

دخلنا ردهة الاستقبال في الطابق الثاني، وهي طويلة تشرف على البحر غرباً وشمالًا . وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت، بيت الضيافة، الذي انزلت فيه . ان البساطة لتدنو في القصر من التقشف، فتبدو في السجاد العادي، وكراسي الخيزران، والدواوين المغطاة بقماش من القطن، والجدران العادية الخالية حتى من

الآيات ، كأنها تتنازل الى شيء من المدنية اكراماً للزائرين الاجانب فقط . . .
ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها التي تروق على الخصوص القادمين من
البلاد الاميركية . وهناك مظاهر اخرى في ظاهر صاحب الجلالة، اي في حديثه،
وفي لبسه، وفي اكرامه الضيف . . .

وكانت دهشتي الثانية اني اجتمعت بمليك كنت اظنه من رسمه رجلاً قطوباً
جافياً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . اجل ان في محيا الملك
حسين سيماء جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب . بل فيه تتجلى
روحانية شرقيـة قرنت بالتأدب الغربي . ولا غرو، وهو من بني نُمي من سلالة
الرسول، وقد اقام عشرين سنة في الاستانة . ان لحديثه اذن مصدرَين من الانس
والكياسة، الاول اخلاقي نبوي، والثاني اجتماعي اكتسابي .

وفي وجهـه ما يفصح عن الاثنين مما غاب ويا للعجب في رسمه . فهو رقيق
الاديم صافيه، عدل الانف دقيقه، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما
يرفع العقال ويلبس العمامة . وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما
هالة زرقاء . وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت اجذب منها للقلوب غـير ابتسامة
خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز .

اما صوته فألطف من النور في عينيه . واما انامله فان فيها دليـلاً افصح
واصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة والشرف الاثيل . وقد كبرت
هذه المحاسن في نظري لانها عارية من مظاهر الابهة والجلال . فانك لا تميز الملك
عن احد مشايخ العرب إذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير اصفر فوق كوفيـة
اخف اصفراراً منه . وهذا العقال ارث ثمين . فهو عقال بني نُمي ، عقـال بيت
الشريف، بل تاج الملك فيه . واذا اعتمّ الملك ، فلا ترى فرقاً بينه وبين احـد
الاعيان والعلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء . هـاك في القيافة مظهراً من مظاهر
الديمقراطية، التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وامرائها .

جلس الملك في زاوية من الديوان، واشار الى يمينه فجلست وفيّ بعض الحياء من التصدر في حضرته . ثم دخل اعيان جدة وكبارها مسلمين على صاحب الجلالة، المنقذ الاكبر، مهنئينه بقدوم السعيد . فانتهت في سلوكهم الديمقراطية . وغدوت حائراً لا أدري ايبتدئ في الحجاز التترك في البلاد العربية ام ينتهي .

دخل عرب المدينة، عرب جدة، مطأطئين الرؤوس ، مكتفين ، صامتين ، خاشعين . فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة، والآخر مرتين، والآخر ثلاث مرات . ومنهم من قبل منها الكف والظهر . ومنهم من زاد على ذلك فقبل الركبة الملوكية . وكان جلالته يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم . وقد يسحب يده مانعاً من هم ارفع مقاماً من الجميع، اي الاشراف العبادلة وهم اقارب الملك الادنون ...

يجيء البدوي الى البلد فيقف تحت نافذة القصر وينادي : « يا بو علي » وهو سامد الرأس، صريح الكلمة، لهجته لهجة الاكفاء والقرناء . قل هي لهجة ابناء القفار . والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والاجلال من المتمدنين المتتركين . بل يقبل فروض العبودية من الحضر باشاً كما يقبل هاشاً من البدو خشونة الحرية وسماحتها . ولا يتغير في الحالين، ولا يأمر بتهذيب هذا او بتثقيف ذاك . أيدهشك منه هذا السلوك الملكي النبوي ؟ هو اعلم مني ومنك بامور ملكه وبدعائم السيادة فيه .

ان الحضري عادة تاجر، والبدوي غالباً مقاتل . والاثنان لازمان، فنأخذ من الاول لنعطي الثاني، ونذل الاول احياناً لنتمكن من الاخذ والعطاء، ولاسيما إذا كان الثاني خشن الخلق، صعب الشكيمة ويحمل فوق ذلك البندقية . والبدوي لا يفهم غير لغتين، لغة الدينار ولغة السلاح، بل لغة القوة التي تتمثل في سلاح امضى من سلاحه وساعد اشد من ساعده . اما جلالة الملك حسين فلسوء الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة هي لغة الدينار . وسنعود في ما بعد الى هذا الموضوع .

— البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون. اقول: صادقون. وهم يرعون العهود ...

كان الكلام في العرب والاسلام . وكان جلالته يدعم كل ما يقوله بآية او بحديث شريف او ببيت من الشعر — « من اعز العرب اعز الاسلام — اعتصموا جميعاً بحبل الله ولا تفرقوا — الاسلام يا حضرة النجيب لا يقاتل غير من اعتدى عليه — لا نحارب الا دفاعاً عن انفسنا . اقول : دفاعاً عن انفسنا . الاسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة ... وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات ... حبذا السوريون لو جاؤوا من اميركة واقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون . اقول : ويسعدون فيساعدوننا في تشييد الملك العربي وتعزيز الوحدة العربية » .

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت تضيع عنده الكلمة فيعيدها مثبتاً ممكناً — اقول يا حضرة النجيب — كذلك يتكلم .

وكان اعيان جدة وكبارها جالسين على الدواوين وهم مثل التماثيل في معابد المسيحيين لا يفصح عن حالهم غير السكوت والخشوع . ثم نهضوا مستأذنين وقبلوا يد الجلالة مودعين كما قبلوها مسلمين . فنهضت على اثرهم فاشار جلالته تلطفاً ان اجلس . فعدت الى مكاني . ثم قال : والاعتذار في صوته وكلامه، صحيح فصيح . ان حياتنا في هذه البلاد غير ما الفت يا ايها العزيز، وخشونة العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة ... فحاولت ان اباريه في هذا الميدان فذكرت التنازل الجميل في مجيئه من مكة ليقابلني . فأسكتني باشارة من يده، وافحمني، بل زادني خجلاً وعياً، اذ قال : وهلا نقطع فرسخاً لنلاقي من قطع البحار وتجشم الاخطار في زيارتنا ؟

الامام يحيى

... دخلنا فإذا نحن امام رجل ربع القامة، صغير الرجل واليد، اسمر اللون، عالي الجبين، مستدير الوجه قاتمه . له فم كفم الطفل صغير بارز الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين رواعة . وله لحية سوداء قصيرة مستديرة يتخللها خيوط من الشيب . يلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن، ولعامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصِل الى اذنه. دخلنا فإذا هو جالس على فراش اسود وثير، تحته فراش آخر وسجادة عجمية، والى جنبيه الوسائد يتكئ عليها، وامامه زجاجة من الماء ورزمة مــن القات، وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها له. وهو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله . صافحناه مسلمين فرد السلام مرحباً بنا دون أن يقف . جلسنا امامه عــلى سجادة تحتها فراش، والغرفة الصغيرة مفروشة بمثلها، وفيها عند الباب ديوان، وعلى الحائط خرائط البلاد العربية واليمانية باللغة التركية .

الخادم المدني

... ولمـــا دخلنا الى صنعاء فاز المدني قبلنا برؤية المدينة، فراح يطوف فيها، وعاد ولسانه على غير عادته يقطر عسلاً من عسل الالفاظ، وعيناه تبرقان ابتهاجاً . سبحان الله . لقد اعجبت المدينة المدني، ففضلها حتى على جدة . فقلت : افــلا تفضلها على مكة كذلك ؟ فقال : لا والله . فسألته عن السبب، فأجاب : في مكة

امي . وهذه ، اي حبه امه واحترامها، هي بعد الامانة، فضيلة الـولد الوحيدة . قلت انه نقاد وقاد، لا ينجو احد من لسانه ومن ناره . ولكنه جاء ذات يوم وهو عائد من المدينة يقول : رأيت الامام، والله وامي، وقبلت يده .

— اين رأيته؟

هو جالس الآن في الساحة، وحوله الرجال والنساء والاولاد . ولما رآني قال : حي الله الجاي . وقـام من كرسيه، والله وامي، واعطاني يدهُ فقبلتها . وسألني عن اسمي وقـال : امسلم انت ام مسيحي . فقلت : مسلم والحمد لله . فقال : بارك الله فيك . هـو حياني، والله وامي، قبل ان حييته . ما رأيت احسن منه، والطف منه . رجل متواضع كريم الاخلاق — والعدل! وامي لا اظن ان في البلاد العربية من هو اعـدل منه . هو جالس الآن في الساحة يسمع شكاوي الناس . وكلهم رجال ونساء واولاد ينادون : يا امام، يا امام، يا حضرة الامام . جاء وانا واقف جنبه ولد يبكي . فقال للناس : افسحوا له، قربوه مني . دموعه افصح من الافصح فيكم واصدق . تعال يا بني . وامي، ما اقول غير الصدق... لا اظن ان في البلاد العربية كلها احسن من هذا الامام .

جبران خليل جبران

(١٨٨٣ — ١٩٣١)

ولد في رعاية الارز ، بشري ؛ غادر لبنان الى اميركا في السنة ١٨٩٥ برفقة اخيه الاكبر وامه وشقيقتيه ثمّ عاد الى بيروت ليتعلّم العربيّة وبقي فيها اربع سنوات . يمّم شطر باريس (١٩٠٨) ليتصل بمعاهد الرسم والتصوير وليأخذ هذا الفن عن اربابه فمكث فيها نحو ثلاث سنوات زار خلالها رومة وبركسل ولندن وغيرها من عواصم الحضارة والفن ؛ وفي باريس تتلمذ على « اوغست رودن » الذي قاده الى معرفه اثار ومؤلفات « وليم بلايك » الفنان والشاعر الانكليزي الغريب (١٧٥٧ – ١٨٤٧) هذا « الشاعر الممتاز في فنّه والفنّان الممتاز في شعره » فوقع جبران تحت سيطرة تأثيره . وما ان عاد الى نيويورك حتى تعرّف الى نيتشه واحله بنفسه في تلك المكانة الرفيعة . غير ان جبران جعل من « بلايك » و « نيتشه » رفيقي فكر وتأمل ولم يجعل له منهما استاذين يحتذيان .

في السنة ١٩١٨ نشر اول كتاب له : « الاجنحة المتكسّرة »

في السنة ١٩١٨ نشر اولى مقالاته باللغة الانكليزية في مجلّة « الفنون السبعة » وممّا نشر له فيها تجمّع كتابه « المجنون » .

وفي ٢٠ نيسان ١٩٢٠ ألّف ورفاقه : ميخائيل نعيمه ، نسيب عريضة ، عبد المسيح حدّاد ، وليم كتسفليس ، رشيد ايوّب ، ندره حداد ، الرابطة القلمية .

وفي السنة ١٩٣١ توفّاه الاجل المحتوم في نيويورك . ثم نقل جثمانه الى بيروت فبلغها في ٢١ آب ١٩٣١ واودع ، بناء على وصيته ، في دير مار سركيس ببشري .

اشهر مؤلّفات جبران عدا ما ذكر : دمعة وابتسامة (١٩١٣)، المواكب (١٩١٨)، العواصف والسابق (١٩٢٠)، النبي (١٩٢٣)، رمل وزبد (١٩٢٦)، يسوع ابن الانسان (١٩٢٨)، آلهة الارض (١٩٣١) . وله رسوم وتصاوير كثيرة هي حجر زاوية في بناء شهرته الشاهق . وقد وضع اكثرية هذه المؤلفات باللغة الانكليزية ونقلها سواه الى العربية .

كان جبران اجرأ من طلّق اساليب العرب القديمة البالية في الكتابة والشعر . وهو اول من ادرك من الشرقيين ان الكلم ، مثله مثل الالوان والخطوط والانغام ، انما هو وسيلة للتعبير عن

مبهمات النفس . فلجأ الى الكلام عربياً فضاق به الكلام العربي ؛ ثم لجأ الى الكلام انكليزياً فضاق به الكلام الانكليزي حتى لجأ الى الكلمة والخط واللون جميعها ليعبّر عمّا في نفسه فظفر منها بالكثير . لذلك نرى ان جبران الشاعر يكمل جبران الرسّام ، وان الشاعر والرسّام يتعاونان على ايضاح ما فيه .

قد يكون جبران خليل جبران اول من احرز لنا مقعداً بين مقاعد الائمة العالميين .

البنفسجة الطموح

كان في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا، طيبة العرف، تعيش مقتنعة بين أترابها وتتمايل فرحة بين قامات الاعشاب .

ففي صباح، وقد تكللت بقطر الندى، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الازرق وقالت متنهدة : ما أقل حظي بين الرياحين وما أوضع مقامي بين الازهار، فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة، حقيرة، أعيش ملتصقة بأديم الارض ولا أستطيع أن أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أحول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود .

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت : ما اغباك بين الازهار، فأنت في نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه الكثير من الرياحين . فخلّي عنك هذه الميول العوجاء والاماني الشريرة وكوني قنوعاً بما قسم لك وأعلمي ان من خفض جناحه يرفع قدره، وان من طلب المزيد وقع في النقصان ...

فأجابت البنفسجة قائلة : أنت تعزينني أيتها الوردة لانك نائلة ما أتمناه، وتغمرين حقارتي بالحكم، لانك عظيمة . وما أمر مواعظ السعداء في قلوب التاعسين وما أقسى القوي اذا وقف خطيباً بين الضعفاء !

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة :

ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك شريفة بمسكنتك، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، أم سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف :

ايتها الام العظيمة بجبروتها، الهائلة بحنانها، أضرع اليك بكل ما في قلبي من التوسل، وما في روحي من الرجاء أن تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً.

فقالت الطبيعة : أنت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية، فاذا رفعت قامتك وأبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم .

فقالت البنفسجة : حوّلي كياني البنفسجي الى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس . ومهما يحل بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي .

فقالت الطبيعة : لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة، ولكن اذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك .

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة الى وردة زاهية متعالية فوق الازهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالاعصار، ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت وارعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الامطار والاهواء . فكسرت الاغصان ولوت الانصاب واقتلعت الازهار المتشامخة ولم تبق الا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالارض أو تختبئ بين الصخور.

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزاهرها هباء منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار الحديقة .

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حل بأزهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلة : الا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً واعجاباً .

وقالت بنفسجة اخرى : نحن نلتصق بالتراب ، ولكننا نسلم من غضب العواصف والأنواء .

وقالت بنفسجة ثالثة : نحن حقيرات الاجسام غير ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا .

ونظرت اذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالامس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت اوراقها الرياح والقتها على الاعشاب المبللة فبانت كقتيل ارداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت اوراقها ونادت رفيقاتها قائلة : تأملن وانظرنَ يا بناتي . انظرن الى البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت الى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت الى الحضيض . ليكن هذا المشهد أمثولة لكنَّ .

عندئذٍ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطع قالت :

ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات، الخائفات من العواصف والاعصار . لقد كنت بالامس مثلكنَّ أجلس بين أوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان سور الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة واهوائها ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة ، متناهياً بما يساوره من الراحة والطأنينة . ولقد كان بامكاني ان اعيش نظيركنَّ ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه واذهب كمن ذهب قبلي الى سكينة الموت والعدم قبل ان اعرف من اسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الارض . لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الامور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي . ولكني اصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم « انما القصد من

الوجود الطموح الى ما وراء الوجود » فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني . وما زلت اتمرد على ذاتي واتشوق الى ما ليس لي حتى انقلب تمردي الى قوة فعالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة فطلبت الى الطبيعة وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لاحلامنا الخفية، أن تحولني الى وردة ففعلت، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها باصابع الميل والتشويق .

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق : لقد عشت ساعة كوردة، لقد عشت ساعة كملكة، لقد نظرت الى الكون من وراء عيون الورود، وسمعت همس الاثير بآذان الورود، ولمست ثنايا النور باوراق الورود، فهل بينكن من تستطيع ان تدعي شرفي ؟

ثم لوت عنقها، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت : انا اموت الآن . اموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . اموت وانا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه، وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الايام والليالي .

واطبقت الوردة اوراقها وارتعشت قليلاً ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية، ابتسامة من حققت الحياة امانيه، ابتسامة النصر والتغلب، ابتسامة الله .

يا بني أمي

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

اتريدون ان ابني لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة بالكلام وهياكل مسقوفة بالاحلام ام تريدون ان اهدم ما بناه الكاذبون والجبناء وانقض ما رفعه المراءون والخبثاء ؟

ماذا تريدون ان افعل يا بني أمي ؟

أأهدل كالحمائم لارضيكم ام ازمجر كالاسد لارضي نفسي ؟

قد غنيت لكم فلم ترقصوا ونحت امامكم فلم تبكوا، فهل تريدون ان اترنم وانوح في وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوى جوعاً وخبز المعرفة اوفر من حجارة الاودية ولكنكم لا تأكلون، وقلوبكم تختلج عطشاً ومناهل الحياة تجري كالسواقي حول منازلكم فلماذا لا تشربون ؟

للبحر مد وجزر، وللقمر نقص وكمال، وللزمن صيف وشتاء، اما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ؟

ناديتكم في سكينة الليل لاريكم جمال البدر وهيبة الكواكب فهببتم من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين « اين العدو لنصرعه » عند الصباح وقد جاء العدو بخيله ورجله، ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الاحلام .

قلت لكم تعالوا نصعد الى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم فاجبتم قائلين : في اعماق هذا الوادي عاش آباؤنا وجدودنا وفي ظلاله ماتوا وفي كهوفه قبروا فكيف نتركه ونذهب الى حيث لم يذهبوا ؟

قلت لكم هلموا نذهب الى السهول لأُريكم مناجب الذهب وكنوز الارض فاجبتم قائلين : في السهول تربض اللصوص وقطاع الطرق .

قلت تعالوا نذهب الى الساحل حيث يعطي البحر خيراته فأجبتم قائلين : ضجيج اللجة يخيف ارواحنا وهول الاعماق يميت اجسادنا .

لقد كنت احبكم يا بني امي وقد اضر بي الحب ولم ينفعكم، واليوم صرت اكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية .

كنت اشفق على ضعفكم يا بني امي والشفقة تكثر الضعفاء وتنمي عدد

المتوانين ولا تجدي الحياة شيئاً، واليوم صرت ارى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازاً وتنقبض ازدراء .

كنت ابكي على ذلكم وانكساركم، وكانت دموعي تجري صافية كالبلور ولكنها لم تغسل ادرانكم الكثيفة بل ازالت الغشاء عن عيني ولا بللت صدوركم المتحجرة بل اذابت الجزع في قلبي، واليوم صرت اضحك من اوجاعكم والضحك رعود قاصفة تجيء قبل العاصفة ولا تأتي بعدها .

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

اتريدون ان اريكم اشباح وجوهكم في احواض المياه الهادئة ؟ تعالوا اذاً وانظروا ما اقبح ملامحكم .

هلموا وتأملوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد، وعرك السهر عيونكم فأصبحت كالحفر المظلمة، ولمست الجبانة خدودكم فبانت كالخرق المتجعدة، وقبّل الموت شفاهكم فأمست صفراء كأوراق الخريف . ماذا تطلبون مني يا بني أمي — بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة صارت لا تحسبكم من أبنائها ؟

ارواحكم تنتفض في مقابض المشعوذين واجسادكم ترتجف بين انياب الطغاة والسفاحين وبلادكم ترتعش تحت اقدام الاعداء والفاتحين، فماذا ترجون من وقوفكم امام وجه الشمس ؟

سيوفكم مغلفة بالصدإ ورماحكم مكسورة الحراب وتروسكم مغمورة بالتراب، فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال ؟

انما الحياة عزم يرافق الشبيبة، وجدّ يلاحق الكهولة، وحكمة تتبع الشيخوخة، اما انتم يا بني أمي فقد ولدتم شيوخاً عاجزين ثم صغرت رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم اطفالاً تتقلبون على الاوحال وتترامون بالحجارة .

انما الانسانية نهر بلوري يسير متدفقاً مترنماً حاملاً اسرار الجبال الى اعماق البحر

اما انتم يا بني امي فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات في اعماقها وتتلوى الافاعي على جنباتها ·

انما النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالانواء وتنير اوجه الآلهة، اما نفوسكم يا بني امي فرماد تذريه الرياح على الثلوج وتبدده العواصف في الاودية ·

انا اكرهكم يا بني امي لانكم تكرهون المجد والعظمة ·

انا احتقركم لانكم تحتقرون نفوسكم !

انا عدوكم لانكم اعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون ! ! !

العطاء

ثم قال له رجل غني، هات حدثنا عن العطاء ·

فأجاب قائلاً :

انك اذا اعطيت فانما تعطي القليل من ثروتك ·

ولكن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءاً من ذاتك، لانه اي شيء هي ثروتك ؟

أليست مادة فانية تخزنها في خزائنك وتحافظ عليها جهدك خوفاً من ان تحتاج اليها غداً ؟

والغد، ماذا يستطيع الغد ان يقدم للكلب البالغ الفطنة الذي يطمر العظام في الرمال غير المطروقة وهو يتبع الحجاج الى المدينة المقدسة ؟

او ليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها ؟

ام ليس الظمأ الشديد للماء عندما تكون بئر الظامئ ملأى هو العطش الذي لا تروى غلته ؟

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عندهم وهم يعطونه لاجل الشهرة، ورغبتهم الخفية في الشهرة الباطلة تضيع الفائدة من عطاياهم .

ومنهم من يملكون قليلاً ويعطونه باسره .

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة، وهؤلاء لا تفرغ صناديقهم، وخزائنهم ممتلئة أبداً .

ومن الناس من يعطون بفرح، وفرحهم مكافأة لهم .

ومنهم من يعطون بألم والمهم معمودية لهم وهنالك الذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم في عطائهم، ولا يتطلبون فرحاً، ولا يرغبون في اذاعة فضائلهم، هؤلاء يعطون مما عندهم كما يعطي الريحان عبيره العطر في ذلك الوادي .

بمثل ايدي هؤلاء يتكلم الله، ومن خلال عيونهم يبتسم على الارض .

جميل ان تعطي من يسألك ما به من حاجة اليه .

ولكن اجمل من ذلك ان تعطي من لا يسألك وانت تعرف حاجته، فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون له فرح بسعيه الى من يتقبل عطاياه والاهتداء اليه اعظم منه بالعطاء نفسه .

وهل في ثروتك شيء تقدر ان تستبقيه لنفسك ؟

فإن كل ما تملكه اليوم سيتفرق ولا شك يوماً ما .

لذلك اعطِ منه الآن، ليكون فصل العطاء من فصول حياتك أنت دون ورثتك .

وقد طالما سمعتك تقول متبجحاً : انني أحب ان اعطي، ولكن المستحقين فقط .

فهل نسيت يا صاح، ان الاشجار في بستانك لا تقول قولك، ومثلها القطعان في مراعيك ؟

فهي تعطي لكي تحيا، لانها اذا لم تعط عرضت حياتها للتهلكة .

الحق اقول لك، ان الرجل الذي استحق ان يقتبل عطية الحياة ويتمتع بايامه ولياليه، هو مستحق لكل شيء منك .

والذي قد استحق ان يشرب من اوقيانوس الحياة يستحق ان يملأ كأسه من جدولك الصغير .

لانه اي صحراء اعظم من الصحراء ذات الجرأة والجسارة على قبول العطية بما فيها من الفضل والمنة ؟

وانت، من أنت حتى ان الناس يجب ان يمزقوا صدورهم ويحسروا القناع عن شهامتهم وعزة نفوسهم لكي ترى جدارتهم لعطائك عارية وانفتهم مجردة من الحياء ؟

فانظر اولاً هل انت جدير بأن تكون معطاء، وآلة العطاء .

لان الحياة هي التي تعطي للحياة، في حين انك، وانت الفخور بأن قد صدر العطاء عنك، لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على عطائك .

أما انتم، الذين يتناولون العطاء والاحسان، وكلكم منهم، فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل، لئلا تضعوا بأيديكم نيراً ثقيل الحمل على رقابكم ورقاب الذين اعطوكم .

بل فلتكن عطايا المعطي اجنحة ترتفعون بها معه .

لانكم اذا اكثرتم من الشعور بما انتم عليه من الدين، فانكم بذلك تظهرون الشك والريبة في اريحية المحسن الذي الارض السخية امه، والرب الكريم ابوه .

———

فرح انطون

(١٨٧٤ — ١٩٢٤)

ولد في اسكلة طرابلس ، وتخرج في مدارسها الابتدائية . ثم طلب العلم في مدرسة كفتين الارثوذكسية ، فاتم تحصيله فيها ونال شهادتها . ثم عكف على المطالعة والدرس بهمة لا تعرف الكلل . وبعد اعوام انتدب لتولي رئاسة مدرسة طائفية في الاسكلة، فأحسن ادارتها على حداثة سنه . ثم سافر الى الاسكندرية سنة ١٨٩٧ فراسل بعض الجرائد والمجلات باسماء مستعارة . وبعد ذلك اصدر مجلة « الجامعة »، وما لبثت ان انتشرت انتشارًا واسعًا في جميع البلدان العربية واحرزت منزلة رفيعة بمقالاتها الاجتماعية والعلمية والاخلاقية . ولقد جرت بينه وبين الشيخ محمد عبده مناقشات طويلة حول الدين والفلسفة كان من نتائجها ان الف كتابه المشهور « فلسفة ابن رشد »

وسنة ١٩٠٧ سافر مع صهره نقولا الحداد الى الولايات المتحدة . فأصـدر فيها « الجامعة » وجريدة يومية اخرى .

ولما عاد الى مصر وجد ان الروح الوطنية التي عمل على بثها قد اختمرت فانضم الى صفوف المجاهدين . وما زال يناضل بقلمه حتى قضى نحبه سنة ١٩٢٤ .

كان عزيز النفس، كثير الثقة بها، انوفًا . وقد اضرّ به الغرور كثيرًا لانه يخرج به احيانًا عن الذوق المألوف .

آثاره : اصدر من مجلة الجامعة سبعة مجلدات، وترجم رواية بولس وفرجيني، ورواية الكوخ الهندي، والثورة الافرنسية في اربعة مجلدات .

نهضة الاسد، او الثورة الفرنساوية

مقدمة الطبعة الثانية

علمت في زمن الصبا وانا في سوريا بان اسكندر دياس الاكبر كتب رواية في الثورة الفرنساوية، فاهتديت اليها . وما شرعت في مطالعتها حتى سباني موضوعها واسلوبها لا لأمر سوى شيء من المشاركة بين بعض حوادثها وحوادث السياسة في البلاد العثمانية في ذلك الزمن . وكانت سكينة كسكينة المقابر تخيم يومئذ على البلاد والعبـاد، والجرائد السورية لا تنشر شيئاً « يخدش الاذهان » لان المراقبة كانت لها بالمرصاد، والصحافة المصرية على قلتها يومئذ قليلة الانتشار في سوريا فقلما كان المطلع مصادر يستقي منها غير المصادر التي يختارها ويسعى اليها . ففي وسط هدوء كذلك الهدوء وخمول كذلك الخمول احسست بان عبارات دياس في روايته هذه كانت كبروق تسطع وتشق جو الفكر او اسواط تقرع الآذان وتنبه العزائم والاذهان . وقد يكون اليوم لعبارات كتلك العبارات تأثير كذلك التأثير في نفوس الرجال الذين اشتدت سواعدهم وقويت الواحهم حتى بعـد زوال الضغط القديم ومشاهدتهم حوادث يومية كحوادث تلك الرواية . فكيف بتأثيرها في فتى صغير السن قليل الخبرة والاطلاع .

ولذلك اولعت بهذه الرواية ولعاً شديداً دون سائر روايات دياس ولا اتذكر انني قرأت رواية له غيرها قراءة جدية . وكم من مرة قضيت الليل في مطالعتها حتى الساعة الثالثة او الرابعة صباحاً ثم انحدرت بها من فراشي الى حفرة في الحديقة كنت ادفن فيها صندوقاً صغيراً يحتوي الكتب والاوراق التي اخشى عليها من عمـال الحكومة خوفاً من التفتيش الفجائي الذي كان شائعاً . فكنت اضعها في الصندوق بين تلك الكتب والاوراق واعيد التراب على الصندوق ثم انام مطمئناً .

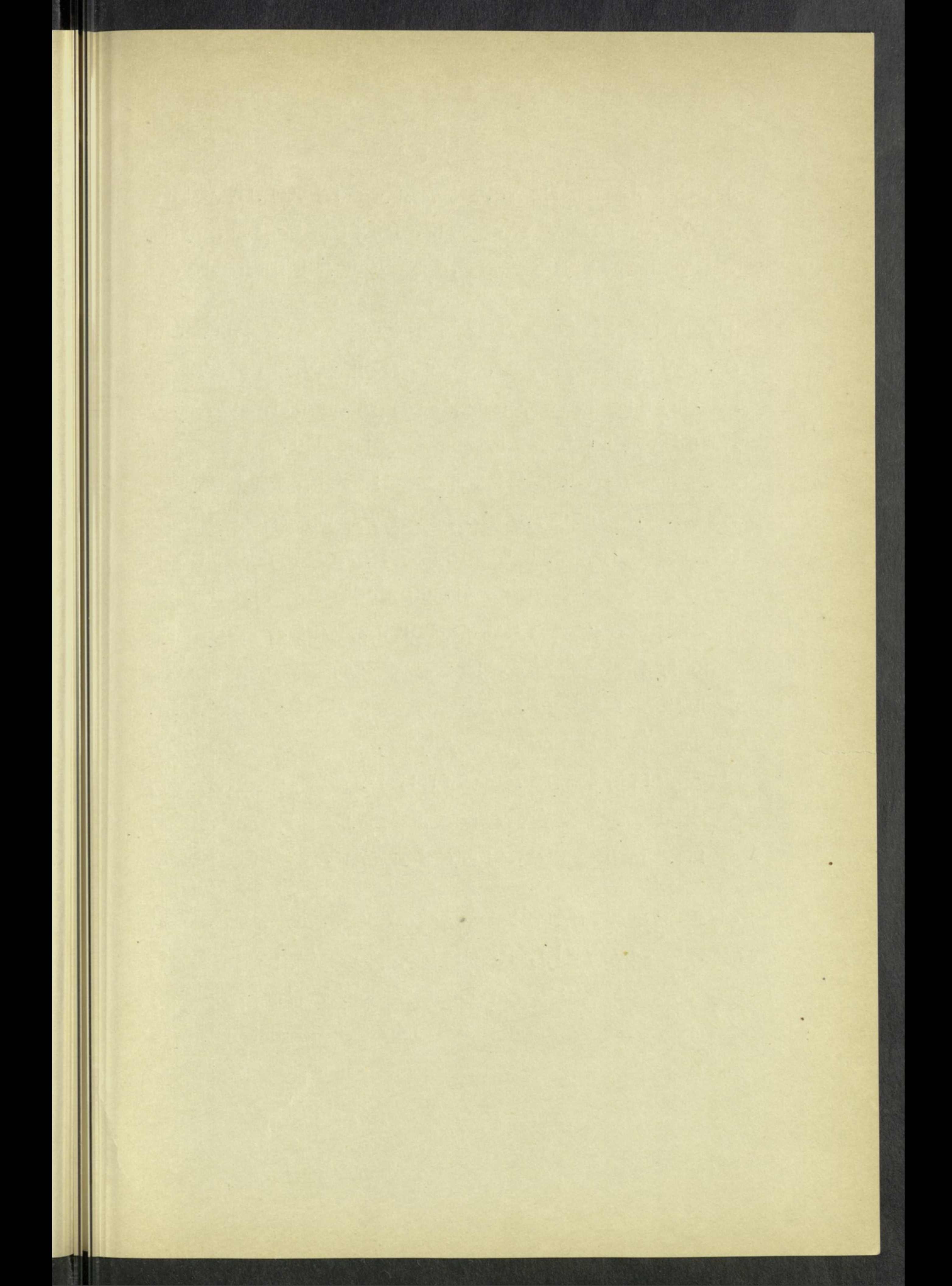
وقد تكون هذه التفاصيل تافهة في ذاتها ولكني لم اذكرها الا لسبب سترد الاشارة اليه . على ان ولوع المرء بكتاب او رواية سبب كافٍ في حمله على اشراك قرائه في ما احبه منها، حينما يتخذ الكتابة صناعة له، وهذا ما جعلني افكر في تعريب هذه الرواية والحاقها « بالجامعة » حين رأيت الحاقها برواية . وهناك ايضاً سببان آخران، الاول: تلذذي يومئذ « بمضايقة » مراقبي الجرائد والمجلات في البلاد العثمانية جزاء لهم على ما عانيته بسببهم من الحذر والاتقاء والاحتراس في اثناء مطالعاتي الاولى . والثاني هو السبب الوجيه : رغبتي في ايقاد تصورات ابناء الشرق بهذه الرواية، كما اتقدت تصوراتي بها في صباي . وقد خيّل اليّ انني بتعريبها في اثناء ذلك السكون التام والخمول الشامل افتح، في ذلك البناء القديم، نوافذ مطلة على سماء الحرية ليرد منها النور والهواء، وانصب امام قرائها مثالًا يحتذونه، قمته تحيط بها زرقة السماء وقاعدته مغموسة في الدماء . وقد يكون هنالك سبب اوجه من جميع تلك الاسباب التي تقدمت وهو الداء الذي يقع فيه كثيرون من الصحافيين والكتاب، واعني به الرغبة في اجتذاب القراء بالمواضيع الجذابة . ولكن ليس من مصلحة الكاتب ان يعترف مثل هذا الاعتراف ويسجّل هذا الكلام على نفسه لان صناعة الكاتب كصناعة الكهنوت فيها كثير من الاسرار .

وقد شرفت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد هذه الرواية حين الشروع في نشرها في « الجامعة » ببضع تلغرافات كانت تبعث بها الى الولايات السورية كلما صدر جزء من الجامعة وفيه جزء من الرواية . ولما كانت اجزاء الجامعة يبعث بها (مضمونة) في البريد الفرنسوي، فقد كان البريد الفرنسوي يعيد الى ادارة الجامعة الاجزاء المرسلة الى داخلية البلاد العثمانية والتي تسبقها الى الثغور السورية تلغرافات الاستانة، بينما كانت الاجزاء التي تسبق تلك التغرافات الى الثغور تمر وتصل الى اصحابها في الداخلية دون ممانع . ولما تحققت ان كل الضرر وارد من اطلاع قلم المطبوعات بالاستانة على « الجامعة » قطعت الجامعة عن قلم المطبوعات في الاستانة والنظارات قطعاً مطلقاً، حتى عن مشتركيها في الاستانة، فبطل ارسال التلغرافات مدة من الزمن . وقد ظننت انني بقطعي « الجامعة » عن الاستانة

قد وجدت دواء للداء وما كنت ادري ان داء الاستانة يومئذ داء لم يكن له دواء قبل قيام شوكت باشا وجيشه . فان حكومة الاستانة لم تلبث ان امرت بمنع دخول مجلة الجامعة الى البلاد العثمانية بسبب نشرها هذه الرواية على الاخص.

وقد انقضى الآن عشر سنوات على نشري هذه الرواية قضيت منها ٤ سنوات في جهات اوربا والولايات المتحدة وكندا . وعند وصولي الى باريز، لاول مرة، في حياتي، كان اول ما عملته انني زرت اشهر الاماكن التي وقعت فيها وقائع هذه الرواية كالتويلري والمجلس البلدي وفرسايل وساحة الباستيل التي ليس فيها اليوم من آثار الباستيل سوى تذكار نصب في وسط ذلك المكان يذكر الناس بهجوم الشعب على الباستيل، واظهاره لاول مرة قوته على قوة الملكية . والمكان اليوم ساحة متسعة تحيط بها القهاوي، وكأن ارضه في ظلام الليل ونور النهار، لهدوئها وقلة الزحام فيها ، كائن تعب لحمله ثقلًا هائلًا عدة قرون ، جلس يستريح ويتنفس الصعداء لخلاصه من ذلك الثقل الهائل الذي كان فوقه كصخرة هائلة ملقاة على قلبه، او « كوحش هائل رابض على قارعة الطريق يفترس الناس » كما قال ديماس. وقد وقفت غير مرة في ذلك المكان واخذت اقول وانا اجول في انحاء تلك الساحة الهادئة : هنا كان سجن الفكر والقلم والعقل . هنا كان مدفن الكتّاب والفلاسفة والساسة من معارضي الحكومة، دفنوا فيه احياء، ولكنهم ما لبثوا ان تمطّوا وهم في مدفنهم فرفعوا عنهم بقوى الفكر الذي لا يُسجن حجارة القبر ونبذوا الاكفان وفتحوا جميع قبور الاستعباد لجميع المدفونين واخرجوهم الى نور السماء !...

... هذه الافكار الشائعة بين الجمهور في شأن الثورة الفرنسوية ومبادئها . وقد تغذى في صباي لحمي ودمي من هذه المبادئ، وقرأت تاريخ تيير وميشله، وشيئاً من تاريخ كارليل في شأنها، حتى اصبحت احرم على نفسي رشقي لها ولو بوردة حتى في المبادئ التي بطل اعتقادي بها .



انطون الجميل

(١٨٨٧ — ١٩٤٨)

من كبار الموجهين في الصحافة والسياسة والادب . ولد وتثقف في لبنان، وعاش وعمل في مصر . بـدأ شبابه معلماً في كلية الجامعة اليسوعية (بيروت) ومحررًا في « البشير » حتى اذا انتقل الى مصر استرعت شخصيته الانتباه لما يتمتع به من ثقافة راجحة وشاملة ولاتقانه الفرنسية اتقانًا بعيدًا . فدعي الى وظائف في المالية وفي دوائر الترجمة تقلب فيها وارتقى الى اعلى درجاتها الا انه كان اميل للعمل الادبي ، او انه بالأصح كان قادرًا على توزيع نشاطه في عديد الميادين فاصدر حوالي سنة ١٩١١ مجلة « الزهور » عاونه فيها زمنًا الشاعر الكبير امـين تقي الدين . وللحال تركز النشاط الادبي في القاهرة حول هذه المجلة، حيث كان انطون الجميل يعمل دون ان يظهر بوجه ويرشد بثقافته العالية وذوقه المحكم ومنطقه الصائب، حتى لقد صار كبار الشعراء امثال شوقي والمطران يعرضان عليه نتاجهما ويستأنسان بأحكامه .

وترك الوظيفة من اجـل الصحافة . فقد كان يحرر في « الاهرام » بعد الحرب الاولى ثم ما لبث ان تولى رئاسة التحرير فيهـا خلفاً للصحافي الكبير داود بركات . واستدعت السياسة انطون فانصرف اليها بكليته، يعالجها من نواحيهـا العملية الايجابية . وانتخب نائبًا في البرلمان المصري، ثم عين في مجلس الشيوخ، وكان دائمًا يتولى العمل الاصعب مقررًا للمالية .

وتدخل الاهرام في مرحلة جديدة تتقدم فيها اشواطًا، دافعة الصحافة العربية اجمالًا الى التطور السريع . وكان ذلك بهمة صاحبها تقلا باشا، وبهمة رئيس تحريرهـا انطون الجميل . فالاول اوجد لها اسباب الانتشار المادي، والثاني رفع من شأنها المعنوي وجعلها تلك القوة التي تهيمن على الجمهور وتسمو على الاحزاب لتجردها اولاً ثم لتوفر الميزات الصحافية فيها . وصعب على الناس التمييز من الذي يدعو الآخر بنفوذه المعنوي : اهي الاهرام تدعم انطون الجميل، ام هي شخصية انطون الجميل ترفع شأن الاهرام ؟

ولقد انصرف بكليته الى عمله الصحفي في رئاسة تحرير الاهرام، وقد كان يتطلب منه نشاطًا سياسيًا كان يتيح لانطون الجميل ان يدعي الزعامة لاجله، لولا تواضع عميق فيه . وكان ذلك على حساب الادب اذ انصرف عنه انطون الجميل تمامًا في الشطر الاخير من حياته .

آثاره كثيرة، الا انها لا تحمل توقيعه وان حملت علمه وثقافته واختباراته . نقل الى العربية في مطلع عمره كتابًا عن « الاقتصاد المنزلي » وله محاولات غير طويلة، كان اكثرها محاضرات . وهي تتميز جميعها باحكام البيان ورصانته وغناه، كما تتميز بمنطق واضح يعتمد دائمًا المقاييس الاخلاقية والجمالية .

الجوع والمجاعات

كثيراً ما قلت يا سيدي، وقد ابطأ غداؤك، او تأخر عشاؤك: « اكاد اموت جوعاً ! »

بل كثيراً ما قلتِ يا سيدتي، وقد عدت من زيارة لصديقتك، او رجعت من نزهة شحذ هواؤها معدتك : « اموت جوعاً ! »

وقاكم الله ذلك !

قلتم وتقولون مثل هذا القول ياسادة، وان هو الا من قبيل المجاز: فان « موتنا جوعاً » في مثل الاحوال التي ذكرت ليس الا كناية عن توافر الشهية للطعام والشراب، وزيادة قابلية المعدة للتلذذ بشهي المأكولات وطيب الالوان ·

مرّت مركبة احدى السيدات الموسرات بكوخ حقير فيه امرأة ناحلة شاحبة، وحولها اطفالها، باسمالهم البالية، يتضورون جوعاً، ويرتعشون برداً · فاسرعت السيدة الى قصرها، واصدرت امرها الى احد اتباعها ان يجمع ما يلزم من الزاد والملابس، فيحمله الى ذلك الكوخ · ثم دخلت مخدعها وقد اشعل فيه الموقد واحضر الشاي واطباق الحلواء، فأكلت هنيئاً وسرى الدفء في جسمها، فقرعت الجرس، وقالت للخادم: «لا حاجة الى حمل الزاد والملابس الى حيث اشرت، فقد دفئ الجو وسكن الجوع » .

دفئت فظنت المقرورين قد دفئوا ؛ وشبعت فتوهمت الجياع قد شبعوا . . .

. . . هكذا اكثرنا يفهم الجوع — اعني الجوع في طوره الاول حين لا يتعدى الحاجة التي نشعر بها لتناول الطعام، او عندما تطول هذه الحالة ولا نلبي شهيتنا، فنشعر ببعض انزعاج، فيقول الواحد منا على سبيل المزاح: « غنت عصافير بطني ».

اما في الواقع، فمن منكم يدري ما هو الجوع في معناه الحقيقي لا المجازي ؟ من منكم يعرف الجوع الذي يمزق الامعاء تمزيقاً، فلا تغنّي عصافير البطن، بل تنهش انياب السغب الاحشاء نهشاً ؟

كلكم يجهله ؛ وعسى ان لا تعرفوه الا اسماً .

اما في سوريا ولبنان فقد عرف الاهلون اليوم الجوع باتم معانيه .

عرفوا الجوع الذي يتحول الى آلام مبرّحة وعذاب لا يطاق .

عرفوا الجوع الذي ينتهي بالموت، فيقضي الانسان، وامامه امرأته واولاده، يتقدمونه، او يلحقونه، في مثل هذه الميتة الفظيعة .

الجوع في الميثولوجية

الاقدمون ألهوا كل شيء، فنصبوا لكل شيء الهاً او الاهة، حتى للشر والخير ولسائر النعم والآفات . لذلك لم تخل « الميثولوجية » عندهم من الاهة للمجاعة .

وكانت هذه الالاهة في عرفهم ابنة الليالي السود، ولّدتها الليالي من نفسها . وكانوا يمثلونها بشكل امرأة هزيلة الجسم، نحيلة البدن، قد ذهب لحمها وذاب شحمها وشحب لونها، فبدت عجفاء جرداء، مقوّسة الظهر، بارزة العظام مسترخية المفاصل، لاحبة الجلد، مجوّرة الصدغين، غائرة العينين، ممسوحة الثديين، ضامرة البطن ناسلة الفخذين . . . وكأن هـذا الشبح المخيف لم يكفِ في نظرهم لتمثيل حقيقة المجاعة فصوروها مغلولة اليدين، رامزين بذلك الى عجزها عن اصلاح ما بها .

رأيتم مما ذكرت كيف تبارت قرائح الشعراء وارباب الفنون الجميلة في وصف الجوع . ولا يتبادرن الى ذهن احدٍ ان ذلك انما هو نتيجة قرائح متهيّجة ولّدت مثل هذه الصور والاوصاف . نعم ان اصحاب الخيال كثيراً ما يغالون في تصوير الحقيقة ترسيخاً لها في الاذهان لادراك غاية نبيلة ؛ ولكنهم في الموضوع الذي نحن فيه ظلوا دون تلك الحقيقة مع كل ما اوحته المخيلة الى قلمهم وريشتهم كما سترون من وصف تلك الحقيقة مجرداً عن كل تنميق . لذلك هـا انا اترك وصف الجوع

كما تصوّره الاقدمون في ميثولوجيتهم، او كما تمثله الشعراء والمصورون، فنحن في عصر العلم — عصر الحقائق الراهنة التي لا تدع مجالًا للخيال . فهيا بنــا نرى ما هو الجوع في الكتب الطبية والموسوعات العلمية .

انتم في خفض رزق وكفاف من العيش . فلا تستسلموا الى طيبات الحياة وملاذّها، فيمسي طعامكم متخمة، ويصبح شرابكم مألمة . بل جودوا بشيء من فضلاتكم يهنأ طعامكم ويمرأ شرابكم !

جودوا ولو باليسير، يكن معروفكم مشكوراً، وبرّكم مقبولًا : فالخــبز الناشف، على ما قال « ميرابو »، يعدّ في نظر الجائع من سعة العيش .

احذروا الشعب اذا ما الشعب جاع : فالجوع يفتح في صدر الشعب ثغرة يملأها حقداً وبغضاً . وليذكر اغنياؤنا — اتم الله عليهم نعمته ! — ان مقابــل كل فقير يشحب لونه جوعاً، يوجد غنيٌّ يمتقع لونه خوفاً وذعراً .

من خطاب القاه في احتفال اقامته « جمعية المساعي الخيرية المارونية » بمصر في شهر شباط ١٩٢٢ ، احتفالًا بعيد مار مارون

. . . اننا اليوم ايها السادة مــا زلنا ننشد الزعيم الذي تكلم عنه لامارتين منذ ثمانين سنة .

ايها السادة

هذا ما قيل عنّا في ايام عزّنا . ما اوردته للمباهاة بــل للتذكير، وما سردته للمفاخرة بل للتقريع . فليرجع كل الى نفسه وليناقشها الحساب الدقيق ، ولنتساءل كل هيئة من هيئاتنا : هل نحن على أثر السلف الصالح سائرون ؟ ام نحن عن خطتهم حائدون ؟ هل يصدق فينا في يومنا ما قيل عنا في امسنا ؟ ام لقائل ان يقول : نعم الجدود ولكن بئس من ولدوا .

قد شغفنا بمزوّق الالفاظ ومنمّق الكلام؛ ولكن اجدادنا فتنوا بعظيم الاعمال وصادق الفعال . نحن نقول ولا نفعل، وكان واحدهم يفعل ولا يقول .

نحن نتغنى بالوطنية في الاندية، ونترنم باناشيدها في الشوارع، ونحدو باسمها في الحفلات الباهرات؛ فاذا ما اهابت بنا الى التضحية قبعنا في عقر دارنا ساكنين . . . اما وطنيتهم فكانت صامتة لا تحث المظاهرات ولا تتجلّى الا في المعامع، فلا تسفر عن وجهها الا على متن الصافنات ولا تتدفق الا مع دمائهم على شفار المرهفات .

نحن نتغزل بالحرية صبح مساء، ونشدو بالاستقلال فننظم فيه القصائد الغرّاء . ولكن نفوسنا عند الغاية غير حرة فنحن عبيد ارقّاء . . . اما الاجداد والآباء، فلربما جهلوا ما نعرف نحن عن الحرية والاستقلال من الاوصاف والاسماء ولكن نفوسهم كانت طاهرة كنصل السيف، حرة كالهواء او كنسر السماء .

ندعو في كل حين الى العدل والاخاء والمساواة . فما اقرب هذه الالفاظ الى شفاهنا وابعد معناها عن قلوبنا . وما كان اجهلهم باسمائها واعرفهم بحقائقها .

ننادي بالغيرية والفيلانتروبية، وبالاحسان وحب الانسان لاخيه الانسان، ولكننا نضطر لاصدار اللوترية، ولنشر التقادير واحياء الليالي الحسان، لاخذ الدرهم لمساعدة الفقير الجوعان . اما هم فكانت القرية عندهم كلها جمعية خيرية، يطعم شبعانها جوعانها، ويساعد موسرها معسرها .

ايها الاخوان

ذكرت ما عرف به آباؤنا من الفضائل لنقتبسها، ووصفت ما يعتورنا من النقائص لنصلحها . ولقد اكون غاليت في هذه وتلك . انما القصد اصلاح ما بنا وتعديل حالنا . ولم اقصر كلامي على طائفة دون غيرها قصد الاثرة والتحزب، بل رغبة في اصلاح المجموع من وراء اصلاح الاجزاء . فان علينا عدا ما قدمت واجبات اخرى نحو اخواننا ابناء سائر الطوائف فيجب ان نتعهد علاقاتنا بهم بالاخلاص والوئام والاخاء التام؛ فنمدهم بما يصلح عندنا، ونستمد منهم ما يصلح

عندهم، لنسير جميعاً اليد باليد الى الكمال النفسي والتفوق العقلي لخير الفرد وخير الجماعة .

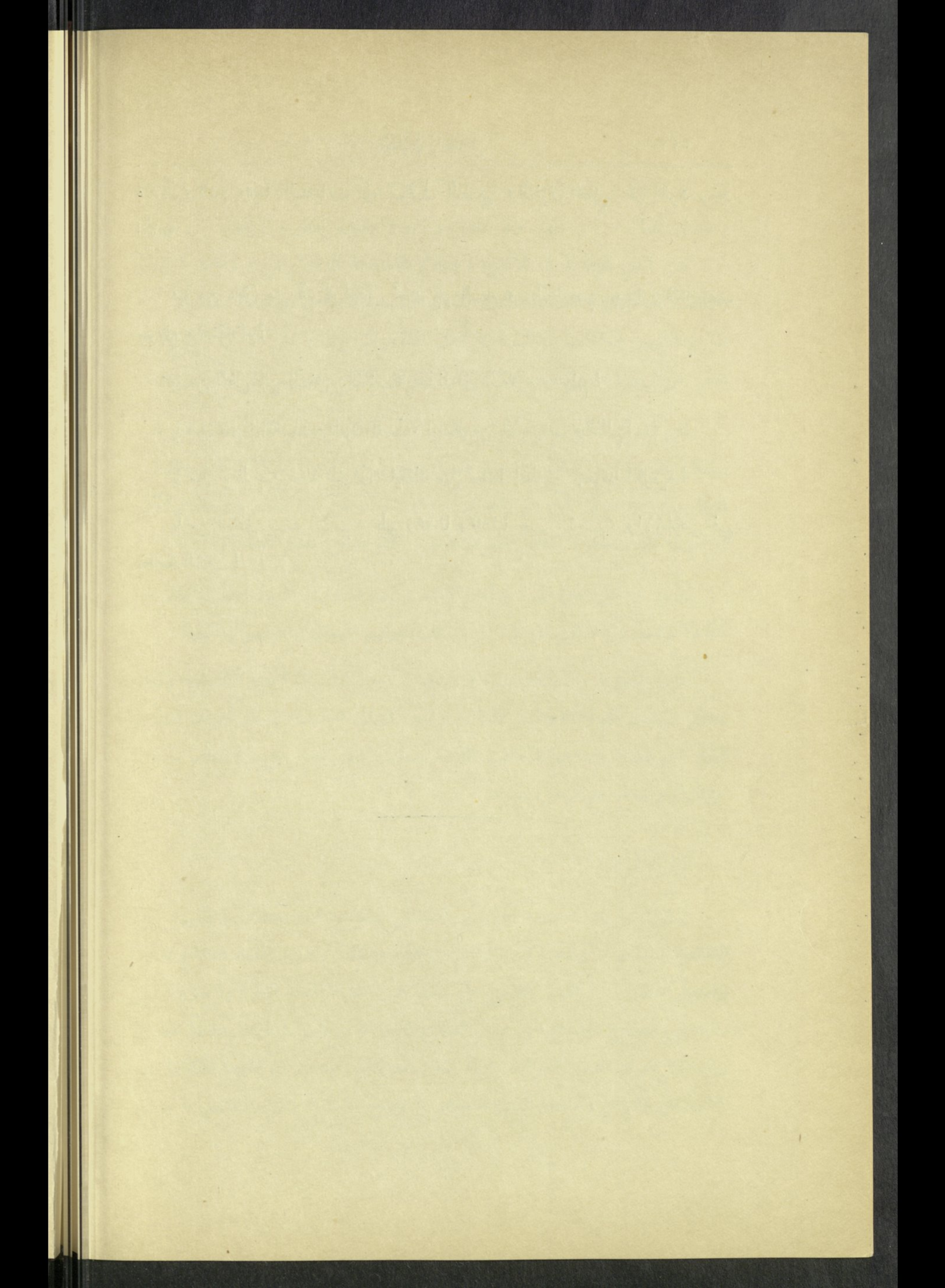
فيا من عاش على قمة الجبل تحت جو السماء ، علمنا حب جبلنا وافتنا بحب حريته واستقلاله !

يا من شفى من البخل والغضب، اهدنا الى الكرم والحلم !

يا من علم الاقتصاد وقانون العدل، ابعدنا عن الاسراف والظلم !

يا من ايقظ من غفلة التواني، ايقظنا من غفلتنا لنطالب بحقوقنا القومية !

يا من احتفل به الشعب، علِّم زعماءنا وقادتنا حب الشعب ، والاخلاص في خدمة الشعب !



مى زياده

(١٨٩٥ — ١٩٤١)

تلقت مي زياده علومها في مدرسة الراهبات في عينطورا، حيث بشر تفوقها في الآداب الاجنبية بمستقبلها الادبي المميز . وما اطلت على الحياة سنة ١٩١١ حتى كانت الاندية الادبية في لبنان تردد اسمها، خصوصاً بعد ان اصدرت مجموعة شعر بالفرنسية دعته « زهرات حلم » مستعيرةً لتوقيعه اسم « ايزيس كوبيا ». ثم استوطنت مصر مع ذويها، اذ اخذ والدها يصدر جريدة « المحروسة »، فكانت مي تنشر مقالات فيها بين وقت ووقت . واسترعت هذه المقالات انتباه الادباء، فراحوا يسعون للتعرف الى كاتبتها، وكان لمي من لباقة الحديث ورشاقته، ما كان يحبب الاجتماع اليها . وبذلك اخذ يتكوّن منتداها الادبي الاسبوعي الذي يحتل مقاماً في تاريخ الادب الحديث نظراً لفضله في تنشيط الحياة الادبية المصرية .

ولم تهمل مي، في اثناء ذلك، ثقافتها — بل اكبت على التحصيل باجتهاد التلميذة فتعمقت بالعربية دارسة اصولها، وتمكنت من الفرنسية فالانكليزية فالالمانية فالايطالية وعادت الى امهات اللغات فاستطاعت ان تحصل اليونانية واللاتينية . وكانت مي تتعمق بهذه اللغات بمحاولة نقل بعض آثارها الى العربية، وهكذا نشرت ثلاثة كتب مما نقلته عن الفرنسية والالمانية والانكليزية .

وظهر لها في سنة ١٩٢٠ « باحثة البادية » وهو مجموعة دراسات في قضايا تهم المرأة الشرقية عالجتها مي بلباقة وإحكام وبلاغة، مما نشر شهرتها الادبية واحلها في مقام الصدر بين اهل الادب .

ومن آثارها دراستها عن الادب النسوي في المع وجوهــه مثل وردة اليازجي، وعائشه التيمورية ومدام دي سفنييه وسواهن — وكانت تجمع ابحاثها في كتب كل سنة، فصدر لها « بين المد والجزر » و « سوانح فتاة » و« ظلمات واشعة » و « المساواة » . وقبيل وفاتها عالجت القصة فكان نجاح القليل مما نشرته عظيماً . اما بعد وفاتها فاشتهرت الرسائل التي تبادلتها وجبران خليل جبران، وهي لطائف غالية .

باحثة البادية

ان في بعض الناس قوى لا تكيّفها النعوت . ليست هي الذكاء وان كان الذكاء بدونها بلادة ، ولا الجمال وإن عدم الجمال ميزة التأثير بفقدانها . ولا هي توازن تراكيب الجسم وتناسب الاعضاء ونضارة الصحة ، وكل هذه تافهة اذا حرمت منها العنصر الخفي المحي الذي ينفعل به الاقوام ويخضعون لسطوته مريدين كانوا ام غير مريدين . لقد دعي ذلك العنصر مغنطيسياً وكهرباء ، وجاذبية ، ولطفاً ، وخفة دم ، وخفة روح ، و « نغاشة » ولكن جميع هذه المعاني ليست الا اجزاء منه وتشترك معها في تأليفه معان اخرى شتى .

انها لقوة عجيبة قد تحوّل ما هو في عرف البشر قباحة الى جمال فتان : فهي بروق الذكاء المتألقة في العيون وسيال اللطف المتدفق في الابتسام واغنية الروح المتماوجة في نغمة الصوت . هي سحر الحركة وهي وسم الامتياز ، وهي جلال الهيبة ، وهي قداسة السكوت . هي المقياس السري الذي يكيّف الاشارة ويوقع الخطر ، والشرارة التي تضرم ، والفكر ، والنور الذي يجعل كثافة المادة شفّافة . هي اليد العلوية التي اذا حلّت لسان المتكلم كان بليغاً ، واذا اشارت الى الناظر بدت نظرته عميقة ، واذا قادت قلم الكاتب كانت كلماته شائقة فعالة ويبقى صداها داوياً في اعماق النفوس .

وكل من عرف باحثة البادية شخصياً اي معرفة الجسد او معنوياً اي معرفة القلم ، علم انها كانت حائزة لهذه القوة التي حارت في تعريفها الاسماء . قد كان يكفي ان يعرفها المرء ليشعر بانجذاب اليها وليحبها . وقد كان يكفي ان يقرأ احدى مقالاتها ليرغب في مطالعة كل ما كتبت منفعلاً على رغم منه بالنفس الحار المالئ فصولها حتى لقد يتبيّن توهّج اللهيب المعنوي بين سواد الحروف . عبثاً تبحث هنالك عن الكاتب الذي يعلو بك الى قمم الادراك والعرفان ويبتدع لك من روحه جناحين تطير بهما الى الآفاق البعيدة . ان مؤلفة « النسائيات » قانعة بالغرفة

التي تسكنها ، والحي الذي تسير بين منازله، والبيئة التي هي جزء منها . وحينما تعثر على ما لا يرضيها – وما اقل ما يرضيها ! – تضرب بمؤلفات الباحثين وشروح العلماء عرض الحائط غير معتمدة الا على ما تختبره بالمشاهدة . وسرعان ما تقابل بين ما تراه عند الغير ومايشبهه مما طرأ عليها او قد يكون مهدداً حياتها . هي عين ترى ما هو كائن فتذكر ما يجب ان يكون . على ان هذه العين لا تنسى لحظة انها عين امرأة . فما تكاد تلمح خيال اللوعة حتى يحترق القلب منها لهفاً وتذوب ذراته وجعاً . واذا طرقت موضوعاً تهتز له طبيعتها النسائية من أقصاها الى أقصاها ...

قد ينظم الشاعر هذه الزفرات ابياتاً عامرة وقد يطلعك العالم الاجتماعي على سلسلة علله ومعلولاته مثبتاً لك شر تعدد الزوجات . ولكن قلما تجد في قصيدة ذاك وابحاث هذا تأثيراً يهز نفسك كما تفعل هذه السطور القلائل . ليس ما قرأته هنا بمنحدر من الفكر او بناتج عن الملاحظة والتنقيب ، بل هو اضطراب قلب جالت فيه المرارة مكوّنة انّات ما لبث القلم ان وقعهن على وفق ضربات القلب الخافق . ان هذه الفقرة لا يكتبها قلم امرأة .

ما هي الكلمة ؟

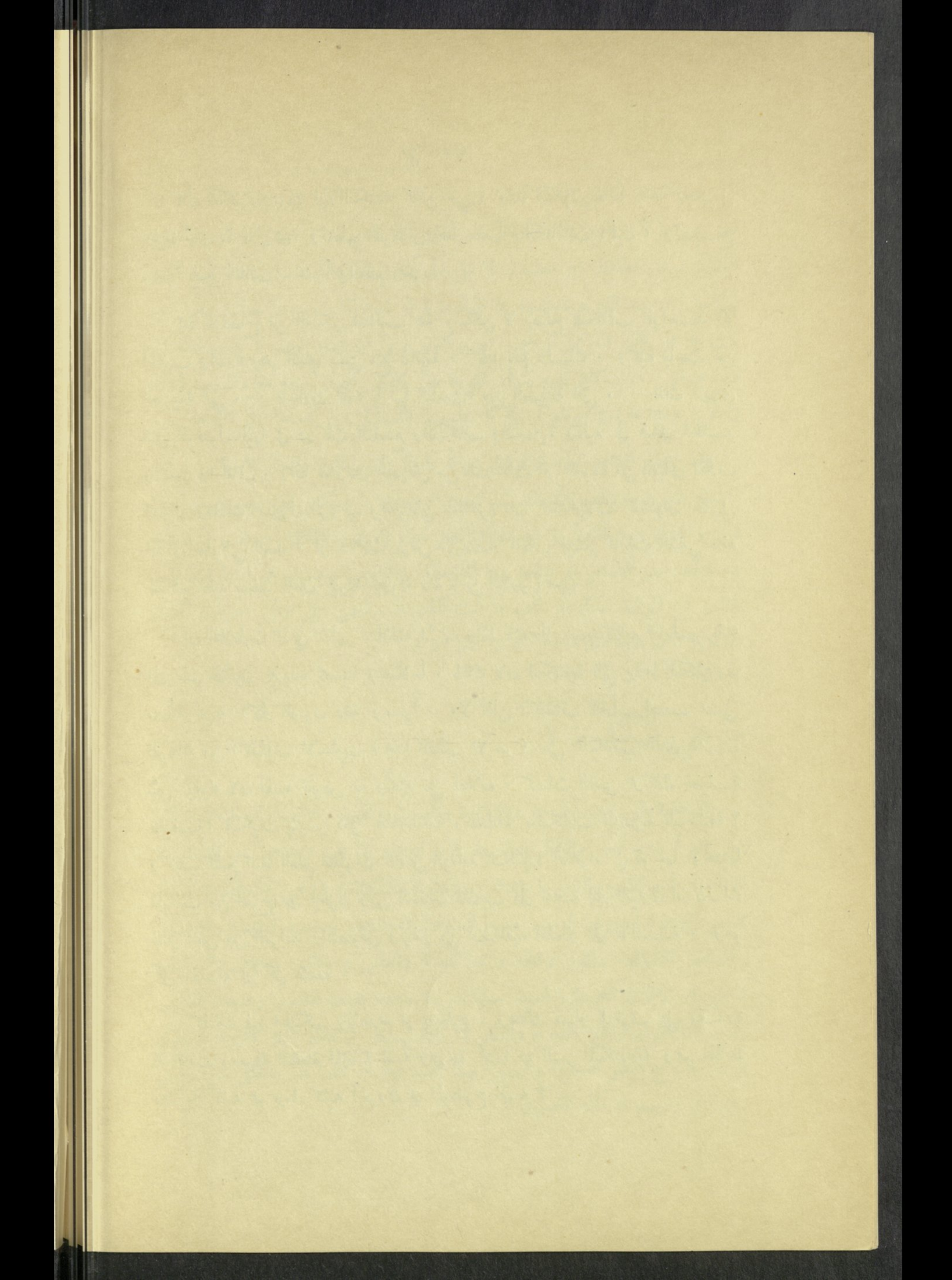
الكلمة التي تعين الحركة والاشارة والصوت واللون والانفعال ، الكلمة التي تعني امراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها، ما هي وما هو سر انتخابها ؟ الابجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة الا بالكلام، فما هي تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها، والشفاه وحدود ثناياها، والآفاق واتساعها اللانهائي، والليل وعمقه وكواكبه ، والنفس وعجائب خفاياها ؟ كيف تنبض في الالفاظ المجردة الجامعة حياة سريعة متقدة بثورة الشعور وهيجان الغضب وانين الشكوى ورنين النجاح والظفر ؟ لماذا تهتز الالفاظ تارة كالاوتار وتولول طوراً كامواج البحر العجاج، وتهمس حيناً همساً عجيباً كانما هو منطلق من سحيق دراري ومبهم الآمال القصوى ؟

قال فكتور هوغو ان الكلمة كائن حي ، وقد تكون خالقاً ساعة تجعل المخيلة ترى ما لا يرى، وتنظم القرطاس افقاً مفعماً بالكائنات الجميلة ، وتصبح سحراً يصيّر الغائب حاضراً والعدم وجوداً .

ان للافصاح عن الفكر اساليب جمة ولكن لا يصلح للكاتب الواحد الا اسلوب واحد، وهو الذي يتفق مع ذاتيته . كلنا عالم ذلك . وكلنا باحث عن الطريقة التي ... فأجارك الله، يا ايها الباحث، من الطريقة التي ... انك لتهوي قبل الوصول اليها في دركات التصنع والتكلف والتعمل، وتتيه في فيافي الخلو والتقعر والجفاف . واذا حاولت النهوض من الدركات او العودة من الفيافي تعثرت قدماك وقلمك بذيول الزوائد والحواشي الجاهزة بين المتداولات كالحلوى على اطباق حلواني العيد . او داهمك مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئك الشقي بانه حكم عليه بسفّ التبن بجريرة مجهولة منه ومن البشر اجمعين .

ان افلاطون الذي اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ظل ينسخ كتابه « الجمهورية » الى عمر الثمانين ليزيده تحسيناً واصلاحاً . ذلك لان الكتابة التي يراها الكثيرون مسألة هينة اكثر الفنون دقة وعسراً . ولا اظن اكتشاف القطب اصعب على الرحالة من اكتشاف الاسلوب (هذا القطب الآخر) على الكاتب الذي عنده شيء يقوله لان نفسه تفيض به وتحثه على اعلانه . كلمات النفس حركات خفيفة لطيفة، فكيف يتيسر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكثيفة ؟ وكيف تتبع اداة القلم خطوات النفس الوثّابة الكثيرة الاهواء في تموّجها وتحنيها المباغت من الفرح الى الحزن ومن التحنان المذيب الى النقمة البركانية ؟ ان ذلك لسر تملّص من القواعد والنصوص وترفع عن ان تلقيه الضمائر الى الالسنة . وهو كل مقدرته او كل ضعفه .

كذلك فيه الحكم بالاعدام او بالخلود . وهناك معيار للوقوف على مقدرة الكاتب ومعرفة النقطة المتغلبة لديه ودرجة ادراكه للسر المكنون، وهو المقابلة بين ما كتبه هو وما كتبه آخرون في الموضوع نفسه ؟



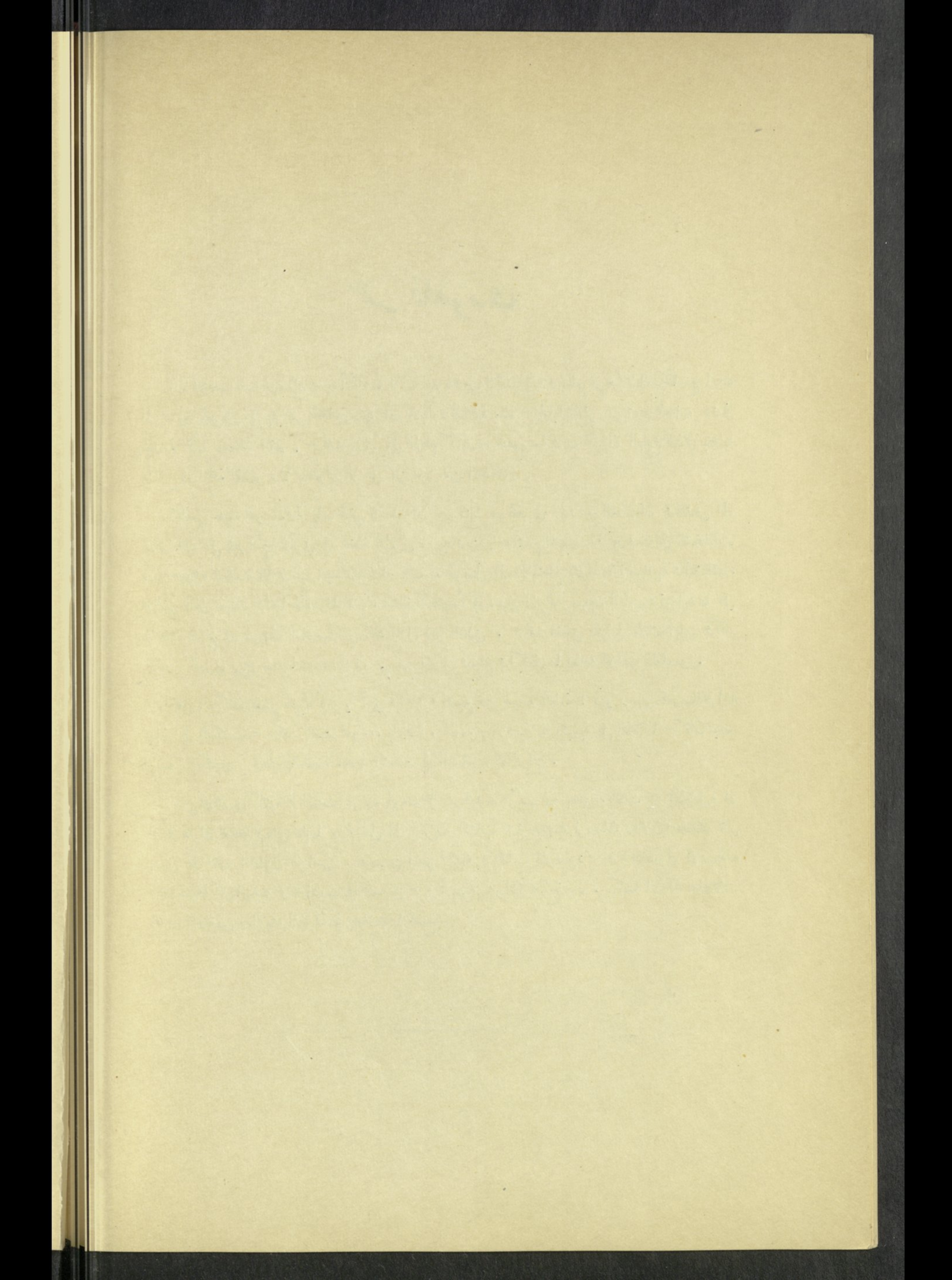
عمر فاخوري

ان الادب الساخر، الذي بدأ قاذعاً لاذعاً مع فارس الشدياق، وصار مرحاً ضاحكاً مع امين الريحاني، تجوهر على يد عمر الفاخوري الى الايماءة الناعمة ينشرح لها الخاطر ويبتهج العقل، دونما حاجة لأن يضحك الفم. ولقد تدقّ على افهام كثيرة، خصوصاً وان البيان البليغ الذي ينقلها متناهٍ في اناقة المظهر ولا ينطوي الا على كل انيق من الافكار.

تختصر حياة عمر العامة بان قضى الشطر الاكبر منها موظفاً في الدوائر العقارية، وانتهى الى الاشراف على البرنامج العربي في محطة الشرق في بيروت. وتقدم للنيابة عن بيروت في انتخابات سنة ١٩٤٣ تسانده الاحزاب اليسارية لانه كان قد توصل الى الاقتناع بالمبادئ اليسارية واعتناقها، وقضى آخر حياته داعياً لهذه المبادئ، مناضلاً عنيداً في سبيل نشرها بين الناس وتوطيدها على المنطق السليم في ظروف الحرب التي كاد يختل فيها المنطق. ولقد اخفق عمر في الانتخابات ولكن الادب العربي ربح صفحات جديدة، هي من اشرق وابلغ واكثر ما اطلعه الادب المعاصر.

على انه كان لعمر حياة فكرية اغنى واعمق واوسع من حياته العامة: فهو رجل عاش بالقراءة عاش في الكتب - وقد كانت همومه، بالاولى، الهموم الادبية الفكرية على اطلاقها - كان يتهم نفسه بالكسل. وهو بالحقيقة شديد التعنت في السبك والاخراج.

من اوائل كتبه «ابحاث غربية في مسائل شرقية» عرّب فيه بعض مقالات عن الشرق، او اوجزها او نقدها وعلق عليها. ثم نقل الى العربية كتاب «غاندي» لرومان رولان، كما نقل بعض طرائف اناطول فرانس. ومن اشهر كتبه «الباب المرصود» و«الفصول الاربعة» و«الحقيقة اللبنانية» و«اديب في السوق» و«بلا هوادة» الخ... كما ان له محاولات قصصية وبعض مقالات متفرقة في مجلات لم تجمع.



لبنان

ايحتاج لبنان — كما نعرفه قطعة من جغرافيا، وفلذة من تاريخ — الى ان يتسلق ذروة من ذرى الزمن، والى ان يضرب في مسافات الارض والسماء، فيجيل انظاراً ثابتة او حائرة، في ظلمة الماضي او غيب المستقبل، في الآفاق القريبة او البعيدة. . . ترى، ايحتاج لبنان الى ذلك التعب الشديد، المقعد المقيم، كي ينتهي به الامر الى القول في سره او على رؤوس الاشهاد : « انا صغير، جد صغير . . . صغير جغرافياً، وصغير تاريخياً » ؟ لعمري ان تلك الكلمة ليست مما يقال قولاً، بل مما يهتف به هتافاً . فلبنان منذ كان، لم يقف على ساحل هذا الابيض المتوسط، بازاء مدنياته القديمة والحديثة، كما يقف الصياد الذي دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة واحدة . لا، لكنها قصة شعب من الشعوب، ما كان صغر جغرافيته وتاريخه ليعوّقه او يكفه او يمنعه عن ان يعطي العالم، في عصر من عصور تمدينه، اداة التخاطب المثلى، واساليب العبارة الفضلى، وطرائق للفكر والعمل قويمة. . . بل لعل صغره في رقعة الارض وفي زحمة التاريخ، كان حافزاً ذلك الشعب، دافعاً اياه بعزم لا يغلب، الى الاخذ بضرب من ضروب العظمة او السمو او التوسع، يكفي به طموح ذاته، ويسد عوزها .

وهكذا رأينا لبنان يتبسط سفناً ومدناً، ويتسامى آلهة وهياكل ، ويتوسع بالحرف والفكر . . . ومن غاباته المقدسة كان يشيد معابده الذاهبة صعداً، ويبني مراكبه الذاهبة بعيداً، كأن له من ضيق مساحته، وصغر حجمه، عند المسافة ثأراً، فلن يقرّ له قرار حتى يدرك ثأره — مقرباً الابعاد، جامعاً الاضداد، واصلاً قطيعة المادة والروح على السواء .

ليست الثقافة في بلد من البلدان، ولا رسالتها في شعب من الشعوب، مما يرتجل ارتجالاً، ولا مما يسنّ في ضجة المجالس والمجامع، ولا مما تحدس به مخيلة شاعر او

ينضح به ذهن حكيم، ثم يفرض على الوجود فرضاً . فالحياة نفسها (والتاريخ الذي يحكي حكايتها) ليست سوى حوار لا ينتهي، بين الانسان والطبيعة . ويندر ان تكون الكلمة الاخيرة في ذلك الحوار، لهذا الكائن من لحم ودم . . . حوار لطيف تارة وتارة عنيف، مضطرد او منعكس، في صراحة او جمجمة . . . كزقزقة العصفور وسقسقة الجدول، كاصطفاق الموج وتقصف الرعد . . . يهمس همس النسيم او يدوّي دويّ البركان .

لبنان ملقى السبل المتفرقة، ومعترك الامم المتنافسة، ومزدحم الثقافات المتقاطعة . ما من قوة في الارض تستطيع ان تغلق ساحله الغربي، هذا الباب المفتوح على مصراعيه للابيض المتوسط، من مدنيات وشعوب، يعطيها ويأخذ عنها، ثم يقذف به واحة غريبة في الصحراء . كذلك ما من قوى في الارض تستطيع ان تسلخه عن هذا الشرق الساميّ الذي وصلته به، منذ كان التاريخ بل قبل ان يكون، وشائج دم ولغة، وتقاليد واساطير، وعبارات وثقافات، ثم يُقذف به جزيرة عائمة في الاوقيانوس . سيظل لبنان حيث هو وحيث كان، من الطبيعة ومن التاريخ، همزة وصل بين الشرق والغرب اللذين يلتقيان فيه . واذا صحّ ان ثمة مستقبلاً، قريباً او بعيداً، ليس يعرف الاثرة القومية وما يلازمها من مظاهر الطمع والفتح والغلبة، ولا التحريم الفكري وما ينشأ عنه من تعصب على اختلاف انواعه، فقد كانت اذاً ثقافة لبنان هي المثلى، ورسالته في الدنيا هي الفضلى : ثقافة تمازج، ورسالة تواصل .

ولعل اكرم ما يصدره لبنان من بضاعة، ابناؤه في النواحي الاربع من الارض، بناة المدن والسفن، المخاطرون غير مغامرين، المثقفون طبعاً وتطبعاً، المحافظون في غير ترمت، المجددون من غير تعسف، ناشرو الابجدية قديماً وحضنة العربية حديثاً، ابناؤه السمر الميامين، حملة رسالته الثقافية في العالم .

الادب والمجتمع

خطر لي، بادئ بدء، ان اجعل عنوان هـذا الفصل : « اديب في السوق، او صيد نهار » . وما كاد هذا الخاطر يستقر في ذهني، حتى تمثلتني مسلحاً بكل اداة صيد، صيد البر وصيد البحر، اعـدو في زحمة المدينة، خلف طيوف وشخوص، واساطير ووقائع، ورموز وحقائق، مما تتألف منه هذه الحياة التي نحياها او هذا الوجود الذي نضطرب فيه . ثم رايتني وقد ادركتني العتمة، عائداً ادراجي الى البيت، وانا مثقل كالنحلة، بخبرة جديدة، من دنيوات لا عهد لي بها من قبل .

وبالفعل طاوعت نزوة خاطري، انا المتردد الكسول الذي لم يخرج عمره مرة الى العيد . . . وهكذا وجدتني على الرصيف باسرع من لمح البصر مدفوعاً بقوة لا رادّ لها، كأنها تحركت في سويدائي بغتة طباع آبائنا الاولين الذين كانوا، على حد قول العلماء، قناصة صيادين، قبل ان يمارسوا الفلاحة والصناعة والتجارة . . . والتوظيف والجندية، وسواها من المهن — حرة وغير حرة (ما كان منها حرّاً، ففي دائرة ما، وما لم يكن حرّاً فالى حدّ ما .)

. . . كان ذلك لسنوات خلت . وكان اول عهدي بحمل النظارات اعالج ضعفاً في البصر طال العهد به، واعتقدت اعتقاداً جازماً بان حرمني فوائد وملذات عديدة، لا يحصيها العدّ . مـا اكثر ما منّيت النفس بان أشهدها، بفضل زجاجاتي الحادثة، ما لم تكن تشهد من حالات وحركات، وان أريها ما لم تكن ترى من خطوط والوان . فكأنها تعرف الحيـاة جملة، فستعرفها تفصيلاً، او كانت تكتنه الوجود مختلطاً، في ابهام وغموض، فستكتنهه تفاريق في دقة ووضوح .

لقد كان ذلك اليوم يوماً تاريخياً في حياتي . انا رهين الكتاب، سأعرف الهواء الطلق . سأخرج من محبسي، كما تخرج فراشة الحرير من شرنقتها . . . وجلست

في الترام مزهواً مبتهجاً، انظر يمنـة، ثم انظر يسرة، كمن يفتح على الكون عيني طفل جديدتين . . .

ماذا كانت نتيجة صيدي، في ذلك اليوم السعيد من ايام العمر ؟ لقد دوّنت خبرتي الاولى، كما يعلق الصياد عـلى جدران بيته رؤوساً وجلوداً من الحيوانات اصطادها . . . او لم يصطدها هو .

(اني منذ اسبوع، اذهب كل يوم، الى قهوة « الحاج داوود » كي امتع النظر بصورة معروضة في ركن من اركانها، هي انفس من صورة المستحي بلا حياء، واعجب من صورة المتعجب من غير عجب : هذا العجوز الجالس الى طاولة، وهو يبكي . . . يبكي باصرار، حتى اني، اول مرة رأيته، كدت — لشدة ما رثيت له — لا اقبض يدي التي همت ان تنبسط الى يـده، فتهزها بلطف معزية مشاركة في المصيبة . هو حزين، جد حزين، كأنمـا نعيت اليه نفسه . . . ويلعب بالنرد، ولا يمسح دموعه . ماذا ؟ اتريدونني على ان اصف لكم ذلك الحزين بلا حزن، الباكي من غير دموع ؟ ان لساني لعاجز عن تمثيل تلك الصورة الفنية البديعـة، بل عن تناولها بشيء من الوصف . . . بحسبكم ان تتمثلوا شجرة من الصفصاف المتهدل الاغصان، الذي يلقبه الفرنسيس بـ « البكاء » او ان تتصوروا سماء تمطر ولا ماء . . . فهذا وحده قد يوحي الى الذهن بعضاً من مزايا الآية الخارقة . . .)

ويجب الآن ان اتسلح بكل صفات الرجولة، كي اقول لكم كيف انتهى ذلك العرض من صور اصطدتها، لاول عهدي بالادب « الحي » المستمد من الواقع او « الطبيعة » . قلت بصوت بعيد القرار : « هنالك المستحي ولا حياة، والمتعجب من غير عجب، وهنا . . . » هنا سمعت قهقهة، فالتفت، فاذا ؟ بالعجـوز الباكي، ولا دموع، كأنه يضحك — وهو حقاً يضحك — من خصمه في النرد . بل كيف أقول انه يضحك، بينا هو لا يزال يبكي، ولا يني يزيد بكاء، كالصفصاف المتهدل الاغصان . . . بكت السماء وقهقه الرعد !

وليت القصة انتهت عند هذا الحد! لا . . . اذ يلوح ان صاحبنا الصياد لم يأوِ الى بيته الا كي يعود الى الكتاب، كما تعود فراشة الى شرنقتها، وهو ما لم يشهد مثله التاريخ الطبيعي . عاد الى الكتاب، فقرأ في « الفائق » للزمخشري ما نصه : (الحجَّاج — كان قصيراً اصعر كُهَاكِها . و « الكهاكه » لغة، الذي اذا نظرت اليه كأنه يضحك وليس بضاحك، من الكهكهة) . فصرخ الصياد بملء فيه : اوريكا . . . وجدته: كأنه يضحك وليس بضاحك . . . كأنه يبكي وليس بباكٍ . هي الصورة التي اصطدتها من قهوة « الحاج داوود » على سيف الابيض المتوسط . الان عرفته، لاني وجدت له اسماً يغني عن جميع الاوصاف التي لم اجدها . . . ستهتفون بي : « انها عبقرية اللغة العربية » . هي، في الاقل طبيعتها وطبيعة سائر اللغات، على ما نرّجح .

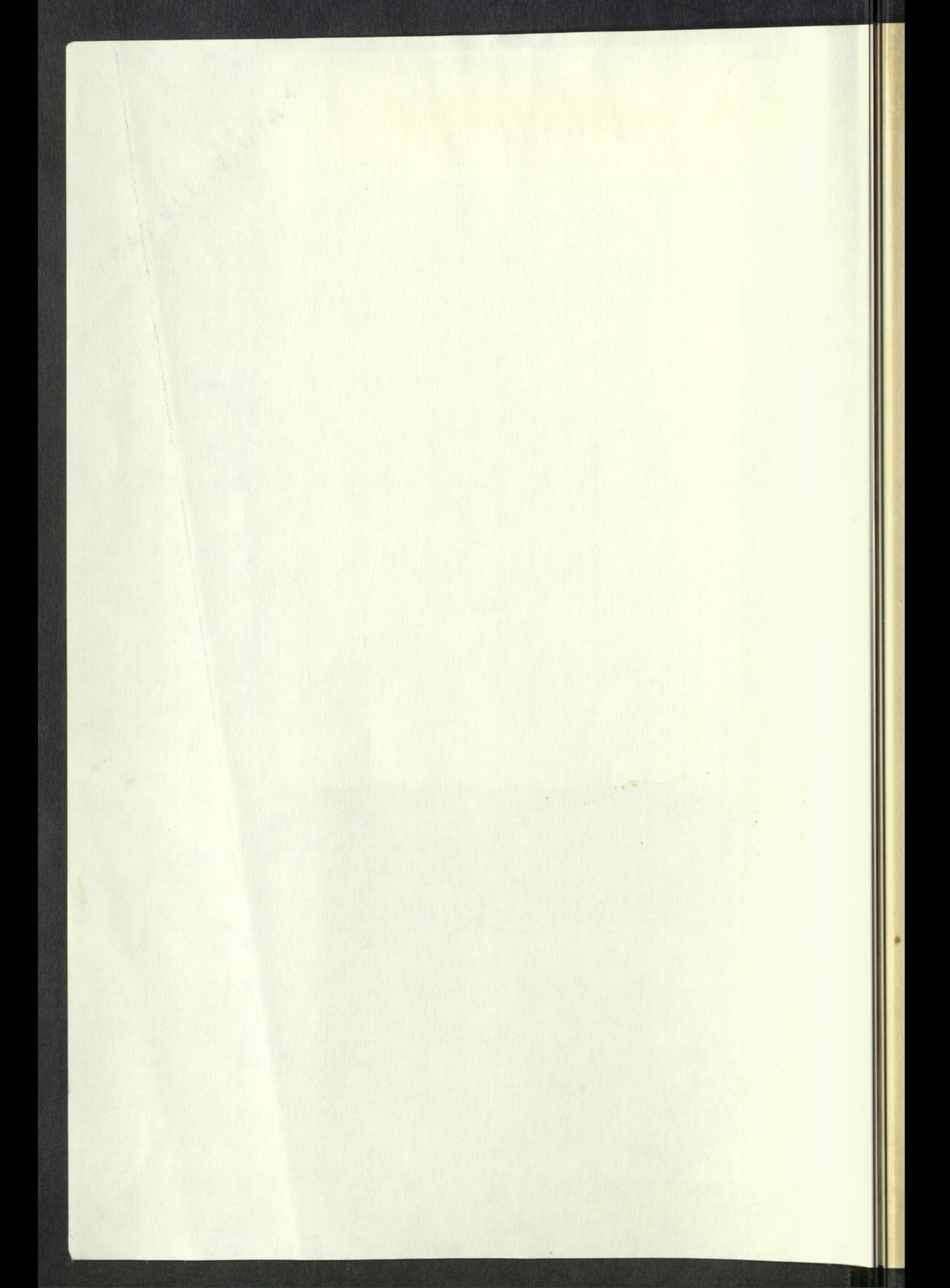
. . . ذلك ما كان من شأن تجربتي الاولى في الصيد الادبي . فلم اكن متواضعاً اذ قلت لكم منذ البداية، انها لم تكن موفقة الا بقدر ما ينسب الى التوفيق، صيد الصياد المشتري . فالصياد المشتري يعد موفقاً اذا لم يدفع ثمن ما صاده غالياً . وكانت خاتمة هذه التجربة اني وقعت في شباك الفاضل الزمخشري، وقد وقف ذلك الكهاكه ينظر، ويضحك حقًّا وصدقاً، بين دفتي القاموس .

رسالة الاديب! لقد كان الانبياء وحدهم، فيما غبر من القرون، ذوي رسالة : فاذا كل من عليها اليوم وله رسالة : الطبيب والمعلم والصحافي والمحامي، ويتبعهم الاديب . حلة مبهرجة لستر الفاقة . . . حبذا لو ان هؤلاء « الرسل » يقلون من التبجح برسالاتهم اقل كثيراً، ويكثرون من آراء وظائفهم اكثر قليلًا . . .

ولقد اخذ بعضهم على اديب او (متأدب) ما، اشتغاله بالسياسة، زعماً منهم انه يسخّر فنه وادبه، بل « الفن والادب » لاغراض لا ادري بم ينعتونها، او هم لا ينفونها بشيء، مخافة ان يحملوا على الخروج من دائرة الغموض والابهام التي يجدون فيها راحة نفوسهم، مكتفين بايماءة يبدونها، او لهجة يتصنعونها . يقولون ان

الكتّاب والشعراء هم « حفظة » القيم الانسانية « الباقية »، وخالقو الامثلة العليا في عصر من العصور، لجيل من الناس، فلا ينبغي لهم ان يسفُّوا، او يتبذلوا، او يتعرضوا لما لا يعنيهم . لكن، ترى، اية سياسة يعنون ؟ أإذا كان كل قيمة انسانية، وكل مثل اعلى، عرضة لاوهى خطر ابتلي به المجتمع، بينما الامم والافراد في معسكرين اثنين، في نضال مدجج بالحديد، مضرج بالدم، في ملحمة كملاحم الاساطير ... ترى، امن الاشتغال بالسياسة، ان ينظر الاديب ويعرف، ويفعل ويشعر، وينفعل ويتحمس، ثم يرسل صيحة، او يصعد زفرة، او يهتف لاحد المعسكرين؟ اكبر الظن ان « هؤلاء » الادباء انما ينعون على « ذلك » الاديب، اشتغاله « هكذا» بالسياسة، لانهم في اقصى ضمائرهم لا يملكون « هم » ان يهتفوا للمعسكر الآخر. فنحن لم نرهم يوماً يأخذ بعضهم على بعض، انهماكه في سياسة ما ، سياسة تعيين المخاتير، بله النواطير .

وهل كان الاديب او الفنّان الا رجلا من امة، وعضواً في مجتمع – كعقرب الساعة على الاكثر؟ انه يتكلم بلغتنا، ويستمد من بيئتنا، ويعيش في جوّنا : هو ابن جغرافيته وتاريخه . هو يأخذ فكيف لا يعطي ؟ على ان كل محاولة يأتي بها، كي ينسلخ من هذه الاصول الحية، خطوة يخطوها نحو الانتحار، انتحاره هو، وتظل الحياة حياة – متطورة متبدلة متحولة .



DATE DUE

ANTHOLOGIE

DES

AUTEURS LIBANAIS

DE

LANGUE ARABE

حريصا ١٩٤٨

المطبعة البولسية